الشعر فى الدولة العباسية

قد رأيت أن قيام الدولة العباسية كان حدثا عظيما، وانقلاباً هائلا له أثره فى حياة العرب ، ونظام معيشتها ، وتعاظم مدنيتها ، وتكاثر علومها ، ونبوغ فلاسفتها .

ولقد كان للشعر العربى نصيب كبير مما نال اللغة العربية من ارتقاء . والشعر جدير بهذا ، فقد كان فى كلّ عصر موضوع عناية القوم والمقدم من فنون قولهم ، والعمدة فى إظهار مشاعرهم ، وقد شمل التغيير كلّ شىء فى الشعر من معانيه وأغراضه وألفاظه وأسلوبه ووزنه .

وكان للشعر فى نفوس الخلفاء والأمراء منزلة . وللشاعر عندهم مكانة ، وسنشرح كلّ ذلك لتتمثل من مجموعه ما كان للشعر والشعراء فى هذا العصر من قدر .

منزلة الشعر

كان الحكام الأوائل فى هذا العصر هم عرب نشئوا فى العربية ، فرسخت فيهم ملكتها ، وتأصلت عادتها ، وهزّت أعطافهم بلاغتها . لذلك رأيناهم يحرصون على الشعر لأنهم يرون فيه مجدهم السابق ، وفخرهم التالد . فتذاكروا أقوال أسلافهم ، وتناشدوا مأثور كلامهم ، وعقدوا المجالس لذلك ، وجادوا بعظيم العطاء على كلّ مبرز فى العناية بهذه الآثار ، وحاذق فى تفهم ما ورد عن السلف منها ، كذلك سمعوا المدح من شعراء عصرهم ، وفرضوا لهم الأعطية فى بيت المال ، وأعطوا على كلّ بيت ألف دينار إلى غير ذلك مما دلّ على مبلغ عنايتهم بالشعر وقائليه .

ولم ينته أمرهم إلى الالتذاذ بسماع الشعر ، والارتياح إلى إنشاده ، بل كان لهم بصر به ، ومعرفة بخبره ، فقد سمع المنصور شعر طَرِيفِ بن تميم العَنْبَرىّ :

إنَّ قَنَاتِى لَنَبْعٌ لا يُؤَيِّسُهَا ... غَمْزُ الثِّقَافِ ولا وَهْنٌ ولا نَارُ(١)

---

(١) التأييس : التأثير فى الشىء .

متى أُجِرْ خائفاً تَأْمَنْ مَسَارِحُهُ   و إن أُخِفْ آمِناً تَقْلَقْ به الدارُ

إنّ الأمورَ إذا أَوْرَدْتُهَا صدَرَتْ   إن الأمورَ لها وِرْدٌ و إصْدارُ

فقال : أنا أحق بشعره منه ، وأنا الذى وصف لا هو . وليس هـــذا القول منه إلا أثراً لحسن تقديره لهذا الكلام ، وأنه فى علو معناه لا يليق إلا أن يكون صفة لخليفة مثله .

وكذلك المنصور هو الذى انصرف من دفن ابنـــه جعفر الأكبر ، وفى قلبه لوعة الحزن عليـــه ، فلم ير مسليًا عنه إلا قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أبنائه ، فقال للربيع : أبغنى من أهل بيتى من ينشدنى :

أمِنَ المنون ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ   وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ

فخرج الربيع إلى بنى هاشم ، فلم يجد فيهم من يحفظها ، فعاد إليه فأخبره بذلك ، فقال : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم من يحفظ هذه القصيدة لقلة رغبتهم فى الأدب ، أعظم وأشدّ علىّ من مصيبتى بابنى . ثم قال : انظر هل فى القوّاد والعوام من يعرفها فإنى أحبّ أن أسمعها من إنسان ينشدها . فخرج الربيع فاعترض الناس فلم يجد واحداً ينشدها إلا شيخاً مؤدِّباً قد انصرف من تأديبه فانصرف به إلى المنصور ، فأنشدها إياه ، فلما قال : « والدهر ليس بمعتب من يجزع » قال : صدق والله ، فأنشدنى هذا البيت مائة مرة لتردّد هذا المصراع علىّ فأنشده ؛ ثم مرّ فيها ، فلما انتهى إلى قوله : « والدهر لا يبقى على حدثانه » الخ قال : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول . فأنت ترى أنه عرف موضع الإبداع فى القصيدة ، فاستعاده مائة مرة ، وعلم حين هدأت نفس الشاعر وسلا .

وكان المأمون كذلك بصيراً بالشعر : حدث عمارة بن عقيل قال : أنشدت المأمون قصيدة فى مدحه فيها مائة بيت ، فما ابتدأت ببيت إلا سبقنى إلى قافيته . قال عمارة : فقلت والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قطّ . قال المأمون : وهكذا ينبغى أن يكون . وقال عمارة : قال لى عبد الله بن السمط : علمت أن المأمون لا يبصر الشعر، فقلت : ومن

ذا يكون أعلم به منه ؟ فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره . قال : إنى أنشدته بيتا أجدته ، فلم يتحرك له ، فقلت له : وما هو ؟ قال :

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغلا   بالدين والناسُ بالدنيا مَشَاغيـلُ

فقلت ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً فى محرابها فى يدها سُبْحتها . فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها ؟ وهو المطوق بها . هلا قلت كما قال جرير فى عبد العزيز بن الوليد :

فلا هوَ فى الدنيا مُضِيعٌ نَصِيبَهُ   ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغِلُهْ

ولقد عرف الناس عن خلفاء هذه الدولة ما للشعر فى نفوسهم من كرامة وفى آذانهم من قبول ، فكانوا يجعلون الشعر وسيلة إلى إيصال ما يتحاشون مواجهتهم به ، كأن الشعر يجعل من عسر الموقف يسراً ، ومن شدّة الأمور سهولة ولينا . ذكر المبرد فى كتاب « الروضة » أن الرشـيد غزا بلاد الروم ، فخضع له نقفور ، وبذل الجزية ، فلما عاد واستقرّ بمدينة الرقة ، وسقط الثلج نقض نقفور العهد ، فلم يجْسُر أحد على إعلام الرشيد لمكان هيبته فى صدور الناس . فبذل يحيى بن خالد الأموال للشـعراء على أن يقولوا إشعاراً فى إعلامه ، فتقدّم إليه شاعر من أهل جدّة يكنى أبا محمد . فأنشد الرشـيد قصيدة منها :

نقض الذى أعطيتَهُ نَقْفورُ   فعَلَيْهِ دائرةُ البَوَارِ تَدُورُ
أَبْشِرْ أميرَ المؤمنينَ فإنَّهُ   فَتْحٌ أتاك به الإلهُ كبيرُ
نَقْفُورُ إنَّك حين تَغْدُرُ أَنْ نأى   عَنْكَ الإمامُ لجاهلٌ مغرورُ
أَظَنَنْتَ حين غَدَرْتَ أنك مُفْلت   هَبِلَتْك أمُّك ما ظَنَنْتَ غُرُورُ

فلما انتهى الشاعر من هذه الأبيات قال الرشيد : أوقد فعل ثم غزاه فى بقية الثلج وفتح مدينة هِرَقْلة . وقد ذكروا أن جفاء دبّ بين الرشيد و بين جاريته ماردة ، وهى بعزّة دلال المعشـوق تأبى أن تعتذر وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك ، فرام يحيى

ابن خالد أن يزيل ما بينهما ، فاستدعى العباس بن الأحنف ، فقال : ويحك يا عباس ! إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك ، وحسن تأتيك ، وإن الذى ندبتك له من شأنك ، وقد جرى بين الرشيد وبين ماردة عتب أعيانى أمره ، فقل شعراً تسهل به هذا السبيل ثم تركه حيناً ، فقال أربعة أبيات من روىّ واثنين من آخر ، وبعث بالجميع إليه ، والأبيات هى :

العاشقان كلاهما مُتَغَضِّبُ ... وكلاهما مُتَوَجِّدٌ مُتَجَنِّبُ

صدَّتْ مغاضبةً وصَدَّ مغاضبا ... وكلاهما مما يُعالِجُ مُتْعَبُ

راجعْ أحبَّتَك الذين هَجَرْتَهُمْ ... إن المُتَيَّمَ قَلَّمَا يَتَجَنَّبُ

إنّ التَّجَنُّبَ إن تطاول منكما ... دَبَّ السُّلُوُّ له فَعَزَّ المطلبُ

والبيتان :

لا بُدَّ للعاشق من وَقْفَةٍ ... تكون بين الوَصْلِ وَالصَّرْمِ

حتى إذا الْهَمُّ تمادى به ... رَاجَعَ مَنْ يَهْوَى على رَغْمِ

فلما سمع الرشيد الشعر ، وانتهى إلى قوله : « راجع من يهوى على رغم » أغرب فى الضحك ، ثم قال : أراجعها والله على الرغم ، ثم أمر له ، وأمرت الجارية والوزير بما اشترى ببعضه ضياعاً تغل عشرين ألف درهم .

ولم يقف بصرهم بالشعر عند حدّ فهمه ، وإدراك محاسنه ، والتسلى بلهوه ، والاهتياج بحماسته ، بل إنهم كانوا هم أنفسهم شعراء ، فقد رووا للرشيد شعراً كثيراً ، فمن ذلك قوله فى جارية له تركية :

يا ربَّةَ المنزل بالبَرْكِ[1] ... ورَبَّةَ السُّلْطَانِ والْمُلْكِ

ترفقى بالله فى قَتْلِنَا ... لَسْنَا من الدَّيْلَمِ والتُّرْكِ

---

(١) البرك (بالفتح أو الكسر) اسم لمواضع كثيرة ، ومنها أقصى المعمور من الأرض . ولعله أشار بذلك إلى أنها من تلك البلاد (بلاد الترك) .

وقوله فى قينة له أيضاً :

تُبْدِى صُدُوداً وتُخْفِى تحته مِقَةً ... فالنَّفْسُ راضيةٌ والطَّرْفُ غَضْبانُ

يا من وَضَعْتُ له خَدِّى فَذَلَّلَهُ ... وليس فَوْقِى سِوَى الرَّحْمٰنِ سُلْطَانُ

وقوله فى رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها من الحزن ما ضاق له صدره وفرغ دونه صبره :

قاسيتُ أوجاعا وأحزانا ... لما اسْتَخَصَّ الموتُ هِيْلانا(١)

فارقتُ عيشى حين فارقتُها ... فما أبالى كيفما كانا

قد كَثُرَ الناسُ ولكنَّنِى ... لست أرى بَعْدَكِ إنسانا

واللهِ ما أنساكِ ما حَرَّكَتْ ... رِيحٌ بأعلى نَجْدٍ أغصانا

وكان له ثلاث جوار أهداهنّ إليه الفضل بن الربيع ، وهنّ : سحر ، وضياء ، وخنث ؛ فقال فيهنّ :

إن سِحْراً وضِياءً وخَنَثْ ... هنَّ سِحْرٌ وضِياءٌ وَخَنَثْ

أخذَتْ سحرٌ ولاذنب لها ... ثُلُثَىْ قلبى وترْبَاهَا الثُّلُثْ

وقال فيهنّ أيضاً :

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِسَاتُ عِنَانِى ... وحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِى بِكُلِّ مَكَانِ

مالى تُطَاوِعُنِى البَرِيّةُ كُلُّها ... وأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فى عِصْيانِى

ما ذاكَ إلا أنَّ سلطانَ الهوى ... وبه قَوِينَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطانِى

ولقد نسبوا للمأمون قوله فى الشطرنج ، وقد كان أحب ملاهيه إليه :

أَرْضٌ مُرَبَّعَةٌ حَمْرَاءُ مِنْ أَدَمٍ ... ما بين إِلْفَيْنِ موصوفين بالكَرَمِ

هذا يُغِيرُ على هـذا وذاك على ... هـذا يُغِيرُ وعَيْنُ الحَرْبِ لم تَنَمِ

---

(١) استخص : خصّ .

فانظرْ إلى الخيل قد جاشتْ بمعركةٍ   فى عسكرين بلا طَبْل ولا علَمِ

وقال الزبير بن بكّار : دخلت على المعتز بالله فسلمت عليه ، فقال يا أبا عبد الله إنى قلت فى ليلتى هذه أبياتاً ، وقد أعيا علىّ إجازة بعضها ، فقلت أنشدنى ، فأنشدنى ، (وكان محمومًا) :

إنِّى عرَفْتُ علاجَ القلبِ والوَجَع   وما عرَفْتُ علاجَ الحُبِّ والجَزَعِ

جَزِعْتُ للحُبِّ والحُمَّى صَبَرْتُ لها   إنِّى لأَعْجَبُ من صبرى ومنْ جزَعِى

من كان يَشْغَله عن حُبِّهِ وَجَعٌ   فليس يَشْغَلُنى عن حُبِّكم وَجَعِى

قال أبو عبد الله الزبير ، فقلت :

وما أَمَلُّ حـــديثى ليلةً أبدا   مع الحبيب ويا ليت الحبيب مَعِى

فأمر لى على البيت بألف دينار .

ولقد يطول بنا القول لو ذهبنا نسرد ما تفرق فى الـكتب من شعر هؤلاء الخلفاء ، ويكفى فى الدلالة على شأن الشعر فيهم أن نذكر أن ابن المعتزّ وهو واحد منهم عد من كبار الشعراء ، وقد قالوا : إن الراضى آخر خليفة ، انفرد بتدبير الملك ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم جمعة ، وآخر خليفة له شعر مدوّن ، فكأن الشعر كان لازمة من تقدمه من الخلفاء ، وليس معنى هذا أن الخلفاء بعده انقطعوا عن قول الشعر لأن المنفى هو اجتماع هذه الخصال فى خليفة بعد الراضى ، فيصح أن الشعر ظل فيهم ، وهذا هو المناسب لما صاروا إليه من فراغ وانصراف إلى اللهو والمنادمة .

هذا وإن من استبد بالأمر من ملوك الدول الناشئة فى المملكة العباسية قد أرادوا أن يتقيلوا العباسيين فى كل ما عرفوا به ، فكانوا مع عجمتهم يحتفلون بالشعر ويجيزون عليه ، بل لقد قالوه ونبغوا فيه ، فهذا عضد الدولة يروى له قوله :

لَيْسَ شُرْبُ الكأْسِ إلاَّ فى المَطَرْ   وغِناءٍ من جَوَارٍ فى السَّحَر

غانياتٍ ســـالباتٍ للنُّهَى   ناغماتٍ فى تضاعيف الوَتَرْ

مُبْرِزَاتِ الكأس من مَطْلَعِها　　ساقياتِ الراحِ من فاق البَشَرْ
عَضُدَ الدَّوْلَةِ وابْنَ رُكْنِهَا　　مَلِكَ الأملاك غَلاَّبَ القَدَرْ ! !

وبلغ من شغفه بالشعر وحسن تقديره له أنه لما سمع قصيدة محمد بن عمران الأنبارى التى قالها فى الوزير بن بقية لما صلب ، قال : ليتنى كنت المصلوب وقيلت فىّ هذه القصيدة ، ومطلعها :

عُلُوٌّ فى الحياة وفى المماتِ　　لَحَقٌّ تلك إحدى المُعْجِزَاتِ

ولعله بهذا يقلد أبا دُلَف حين سمع قصيدة أبى تمام فى رثاء محمد بن حميد الطوسى قال لأبى تمام ، وددت أنها لك فىّ ، والله إنه لم يمت من رُثِىَ بهذا الشعر .

وهذا سيف الدولة (وإن كان عربيًّا) يقول فى وصف قوس قزح فيبلغ غاية الإحسان :

وساقٍ صَبِيحٍ لِلصَّبُوحِ دَعَوْتُهُ　　فقام وفى أجفانه سِنَةُ الغُمْضِ
يطوف بكاساتِ العُقارِ كأنْجُمٍ　　فمن بين مُنْقَضٍّ علينا ومُنْفَضِّ
وقد نَشَرَتْ أيدى الجَنُوبِ مَطَارِفاً[*]　　على الجَوِّ دُكْناً والحواشى على الأَرْضِ
يُطَرِّزُها قَوْسُ السحابِ بأصفرٍ　　على أَحْمَرٍ فى أخضرٍ إِثْرَ مُبْيَضِّ
كأذيالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فى غَلاَئِلٍ　　مُصَبَّغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

وقابوس بن وشْمَكِير من ملوك الدولة الزِّيارِيَّةِ بطَبَرِسْتَانَ كان أديباً شاعراً كاتباً ، ومن شعره قوله :

قُلْ للّذى بصروف الدهر عَيَّرَنا　　هل حاربَ الدهرُ إلاّ من له خَطَرُ
أما تَرَى البحرَ تعلو فوقه جِيَفٌ　　وتستقرُّ بأقصى قَعْرِه الدُّرَرُ
وفى السماء نُجُومٌ ماله عَدَدٌ　　وليس يَكْسِفُ إلا الشَّمْسُ والقَمَرُ(١)

(*) جمع مُطْرَف [illegible]

(١) يشبه قول ابن الرومى :
رأيت الدهر يرفع كل وغد　　ويخفض كل ذى شيم شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حى　　ولا ينفك تعلو فيه جيفه

ومن قوله أيضاً :

خَطَراتُ ذِكْرِكِ تستثير مودتى فأحِسُّ منها فى الفؤاد دَبِيبا
لا عُضْوَ لى إلاَّ وفيه صَبَابَةٌ فكَأَنَّ أَعْضَائى خُلِقْنَ قُلوبَا

شان الشاعر

على قدر نصيب الشعر من المكانة فى النفوس تكون منزلة الشاعر بين أهل زمنه فإذا رأينا جيلا من الناس يعتد بالشعر ، ويعرف له أثره فى تهذيب النفوس ، ومخاطبة الوجدان ، وتجميل مناظر الحياة ، وتخليد محاسن الدنيا ، ومفاخر الملوك ، رأينا الشاعر ، وقد سامى الملوك فى المنزلة ، وساواهم فى نعيم العيش ، وكاثرهم بالمال ، وهو إنما استفاده منهم ، واستجداه من أكفهم ، ولكن كثرة العطاء ، والتخرق فيه يجعل من هذا المستمنح المستجدى ثريًا يملك القصور والضياع ، ويسير فى ركابه الغلمان والأتباع ، ثم رأينا له كرامة وجاهاً مرعيًا .

وهكذا كان شأن الشعراء فى المائة الأولى من عمر هذه الدولة ، فقد كانت الأموال تنصبّ وفودها معجلة إلى بيت المال والخلفاء فى هذا العهد عرب تهزهم الأَرْيَحِيَّة ، ويُرَنِّح أعطافهم الثناء ، فكانت أقوال الشعراء كالرُّقَى وأَخْذ السِّحْر تجعلهم يجودون ثم يجودون ، حتى أننا لا نكاد نصدق اليوم ما نقرؤه فى كتب الأدب عن هذه العطايا التى قد تبلغ مائة ألف دينار ، وقد كانت هذه جائزة مروان بن أبى حفصة عدة مرات .

لما علم المهدى بمكانة مروان هذا ومنزلته فى الشعر أحب ألا يدخل عليه فى غمار الناس ، وعين له يومًا حشد فيه وجوه بنى العباس فى مجلسه ، فلما تمّ المجلس دعاه فأنشده :

كأن أمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والد

على أنه من خالف الحق منهم سقته به الموتَ الحتوفُ الرواصد

فأشار إليه المهدى فأمسك ، ثم قال : يا بنى العباس هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادى فيكم فآتوه ما يسره ، ثم ففرض عليهم مالا فرض على موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وعلى هٰرون مثلها ، ثم فرض على القوم على قدر حالاتهم حتى بلغ مجموع ذلك أربعين ألفاً ، ثم قال: وأمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله ثلاثين ألفاً حاضرة وسيأتيك منى مايؤديك إلى الغنى . فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت منى ما سأزداد به شعراً ، وستسمع ويبلغك ثم قال : لا يبلغ ما أعطيتنى لشاعر بعدى قال أجل . قال فآذنى فى زيارتك ؟ قال نعم . قال يا أمير المؤمنين لى فيك وفى أهلى بيتك عدوّ فإن رأيت ألا تجعل لأحد علىّ سلطاناً دونك قال : لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين . .

ودخل مروان بن أبى الجنوب ويلقب مروان الأصغر[1] على المتوكل فأنشده :

سَقَى اللهُ نَجْدًا والسلام على نَجْدِ ويا حَبَّذَا نَجْدٌ على القرب والبُعْدِ

نَظَرْتُ إلى نَجْدٍ وبغدادُ دُونَهَا لعَلِّى أرى نَجْدًا وهيهاتَ من نَجْدِ

ونَجْدٌ بها قَــوْمٌ هَوَاهُمْ زِيَارَتِى ولا شَىْءَ أَحْــلَى من زِيارَتِهِمْ عِنْدِى

فلما أتم إنشادها أمر له بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوبًا وثلاثة من الظهر فما برح حتى قال فى شكره :

تَخَيَّرَ رَبُّ الناسِ للناسِ جَعْفرًا فَمَلَّــكَهُ أَمْرَ العبادِ تَخَيُّرَا

فلما صار إلى قوله :

فَأَمْسِكْ نَدَى كَفَّيكَ عنِّى ولا تَزِدْ فقد خِفْتُ أن أَطْغَى وأَنْ أَتَجَبَّرَا

قال المتوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى ، ولا تبرح أو تسأل حاجة ، فقال

---

(١) هو ابن مروان بن أبى حفصة الشاعر الذى مدح المهدى والرشيد ومات سنة ١٨١ هـ .

الضيعة التى أمرت بإقطاعى إياها من اليمامة ذكر ابن المدبر أنها وقف المعتصم قال : فإنى أقبلكها بخراج درهم ، ثم قال : هذه ليست بحاجة . قال فضياعى التى كانت لى وحال ابن الزيات بينى و بينها فأمر المتوكل بردها إليه .

دخل ابن الخياط على المهدى فمدحه ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لَمَسْتُ بِكَفِّى كَفَّهُ أَبْتَغِى الْغِنَى ... وَلَمْ أَدْرِ أَنّ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِى

فلا أَنَا مِنْهُ ما أَفَادَ ذوُو الْغِنَى ... أَفَدْتُ وَأَعْدَانِى فَأَتْلَفْتُ ما عِنْدِى[1]

فلما بلغ المهدىّ الخبر والأبيات أعطاه بكل درهم ديناراً .

دخل سَلْمُ بن عَمْرو الخاسر على المهدىّ فأنشده :

أَليْسَ أحقَّ الناس أن يُدْرِكَ الغنى ... مُرَجِّى أميرِ الْمُؤْمنِينَ وَسَائِلُهْ

لقد بَسَطَ المَهْدِىُّ عَدْلاً ونَائِلاً ... كأنّهما عَدْلُ النَّبِىِّ ونَائِلُهْ

فقال : أما ما ذكرت ياسلم من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندى خاتمى هذا ، وأما العدل فإنه لايقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد ، و إنى لأتحرّاه جهدى ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب ، ووفد عليه من قابل ، فأنشده :

إنّ الخلافةَ لَمْ تَكُنْ بخلافةٍ ... حتى اسْتَقَرّتْ فى بَنِى الْعَبَّاسِ

شُدّتْ مناكِبُ مُلْكِهِمْ بخليفةٍ ... كالدّهْرِ يَخْلِطُ لِينَه بِشِمَاسِ[1]

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبًا . فلما كان العام الثالث أنشده :

أَفْنَى سُؤَالَ السائلين بجُودِه ... مَلِكٌ مَوَاهِبُهُ تَرُوحُ وَتَغتَدِى

هٰذَا الْخَلِيفَةُ جُودُهُ ونَوَالُهُ ... نَفِدَ السُّؤَالُ وَجُودُهُ لم يَنفَدِ

---

(١) أفاد : أعطى . أفدت : استفدت .

٢) الشماس والشموس : النفور ، من شمس (كنصر) .

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبًا . . وسَلْمٌ هذا هو الذى مات سنة ١٨٦ هـ ، وخلف ثروة مقدارها خمسون ألف دينار من الذهب وألف ألف وخمسمائة ألف درهم من الفضة ، غير الضياع .

وكان أبو نواس يتكسب كثيراً ، ولكنه كان متلافاً سمحاً ، وكان يساجل فى الإنفاق عباس بن الأحنف ، وصريع الغوانى ، فلم يكن له مدّخر . وأبو تمام جمع ثروة طائلة ، ولكنه كان مغرماً بالتجوال فى الأرض ، فأفنى فى ذلك ثروته ، وكان له قهارمة وكتّاب، وكان البحترى يسير فى موكب من عبيده ، وله أيضاً قهارمة وكتّاب . والمتنبى جمع ثروة طائلة ، وكان بخيلا وطمع أن يصل إلى الملك بثروته ، وبلغ من كبره واعتداده بنفسه أن كان ينشد سيف الدولة ، وهو جالس على خلاف عادة الشعراء الذين كانوا يقبلون الأرض بين يديه ويقفون للإنشاد .

وبعد المائة الأولى إلى حين قيام الدول الناشئة فى العباسية ، المتنافسة فى إكرام العلماء والشعراء كانت فترة بخل فيها الخلفاء . وصلدوا واتبعهم فى ذلك رجال دولتهم ، فارتفعت أصوات الشعراء بالشكوى ، ورأينا ابن الرومى يقول فيمن أخلف ظنه وخيّب أمله :

إن كنت من جهل حقى غير مُعْتذرٍ ... وكُنْتَ مِنْ رَدِّمَدْحِى غيرَ مُتَّئِبِ (1)

فأعطنى ثمن الطِّرْسِ الذى كُتِبَتْ ... فيه القصيدةُ أو كَفَّارَةَ الْكَذِبِ

وقال فى ابن المُدبِّر :

يابن المُدبِّرِ غرَّكَ الرُّوَّادُ ... عُمْراً وليس لهم سواك مُرَادُ

أدعو على الشعراء أخْبَثَ دعوةٍ ... إذ مَجَّدُوك وغيْرُكَ الأمْجادُ

قل لى بأيَّةِ حيلةٍ أعملْتَها ... هَتَفُوا بأنك لا حُفِظْتَ جَوَادُ

ما أنت والمعروفَ أو مفتاحه ... ذَهَبَتْ بَذَيْنِكَ دُونَكَ الأَجْوَادُ

---

(١) اتأب : خزى واستحيا ومجردها «أوب» .

لـكنْ إخالُ معاشرا خَيَّبْتَهُمْ نَصَبُوا الحبائلَ للأُسَى فأجادوا[1]

أَثْنَوا عليكَ ليَسْتَمِيحَكَ غيرُهُمْ فيَخِيبَ خَيْبَتَهُمْ وتلكَ أَرَادُوا

ويقول فى الأسف على من مضى من الـكرام :

ذَهَبَ الذين تَهُزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ هَزَّ الْـكُمَاةِ عَوَالِيَ المُرَّانِ[2]

كانوا إذ امْتُدِحُوا رَأَوْا ما فيهِمُ فالأَرْيَحِيَّةُ منهمُ بِمَكَانِ[3]

ثم كان للشعر رواج على يد سيف الدولة وعضد الدولة وأمثالهما ممن أعادوا سيرة الخلفاء الأوّلين ، فكثر الشعراء ، وتوزّعوا فى البلاد ، ونبغت طائفة منهم فى خراسان وطبرستان والأهواز ومصر ، وقد كنا لا نراهم إلا فى بغداد ، ومن نبغ منهم فى غيرها من بلد أو بادية ، فإنما كان همه أن يقصد بغداد حيث الخلفاء يمطرون عطاءهم الغدق على الشعراء .

معانى الشعر

أما معانى الشعر فى هذا العصر فهى قسمان : معانى السابقين من جاهليين ، وإسلاميين تناولها العباسيون فأحسنوا غالباً فى صوغها وحاكوا هؤلاء فى حسن سبكها أو زادوا عليهم فى ذلك لما امتازوا به من حصافة الرأى واتساع الحيلة فى القول ، والقدرة على الخلابة باللفظ ، وما كان لهم من عناية بالتحسين ، وليس ذلك مطرداً فى أخذهم ولـكنه غالب شائع فى مجيديهم . والذى ساعدهم على ذلك أيضاً أن المعنى وقع إليهم ، وقد تعب الأول فى استنباطه ، واحتفل بحسن صوغه ، فلم يبق على مستعيره

---

(١) الإسوة (بالـكسر ويضم) : القدوة وما يتسلى به الحزين والجمع أسا (بالـكسر والضم) .

(٢) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، واحدها مرانة .

(٣) الأريحية : الارتياح للندى ، والأريحى : الواسع الخلق .

إلا أن يحدث فيه ما يحاول به الزيادة على السابق ، وذلك ميسور له حين كفى المئونة فى الاستنباط . والذى نعنيه من تلك المعانى إنما هو المعانى التى امتاز بإيرادها شاعر ، فنسبت إليه وعرفت به ، فأما المعانى العامة التى لا بدّ لكلّ قائل أن يعرض لها كقولهم : إن الطيف يجود بما بخل به صاحبه ، وإن الواشى لو علم بمزار الطّيف لساءه ، وكقولهم فى المديح : إنه كالبحر والسحاب ، وإن عطاء اليوم لا يمنع عطاء الغد ، وإنه يجود ابتداء، وقولهم فى الرثاء : إن الدنيا حرمت نفع هذا الميت وإن هلكه ليس هلك واحد ولكنه هلك أمة ، وكصفة النجوم ومواقعها والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، وبكاء الحمام وما يدلّ عليه ، إلى غير ذلك من المعانى التى لا تنسب إلى صاحب لأنها قد شاعت ، ولأنها لايستغنى عنها قائل وإن كان قد تبع فيها اللاحق السابق ، ولكنها كثرت حتى لم تصبح خاصة بشاعر دون غيره .

وأما القسم الثانى فهو المعانى التى استقلّ العباسيون باختراعها ، ولم يكونوا فيها عيالا على غيرهم .

المعانى القديمة

وحين أخذ المتأخر المعنى من المتقدم لم يكن دائما بمثابة واحدة من الزيادة عليه أو التقصير عنه ، بل إن ذلك يرجع إلى الشاعر ومهارته فى الصوغ ، وحسن تأتيه للمعنى واحتياله على إبرازه حتى لقد يصبح بذلك أجدر بالمعنى من مخترعه .

ذكروا أن النابغة قد أبدع فى وصف قدرة النعمان وأنّ مطلوبه لا منجى له ولا معتصم ، فقال :

فإنك كالليل الذى هو مُدْرِكى ... وإنْ خِلْتُ أن الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وقد اعترض الأصمعى على النابغة فقال : أما تشبيهه الإدراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه ، وإنما كان سبيله أن يأتى بما لاقسيم له حتى يأتى بمعنى مفرد . فلو قال قائل : إن منصوراً النمرى فى ذلك أحسن منـــه لوجد مساغاً إلى ذلك حيث يقول :

فَلَوْ كُنْتُ كالعَنْقَاءِ أو كَسُمُوِّها ... خِلْتُكَ إلاَّ أَنْ تَصُدَّ تَرَانى

وقد أخذ هذا المعنى كثير من الشعراء ، فقال سَلْمٌ الخاسرُ :

فأَنْتَ كالدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ ... والدَّهْرُ لا مَلْجَأٌ منه ولا هَرَبُ

ولو مَلَكْتُ عِنَانَ الرِّيحِ أَصْرِفُهَا ... فى كل ناحيةٍ ما فاتك الطَّلَبُ

وقال البحترىّ :

ولو أنهمْ ركبوا الكواكبَ لم يكن ... يُنْجِيهِمُ من خوف بَأْسِك مَهْرَبُ

وقال علىّ بن جَبَلة :

وما لأمرئٍ حاوَلْتَهُ منك مَهْرَبٌ ... ولو رَفَعَتْهُ فى السماء المَطَالِعُ

بَلَى هَارِبٌ لا يَهْتَدِى لمكانه ... ظَلَامٌ ولاضَوْءٌ من الصُّبْحِ ساطعُ(١)

وقد يدق الأخذ حين يعول الآخذ على عموم المعنى ومغزاه و يترك لفظه جملة كما قال عُرْوة بن الوَرْد :

ومن يَكُ مِثْلِى ذاعيالٍ ومُقْتِرًا ... من المال يَطْرَحْ نَفْسَه كُلَّ مَطْرَحِ

لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيبَةً ... ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهامِثْلُ مُنْجِحِ

أخذه أبو تمام ، فقال :

---

(١) بلى تفيد إبطال النفى سواء فى الاستفهام أو غيره . مثال الاستفهام . قوله تعالى : ألست بربكم قالوا بلى . ومثال غير الاســتفهام قوله تعالى أيضا : زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن . وتكون بمعنى بل مثل قوله تعالى : وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، ثم قال: بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والمعنى بل من كسب ، وهى فى البيت بمعنى بل أى إن الهارب الموصوف بهذه الصفات لا مهرب له منك .

فَتًى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ والضَّرْبِ مِيتَةً   تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إنْ فَاتَهُ النَّصْرُ

فقد جعل عروة اجتهاده فى طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجح ، وأبو تمام جعل الموت فى الحرب قائما مقام الانتصار ومرجع المعنيين واحد وإن اختلف التصوير واللفظ .

ومثل ذلك قول جرير :

ولا يَمْنَعْكَ من أَرَبٍ لِحَاهُمْ   سَوَاءٌ ذُو العِمَامَةِ والخِمَارِ

أخذه أبو الطيب ، فقال :

ومَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ   كَمَنْ فى كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ

وقد يزيد الأخذ على صاحب المعنى كما قال المُعَذَّل بن غَيْلان :

وَلَسْتُ بنَظَّارٍ إلى جانبِ الغِنَى   إذا كَانَتِ الْعَلْيَاءُ فى جَانِبِ الفَقْرِ

فأخذه أبو تمام ، فقال :

يَصُدُّ عن الدنيا إذا عَنَّ سُؤْدُد   ولو بَرَزَتْ فى زِيِّ عَذْراءَ ناهِدِ[1]

وزيادة أبى تمام بقوله « ولو برزت .... » جعلت المعنى حسناً جميلاً حتى كاد يستبدبه ، ومن ذلك قول الأسود بن يعفر .

يسعى بها ذو تُومَتين كأنما   قَنَأَتْ أنامله من الفِرْصادِ[2]   (٢) التوت الأحمر

وقد أحسن أبو نُوَاس اتّباعه بزيادة من المحاسن ، فقال :

يَبْكِي فيُذْرِي الدُّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ   ويَلْطِمُ الوَرْدَ بعُنَّابِ

وأحسن الوَأْوَاء الدمشقى بعد أبى نواس ، فقال :

---

(١) السؤدد (بالهمز مضموم الدال الأولى ومن غيره مفتوحها) : السيادة والشرف .

(٢) قنأ (كمنع) : اشتدت حمرته . التومتان : حبتا در . الفرصاد : صبغ أحمر ، والبيت فى وصف ساقى الخمر وقبله :

ولقد لهوت وللشباب بشاسة   بسلافة مزجت بماء غوادى

وأَمْطَرَتْ لُؤْلؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ   وَرْدًا وعَضَّتْ عَلَى العُنَّابِ بالبَرَدِ

ومن ذلك أيضاً قول جرير :

إذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ   رأيتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

أخذه أبو نواس ، فقال :

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ   أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ[1]

فأبدع غاية الإبداع إذ أخرجه مُخْرج العموم وصاغه صيغة الكلمات الجامعة وبالغ فى ممدوحه ، فجعله العالم على حين جعل جرير قبيلة تميم هى الناس كلهم ، ثم بقى فرق بين العالم والناس فالأولى أشمل وأعم وأبعد فى المبالغة .

ومن ذلك أيضاً قول الفرزدق فى ناقته :

عَلامَ تَلَفَّتِينَ وأنتِ تَحْتِي   وخيرُ الناسِ كُلِّهِم أَمَامِي
مَتَى تَأْتِي الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي   من الأَنْساعِ والدَّبَرِ الدَّوَامِي[2]

فأخذه أبو نواس وصار أحق به حين قال :

وإِذَا المَطِيُّ بنا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا   فَظُهورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

فقد جعل الفرزدق جزاء ناقته على بلوغ الممدوح أن يريحها فحسب من الأنساع والدَّبَر الدوامى . أما أبو نواس فكان أكرم وأدلّ على سروره بلقاء ممدوحه وثقته بما يؤمل منه ، إذ خلى راحلته سائمة وحرم ظهرها على الركاب .

ومن المعانى التى سبق إليها جاهلى فتتابع الشعراء فى كلّ العصور على استعارة

---

(١) وقال أبو نواس فى نفس المعنى :

متى تحطى إليه الرحل سالمة   تستجمعى الخلق فى تمثال انسان

وقال المتنبي :

هدية ما رأيت مهديها   إلا رأيت العباد فى رجل

(٢) الأنساع : جمع نسع ، وهو سير يشد به الرحل . الدبر : جمع دبرة ، وهى قرحة الدابة .

معناه قول أبي نواس :

فَتَمَشَّتْ فى مَفَاصِلِهِمْ ... كَتَمَشِّى الْبُرْءِ فى السَّقَمِ

فالأصمعى يقول : إنه سرقه من مُسْلِم بن الوليد حيث يقول :

تَجْرِى مَحَبَّتُهَا فى قَلْبِ وَامِقِهَا ... جَرْىَ السَّلاَمَةِ فى أَعْضَاءِ مُنْتَكِسِ [1]

وهو أخذه من قول عمر بن أبي ربيعة :

لَقَدْ دَبَّ الْهَوَى لَكِ فى فُؤَادِى ... دَبِيبَ دَمِ الْحَيَاةِ إِلَى الْعُرُوقِ

وهو أخذه من قول بعض العُذْريين :

وأُشْرِبَ قَلْبِى حُبَّهَا وَمَشَى بِهِ ... كَمَشْىِ حُمَيَّا الْكَأْسِ فى عَقْلِ شَارِبِ

ودَبَّ هَوَاها فى عِظَامِى وَحُبُّها ... كما دَبَّ فى الْمَلْسُوعِ سُمُّ العَقَارِبِ

وهو أخذه من أُسْقُفّ نجران حيث يقول :

مَنَعَ الْبَقَاءَ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ ... وَطُلُوعُهَا مِنْ حَيْثُ لا تُمْسِى

وطُلُوعُهَا حَمْرَاءَ صَافِيَةً ... وغُرُوبُها صَفْرَاءَ كَالْوَرْسِ

تَجْرِى عَلَى كَبِدِ السَّمَاءِ كَمَا ... يَجْرِى حِمَامُ الْمَوْتِ بِالنَّفْسِ

ومن المعانى التى توارد عليها الشعراء قول النابغة :

إذا مَاغَزَوْا بالجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ ... عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِى بِعَصَائِبِ

جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَه ... إذا مَا الْتَقَى الْجَيْشَانِ أَوَّلُ غالِبِ

أخذه أبو نواس ، فقال :

تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَزْوَتَه ... ثِقَةً بِاللَّحْمِ من جَزَرِهِ [2]

وقال مسلم بن الوليد :

---

(١) المراد بالمنتكس : مطلق مريض . لا الذى عاوده المرض بعد نقه .

(٢) تأيا بالمكان : تلبث وانتظر .

قد عوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها   فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كُلِّ مُرْتَحَلِ

وقال أبو تمام :

وقد ظُلِّلَتْ أعناقُ أعلامه ضُحًى   بعِقْبانِ طَيْرٍ فى الدماء نَوَاهِلِ

أقامتْ مع الراياتِ حتَّى كأنَّها   من الجَيْشِ إلا أنها لم تُقَاتِلِ

وجاء المتنبي فأضاف إلى المعنى ما جعله أحق به إذ قال :

يُفَدِّى أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْراً سِلاحَهُ   نُسُورُ المَلَا أحداثُها والقَشَاعِمُ(١)

وما ضَرَّها خَلْقٌ بغير مخالبٍ   وقد خُلِقَتْ أسيافه والقَوَائِمُ

و إننا لنقتصر على ما أوردنا حتى لا نخرج عن القصد من الإشارة والتمثيل ، و إن كان القول فى هذا الباب من لباب العربية لأنه يفشى سرّ الشعراء فى انتحائهم نواحي المعانى ودبيبهم إلى محاسن القول ، ويدلّ على مقدار أذواقهم ، وما استطاعوه من زيادة بمحاولتهم، أوقصروا عنه من وفاء و إبداع . فلصق العيب بالسارق ، وحفظ المعنى للسابق .

المعانى الجديدة

يراد بها تلك المعانى التى استقلّ المحدثون بابتداعها ، ولم يسبقهم إليها جاهلى ولا إسلامى ، وتلك لعمر الحق كثيرة كثرة المشاهدات التى أحدثتها الحضارة متعددة تعدد العادات التى أوحت بها المدنية مبتكرة بهذا الفكر المثقف الذى قرأ حكمة الهند ، وتأدب بأدب الفرس ، وتأمل تأمل اليونانى الحكيم ، و إذا استبدّ المتقدمون بمتانة التعبير وصحة الأداء ، وحازوا فضيلة السلامة من قصور الملكة ، وكان كلامهم حجة فى العربية ، ومعجماً لألفاظها وأساليبها ، فإن للمحدثين مزية المعنى ، والتحليق فى سماء

---

(١) الملا : الفلاة ، وفى رواية الفلا فيكون جمع فلاة وهى الصحراء . الأحداث : الصغيرة . القشاعم : المسنة ، والمراد بأتم الطير عمرا النسور لأنها أطول الطيور عمرا .

الخيال ، واتساق الفكر ، ولقد قال أبو الفتح عثمان بن جنى . المولدون يستشهد بهم في المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ .

ولا شكّ أن الشاعر إنما يحكى ما يرى ، ويصف ما أحس ، ومن الذى ينكر أن الحضرى قد شاهد ما لم يره البدوى ، فهو يعيش فى مدن حافلة وجموع حاشدة ، ويرى أنواع الناس ، ومختلف الأزياء ، ويعيش بين القصور ، ويبصر ما تحوى من أثاث ورياش ، ويذوق مختلف الطعوم ، وهو يكسب رزقه بغير الوسائل التى يكسب بها البدوى فيلتمسه فى صناعة أو زراعة أو تعليم أو كتابة ؛ والعربى إنما سبيله فيه الغارة ، ومطاردة الوحش ، فكيف لا تختلف بعد كلّ هذا مقادير عقولهما ومادة خيالهما .

وإذا كان ابن الرومى وابن المعتزّ ، وهما حضريان يظلهما عصر واحد ويعيشان فى مدينة واحدة ، ويحسان إحساساً هو فى جملته واحد ؛ قد تباينت بهم الحال فيما يصفان ؛ فكيف بالجاهلى أو الإسلامى إذ قيس إلى العباسى والحكم فى معيشتهم متباين . ولقد ذكروا أن لا ئماً لام ابن الرومى وقال لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتزّ وأنت أشعر منه ؟ فقال . أنشدنى من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى صفة الهلال :

فانظر إليه كزَوْرَقٍ من فضة قد أثْقَلَتْهُ حُمُولةٌ من عَنْبَرِ[1]

قال فزدنى فأنشده :

سقيا لروضاتٍ لنا من كل نَوْرٍ حاليه
عيونٌ آذَرْيُونِها للشمس فيها كاليَهْ[2]

---

(١) الحمولة (بالضم) : المتاع الذى يحمل . والحمولة (بالفتح) الدابة يحمل عليها المتاع .

(٢) الأذريون : معرب آذركون : أى لون النار وهو ورد له أوراق حمر فى وسطها سواد له بنود وارتفاع وقد يكون أصفر ، ولاختلاف لونه يشبه بكأس من عقيق فيها مسك قال ابن المعتز :

مداهنٌ من ذهبٍ فيها بقايا غاليَهْ

فصاح واغوثاه يالله ! ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن الخلفاء وأنا أيّ شيء أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى . هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام ، (وروى الأبيات التى رويت من ناحية أخرى لسيف الدولة ، وقد مرّت بك) ، وقولى من قصيدة فى صفة الرقاقة :

ما أَنْسَ لا أَنْسَ خبّازاً مررتُ به ... يَدْحُو الرُّقاقةَ مثلَ اللَّمْحِ بالبَصَرِ (١)

ما بَيْنَ رُؤْيَتِهَا فى كَفِّهِ كُرَةً ... وبين رُؤْيَتِهَا قَوْرَاءَ كالقَمَرِ (٢)

إلا بمقدارِ ما تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ ... فى لُجَّةِ الماءِ يُرْمَى فيهِ بالحَجَرِ

وسنورد عليك من المعانى التى عرفت للمحدثين ، ولم تقع قبلهم لشاعر جاهلى أو اسلامى ما يكون مثالا لها وشاهداً عليها إذ لاسبيل إلى حصر ذلك ، فإنه كثير شائع .

فمن المعانى التى لم يعرفها المتقدمون قول بشار :

يا قومُ أُذْنِى لبَعْضِ الحىِّ عاشقةٌ ... والأُذْنُ تَعْشَقُ قبْلَ العينِ أحيانا

قالوا بمن لا تَرَى تَهْذِى فقُلْتُ لهُمْ ... الأُذْنُ كالعين تُوفِى القَلْبَ ما كَانَا

وقال أبو نُوَاس (وقد ذكر المبرّد أنه لم يسبق إليه) :

أيها الرائحان باللوم لُومَا ... لا أَذُوقُ المُدَامَ إلا شَمِيمَا

نالنى بالمَلامِ فيها إمامٌ ... لا أرى لى خلافَه مُسْتَقِيمَا

وحمل أذريونة فوق أذنه ... كـكأس عقيق فى قرارتها مسك

وقد يشبه بمدهن من ذهب فيه شىء من الغالية (أخلاط الطيب) كقوله المروى فى الأصل . ومعنى كلاءة عيون الآذريون للشمس أنها تستقبلها وتدور معها حيث دارت . والضمير فى « فيها » للرياض .

(١) دحا الشىء : بسطه .

(٢) قور الشىء : قطعه من وسطه خرقا مستديرا ، والمراد هنا مجرد الاستدارة .

فاصْرِفاها إلى سِوَايَ فإنّى لَسْتُ إلاّ على الحديثِ نَدِيمَا
كِبَرُ حَظِّى منها إذا هى دَارَتْ أن أَراها وأَنْ أَشَمَّ النَّسِيمَا (١)
فكأنى وما أُزَيِّنُ منها قَعَدِيٌّ يُزَيِّنُ التحكيما
كَلَّ عن حَمْلِهِ السلاحَ إلى الحَرْ بِ فأوصى المُطِيقَ ألاّ يُقِيمَا

وقوله فى صفة نساء خمارات (ويروى لابن المعتز) :

وَتَحْتَ زَنَانِيرٍ شَدَدْنَ عقُودَها زَنَانِيرُ أَعْكَانٍ مَعَاقِدُها السُّرَرْ (٢)

ومن اختراعات أبى تمام (وهو كثير الاختراعات) قوله :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقوله فى الرثاء :

بَنِى مَالِكٍ قد نَبَّهَتْ خَامِلَ الثَّرَى قُبُورٌ لكم مُسْتَشْرِفَاتُ المَعَالِمِ
غَوَامِضُ قِيدَ الْكَفِّ من مُتَنَاوِلٍ وفيها عُلاً لا يُرْتَقَى بالسَّلاَلِمِ

وقوله :

وإذَا المَجْدُ كان عَوْنِى عَلَى المَرْ ءِ تَقَاضَيْتُهُ بِتَرْكِ التَّقَاضِى

وقوله :

لَيْسَ الحِجَابُ بِمُقْصٍ عنك لِى أَمَلاً إنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

ولابن الرومى فى باب الاختراع مجال واسع إذ قد عرف بالغوص على المعانى واستقصائها

---

(١) كبر الشىء (بالكسر) : معظمه .

(٢) الزنار : الحبل يشد على الوسط . العكنة : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا ، والجمع أعكان وعكن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى لا يدع فيها بقية لمحاول ، ولعل ذلك إنما أتاه من نسبه إلى الروم ، وهم أهل تأمل وحكمة وعقول راجحة ، فظهرت وراثته فى المعانى التى غاص عليها واستقصاها ، ومن ذلك قوله :

عَيْنِي لِعَيْنِك حين تَنْظُرُ مَقْتَل ... لـكنَّ لَحْظَكَ سَهْمُ حَتْفٍ مُرْسَلُ (١)

ومِنَ العَجَائِبِ أنَّ مَعْنًى واحداً ... هُوَ مِنْكَ سَهْمٌ وهْوَ مِنِّى مَقْتَلُ

وقال يعاتب من يزداد على التَّوَدُّد بعدا :

تَوَدَّدْتُ حتى لم أدع مُتَوَدَّدَا ... وأفنَيْتُ أقلامى عِتَابًا مُرَدَّدَا

كأنِّىَ أسْتَدْعِى بِكَ ابْنَ حَنِيَّةٍ ... إذا النَّزْعُ أَدْنَاه مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا

وقوله فى الغزل :

نَظَرَتْ فأَقْصَدَتِ الْفُؤَادَ بِلَحْظِهَا ... ثم انْثَنَتْ عنه فَظَلَّ يَهِيمُ

فالْمَوْتُ إن نَظَرَتْ وإنْ هِىَ أَعْرَضَتْ ... وَقْعُ السِّهَامِ ونَزْعُهُنَّ أَلِيمُ

وقوله فى تعليل طول قصائد المدح بأنه هجاء للممدوح :

وإذا امرؤ مَدَح امْرَأً لنَوالِه ... وأطال فيه فَقَدْ أرَادَ هِجَاءَه (٢)

لو لم يُقَدِّرْ فيــه بُعْدَ المستقى ... عند الوُرُودِ لمـا أطال رِشاءَه

وقوله فى صفة بخيل :

---

(١) مقتل : اسم مكان . والمعنى أن عينى هى المـكان الذى تقتلنى منه عينك ، فاذا نظرت إلىّ ونظرت إليك كان فى ذلك هلاكى ، وما سبب ذلك إلا عينك التى أثرت فىّ بوقع نظرها الذى هو كالسهم ولولا أنى نظرت إليك فرأت هذا الطرف الساحر ما وقعت تحت تأثيره الذى أودى بحياتى .

(٢) كرر ابن الرومى هذا المعنى فقال :

إذا عزّ رفد لمســترفد ... أطال المديح له المـادح

وقدما إذا استبعد المستقى ... أطال الرشاء له الماتح

وقد أخذ السراج الوراق هذا المعنى فقال :

ســامح بفضــلك عبــدا ... مقصـــرا فى الثناء

رأى قليبا قـــريبا ... فلم يطل فى الرشاء

يُقَتِّرُ عيسى على نَفْسِـــهِ وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلوْ يَسْتَطِيعُ لتقتــيره تَنَفَّسَ من مَنْخَرٍ واحد

ومن المعانى المخترعة قول ابن الخياط ، وينسب إلى بشار :

لَمسْتُ بكفِّى كفَّه أبْتَغِى الغِنَى ولم أدْرِ أنّ الجودَ من كفِّه يُعْدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفَدْتُ وأعْدَانى فأتْلَفْتُ ماعندى

ومن ذلك قول المتنبى فى ابن العميد ، وزير ركن الدولة .

من مُبْلغُ الأعرابِ أنِّى بعدها جالستُ رَسْطَالِيسَ والإِسْكَنْدَرَا
وسَمِعْتُ بَطْلِيْمُوسَ رَاوِىَ كُتْبِه مُتَمَلِّكًا مُتَبَــدِّيًا مُتَحَضِّرًا
ولقيتُ كُلَّ الفَاضِلِينَ كأَنَّمَا رَدَّ الإِلهُ نُفُوسَهُمْ والأَعْصُرَا
نُسِقُوا كما نُسِق الحسابُ مُقَدَّمًا وأتى فَذَلِكَ إذ أَتَيْتَ مُؤَخَّــرَا[1]

وقوله :

خُلِقْتُ أَلوفا لو رَجَعْتُ إلى الصِّبَا لفارقتُ شَيْبِى مُوجَعَ القَلْبِ باكِيَا

ومن المعانى التى لم يعرفها المتقدمون إذ لم تكن المثلة بالصلب شائعة فى أيامهم شيوعها فى هذه الأيام ، وإن حصلت فإنه لم يحصل أن رثى مصلوب ، قول ابن الأنبارى فى ابن بَقِيَّة :

كأَنَّ الناسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وُفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّــــلاتِ
كأنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيــــبًا وكُلُّهُمُ قِيامٌ للصَّــــلاةِ
ولَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الأَرْضِ عَنْ أَنْ يَضُمَّ عُــلاكَ من بَعْدِ الوَفَاةِ
أصاروا الجَوَّ قَبْرَكَ واستعاضوا عن الأكفانِ ثوبَ السَّافِيَاتِ

وقول عُمَارة اليمنى فيه :

---

(١) قيل إن كلمة فذلك فاعل أتى : أى أتى هذا اللفظ الذى يقال عند الجملة فى آخر الحساب .

ومَدَّ على صَليب الصَّلْبِ منه ... يَمينا لا تَطول إلى شِمالِ
ونَكّسَ رأسَه لعِتَاب قَلْبٍ ... دعاهُ إلى الغَوَاية والضَّلَالِ

ومن العجيب أن عُمارة صلب بعد قوله بقليل ، صلبه الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب :

ونحن نكتفى من المعانى المحدثة بما أوردنا فإنها كثيرة لا تكاد تحصى .

أغراض الشعر

لاختلاف الزمن وتقلب الأيام أثر فى الأغراض التى يحاول الشعراء القول فيها ، إذ أن اختلاف نوع المعيشة ، وتبدل وسائل الحياة ، وتغاير علاقات الناس بعضهم ببعض ، والانتقال إلى العلم بعد الجهل ، والتزام عادات ، واطراح أخرى ، واستحسان ما كان مستقبحاً ، واستقباح ما كان مستحسناً ، والاعتداد بما كان مغفلا ، وإغفال ما كان مرعيا ، كلّ أولئك أسباب تجعل اتجاه العقول فى عصر يختلف عنه فى عصر آخر . لذلك كان لزامًا أن يصبح للشعراء فى العصر العباسى أغراض غير أغراضه فى العصور الماضية ، وليس يلزم من ذلك أن يمحى القديم ، وينشأ جديد لاصلة له به ، بل نجد فى العصر الناشئ أغراضاً حدثت ، وليس لها فى القديم سبب ترجع إليه ، ونجد الأغراض القديمة التى بقيت قد حدث فيها ما جعلها ذات طابع غير طابعها فى العصر الذى قبله .

فكثير من الأغراض القديمة كالمدح والهجاء ، والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر والسياسة ، والزهد ، والحكمة ، والمثل أكثروا منها ، وافتنوا فى معانيها ، وصبغوها بصبغة المبالغة حتى انتهى المدح إلى الكفر أو قريب منه ، وصار الهجاء أقذاعاً شائناً للهاجى قبل المهجو ، وفى الوصف تناولوا كل ما وقعت عليه عيونهم من قصور وبساتين

وسفن ، ومجالس أنس ، وبرك ماء ، وطير ، وسمك ، حتى لقد تناولوا صغير الأشياء كالموقد ، والشمعة ، والقلم ، والدواة ، وفى السياسة تناولوا العصبيات بين المضرية واليمانية ، أو بين العجم والعرب ، واحتجّ للعباسيين قوم ، وانتصر للعلويين آخرون حتى لقد انتهى التعصب إلى الآراء فى العلوم ففاضلوا بين نحويي البصرة والكوفة .

ومن الأغراض التى جدت ولم يكونوا يعرفونها من قبل الغزل بالمذكر (وأظهر ما فيه وصف العذار) ، والتعصب لبعض أنواع الزهر ، والقول فى المصلوبين ، والخوض فى المجون ، وهجاء المغنين ، والاتهام بالأبنة ، والذمّ بالرشوة ، ووصف أنواع المطاعم ، ونظم القصص ، والحكايات التهذيبية ، وضبط قواعد العلوم من فقه وغيره .

ومن المعانى القديمة التى شنت عليها الغارة الوقوف بمنازل المحبوبة والبكاء واستبكاء الأصحاب ، ووصف الآثار من نُؤىّ وأثافِىّ[1] وأبعار ، ثم ذكر الناقة ، وحنينها إلى العطن ، ووصف خلقها ، وجميل صبرها ، ووصف الصحراء وما قاسى الشاعر من حرها وعاصف ريحها ، وما صادف من وحشها . ولكنّ قوما قد بقوا إلى حين متمسكين بالقديم يحنون إليه ، ويرون فى التزامه بقاء لرونق العربية ، وحفظا لعمود القصيد .

وأوّل من شنّ الغارة على ذلك أبو نواس ، فإنه جعل وصف الخمر هو مفتتح قصائده ، فكان أول المجدّدين فى ذلك واتبعه الشعراء .

ولقد أكثر أبو نواس من التنديد بالطريقة القديمة حتى كان حامل لواء هذا التجديد بقوله :

لا تَبْكِ لَيْلَى ولا تَطْرَبْ إلى هِنْدِ ... وأشربْ على الورد من حمراء كالورد

وقوله :

---

(١) نؤى : جمع نؤى (كقفل) ونئى (كبئر) ونؤى (كهدى) وهو الحفيرة تجعل حول الخباء يتجمع فيها ماء المطر . الأثافى : جمع أثفية ، وهى الحجر تنصب عليه القدر .

صِفَةُ الطُّلولِ بلاغـــــة القِدْمْ فاجعل صفاتِك لابنة الكَرْمِ[1]

وقوله :

سَقْياً لغـــــير العلياء فالسَّنَدِ وغـــــير أطلالِ مَيَّ بالجَرَدِ

وقوله :

يا ربعُ شُغلَكَ إنِّى عنك فى شُغُلٍ لا ناقتى فيكَ لو تَدْرِى ولاَ جَمَلِي

وقوله :

تَبْــكِى على طَلَلِ الماضين من أَسَدِ لا دَرَّ دَرُّكَ قُلْ لِى مَنْ بَنُو أَسَدِ؟

لا جَفَّ دَمْعُ الذى يَبْــكِى على حَجَرٍ ولا صَبَا قَلْبُ من يصبـــو إلى وَتَدِ

وقد أحل أبو نواس ذكر الخمر وإعلان محاسنها محلّ بكاء الدار ، فجعله مستهلّ قصائده ، ولكنه لما اشتهر بذلك وبان فجوره فيه حبسه الرشيد ، فاضطرّ أن يعود فى سخرية وتنادر إلى ذكر الأطلال ، وهجر النعت للخمر ، فقال :

أعِرْ شِعْرَكَ الأطلالَ والمنزل القفْرَا فقد طالما أَزْرَى به نَعْتُكَ الخمْرا

دعانى إلى نَعْتِ الطُّلولِ مُسَلَّطٌ تَضِيقُ ذراعى أنْ أَرُدَّ له أمرا

فسمعا أميرَ المؤمنينَ وطاعــــةً وإنْ كُنْتَ قد جَشَّمْتَنِى مَرْكَبَاً وَعْرَا

نماذج من أغراض الشعر

المـــدح

كان من آثار المدنية أن تمتع الملوك بالسلطان الواسع ، وتأيد ملكهم بالجيوش الكثيفة ، وامتلأت قصورهم بالغلمان والجوارى ، وسعى بين أيديهم القوّاد والوزراء

---

(١) القدم : يصح اعتبارها جمعا لقديم ويكون أصلها قدم (بضمتين) ثم خففت بتسكين الدال . ويصح ضبطها بكسر القاف ويكون أصلها القدم (بكسر ففتح) ثم خففت بتسكين الدال أيضا . ويصح قراءتها بالفاء المفتوحة (الفدم) ويكون ذلك من أبى نواس جريا على عادته فى ذمه للعرب وتشنيع أمرهم .

فزادت هيبتهم فى النفوس ، وعظم إجلال الناس لهم ، وتأثر الشعراء بهذه المظاهر ، واحتاج الخلفاء ومن على شاكلتهم من القوّاد والوزراء والأمراء أن تزداد هيبتهم فى نفوس العامة ، فأجزلوا العطاء على قدر المبالغة فى مدحهم فأكثر الشعراء من ذلك .

وكان القدماء قد قنعوا بحاتم مثلاً أعلى فى الجود ، وعمرو بن معديكرب غاية فى الشجاعة ، والبدر مصدراً للجمال الفائق ، فلما شبه أبو تمام المعتصم بهذه الأمثلة عابه بعض جلساء الأمير، وقال: الأمير فوق من ذكرت ، فاضطرّ أبو تمام أن يعتذر بقوله :

لا تُنْكِروا ضَرْبى له مَنْ دُونَه　　مثلا شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ
فاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لنُورِهِ　　مَثَلاً من المِشْكاة والنِّبْرَاسِ

ولكنه عرف أن الاقتصار على هذا الحدّ من الثناء لا يرضى الأمير ولا متملقيه .

وقد حكى لنا على بن عبد الرحمن بن المنجم أن محبوبته لم ترض عن تشبيهه إياها البدر ، فقال :

شبَّهْتُها بالبدر فاستضحَكَتْ　　وقابلَتْ قَوْلِىَ بالنُّكْرِ (١)
وسَفَّهَتْ قَوْلِى وقالَتْ مَتَى　　سَمُجْتُ حتَّى صِرْتُ كالْبَدْرِ
البَدْرُ لا يَرْنُو بعينٍ كما　　أَرْنُو ولا يَبْسِمُ عن ثَغْرِ
ولا يُميطُ المِرْطَ عن ناهدٍ　　ولا يَشُدُّ العِقْدَ فى نَحْرِ
من قاسَ بالبدرِ صِفَاتِى فلا　　زال أسيراً فى يَدَىْ هَجْرِى

وقال المتنبى :

هُمُ المحسنون الكَرَّ فى حَوْمَةِ الوَغَى　　وأَحْسَنُ منه كَرُّهُمْ فى المَكَارِمِ
ولولا احتقارُ الأُسْدِ شَبَّهْتُهَا بهم　　ولَكنَّها مَعْدُودَةٌ فى البَهَائِمِ (٢)

وقال السَّلامىّ (٣) شاعر اليتيمة :

---

(١) النكر : استفظاع الأمر .

(٢) ويروى شبهتهم بها وهى أظهر . والأولى أشد مبالغة لقلب التشبيه .

(٣) السلامى : نسبة إلى دار السلام (بغداد) .

تُشَبِّهُ المُدَّاحُ في البأس والنَّدَى بمَن لو رآه كان أصْغَرَ خادِمِ

ففي جيشه خمسون ألفاً كعَنْتَرٍ وأمْضَى وفي خُزَّانه ألفُ حاتِمِ

فاتجهت أذهان الشعراء إلى المبالغة التي أصبحت تستدعيها عظمة الممدوح وانغماسه في الترف ونزوعه إلى الغرور والإعجاب بالنفس ، فكان من الشعراء افتنان وغوص على المعاني التي تثير الإعجاب ، وتزيد في تفخيم الممدوحين الذين دلوا على رضاهم بكثرة العطاء وتقريب من شفى حاجة نفوسهم من الشعراء . بل لقد طالبوا بالإفراط في مدحهم ، فقد حكوا أن الشعراء اجتمعوا بباب المعتصم ، فأرسل إليهم ابن الزيات يقول لهم : من كان يحسن أن يقول مثل قول النمري في الرشيد :

خَليفةَ اللهِ إنّ الجود أودِيةٌ أحَلَّكَ اللهُ منها حَيْثُ تَجْتَمِعُ

(وقد مرت الأبيات ص ٣٠) ، فليدخل وإلا فلينصرف ، فقام محمد بن وُهَيْب فقال فينا من يقول مثله ، فقال أيّ معنى ؟ فقلت فقال :

ثلاثةٌ تُشْرِقُ الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمرُ

فأدخل على الخليفة ، وحسنت جائزته .

ومحمد بن وُهَيْب هذا هو الذي يقول في مدح الحسن بن سهل :

تُعَظِّمُه الأوْهامُ قبل عِيانِهِ ويَصْدُرُ عنه الطَّرْفُ وهو مُحاذِرُ

به تُجْتَدَى النُّعْمَا وتُستَدْرَكُ المنى وتُستَكْمَلُ الحُسْنَى وتُرعَى الأواصِرُ

أصاتَ بنا داعي نَوالِكَ مُؤْذِناً بجُودِكَ إلّا أنّهُ لا يُحاوِرُ

قَسَمْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ بأساً ونائلا فمالُكَ مَوْتُورٌ وسَيْفُكَ واتِرُ

ولو لم تَكُنْ إلّا بنفسك فاخراً لما انتسبتْ إلّا إليك المفاخِرُ

فطرب الحسن حتى نزل عن سريره إلى الأرض وقال : أحسنت والله وأجملت ، ولو لم تقل فيّ ولا قلت باقي دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقتطعه إلى نفسه ، فلم يزل في كنفه أيام ولايته وبعد ذلك إلى أن مات ، لا يتصدّى لغيره .

ويبالغ المتنبي فى شأن ممدوحيه حتى يستأثر بعطاياهم ، فقد خوطب عضد الدولة فى شأنه حين استدعاه ليمدحه ، فقيل له : إنك ستعطيه مالو وزعته على ثلاثين شاعراً لملئوا الأرض بمدائحك فلم يصخ إلى قول النصاح :

والمتنبي هذا هو الذى يقول فى أبى علىّ الكاتب :

لم تَلْقَ هذا الوجهَ شمسُ نهارنا ... إلاّ بوجه ليس فيه حياءُ

فبأىِّ ما قدَمٍ سَعَيْتَ إلى العُلا ... أَدَمُ الهلال لأَخْمَصَيْكَ حِذَاءُ(١)

ولك الزمانُ من الزمان وِقَايَةٌ ... ولك الحِمَامُ من الحِمام فِدَاءُ(٢)

لو لم تكن من ذا الوَرَى اللّذ منكَ هُوْ ... عَقِمَتْ بمَوْلِدِ نَسْلِها حَوَّاءُ(٣)

ويقول فى كافور :

تجاوَزَ قَدْرَ المَدْحِ حتى كأَنَّهُ ... بأحسنِ ما يُثْنَى عليه يُعابُ

وغالبه الأَعْدَاءُ ثم عَنَوْا له ... كما غالبت بيضَ السيوفِ رقابُ

وأَكْثَرُ ماتلقى أبا المسك بِذْلَةً ... إذا لم يكن إلا الحديدَ ثيابُ

وأوسعُ ما تلقاه صدرا وخَلْفَهُ ... رِماءٌ وَطَعْنٌ والأمامَ ضِرابُ(٤)

وأنفذُ ما تلقاه حُكْما إذا قضى ... قَضَاءٌ ملوكُ الأرض منه غضابُ

وقد غر قوماً كثرة العطاء ، وهان عليهم أمر الدين فلم يتهيبوا أن يرفعوا ممدوحيهم

---

(١) ما زائدة . والمعنى على التعجب من وصوله إلى درجة فى العلا لم يصل إليها غيره ، فهو يقول : بأى قدم وصلت إلى هذه المعالى ، ثم دعا له بأن يكون وجه الهلال نعلا له ،

(٢) المعنى ليكن الزمان وقاية لك من عواديه : أى ليهلك هو بها دونك وليمت الموت فداء لك من نفسه.

(٣) اللذ لغة فى الذى ، والضمير « هو » بالتسكين ضرورة أو لغة ، ومعنى البيت : لو لم تكن بين الناس لعدت حواء عقيما مع ماولد من نسلها ، وجعل الناس منه فى قوله : « الورى اللذ منك هو » لأنه جمالهم وشرفهم حتى كأنهم ساقطون دونه .

(٤) الرماء والضراب مصدران بمعنى المفاعلة : أى المراماة والمضاربة . الابتذال : ترك صيانة الشىء والمعنى أنه يكون أوسع صدرا حين تضيق الصدور بإحاطة جيوش الأعداء .

إلى مقامات يسامون فيها الله عز وجل ، فمنهم من دنا من الشرك ، ومنهم من وقع فيه .
قال أبو نواس :

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حتَّى إنَّهُ　　لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

وقد قيل إن العَتَّابى لقى أبا نواس ، فقال له : أما استحييت من الله بقولك : « وأخفت . . . » ، فقال له أبو نواس : وأنت أمااستحييت منه بقولك :

مَا زِلْتُ فى غَمَرَاتِ الموت مُطَّرَحًا　　يضيق عنى وَسِيعُ الرأيِ من حِيَلِي
فلم تَزَلْ دائماً تسعى بلُطْفِكَ لِي　　حتى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي من يَدَيْ أَجَلِي

فقال العتابى : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت لكل ناصح جواباً ، وقد أعاد أبو نواس : المعنى فى قصيدة أخرى ، فقال :

حَتَّى الذى فى الرَّحْم (لم يك صورة)　　لفؤادِهِ من خَوْفِهِ خَفَقَانُ

وقد بالغ البحترى فى المتوكل مبالغة زائدة ، ولكنه لم يحم حول الإشراك إذ كان معناه فى ناحية أخرى ، فقال :

ولو أن مشتاقا تَكَلَّفَ فوق ما　　فى وُسْعِهِ لسعى إليك المِنْبَرُ

فحدث البلاذُرى قال : كنت من جلساء المستعين بالله وقد قصده الشعراء ، فقال لهم : لست أقبل إلا ممن قال مثل قول البحترى (وذكر البيت السابق) قال البلاذرىّ : فرجعت إلى بيتى ثم لقيته وقلت له : قد قلت فيك أحسن مما قال البحترى ، فقال : هات ، فأنشدته :

ولو أن بُرْدَ المصطفى إذ لَبِسْتَه　　يَظُنُّ لظَنَّ البُرْدُ أنكَ صَاحِبُهْ
وقال وقد أُعْطِيتَهُ ولَبِسْتَهُ　　نَعَمْ هذه أَعْطَافُهُ ومَنَاكِبُهْ

فقال له المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما آمرك به . فرجع فبعث إليه سبعة آلاف دينار وقال : ادخر هذه للحوادث بعدى، ولك علىّ الجراية والكفاية ما دمت حيًّا .

ومن الغلوّ الذى إن لم يكن كفراً ،فهو منه قريب قول ابن دريد يخاطب الدهر .

مارَسْتَ مَن لو هوت الأفلاكُ مِن   جوانب الجوّ عليـــه ما شكا

قيل إنه لادعائه الجبروت فى هذا البيت ابتلاه الله بمرض كان يخاف فيه من الذباب أن يقع عليه ، ومن قوله وهو كفر صراح :

ولو حمى المقدار منه مُهْجَةً   لرامها أَوْ يَسْتَبِيحَ ما حَمَى
تغدو المنايا طائعاتٍ أَمْرَه   تَرْضَى الذى يَرْضَى وتأْبَى مَا أَبَى

وقول المتنبى :

إن كان مثلك كان أو هو كائن   فبرئت حينئذ من الإسلام

وقال المتنبى :

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِى رَشَفَاتٍ   هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

وقد اعتذر عنه بعض المتعصبين له بأن التوحيد هنا نوع من التمر ، وبعض أصلح البيت ، فقال :

. . . .   هنَّ فيه حلاوةُ التوحيد

وذكروا أن عضد الدولة لما قال :

مُبْرِزَاتِ الكأس من مطلعها   ساقياتِ الراح من فاق البشر

لم يفلح بعد هذا القول وأخذته علة الصرع ودخل فى غمرات الموت فكان لا ينطق إلا بقوله تعالى : « مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ » . والمتساهلون فى هذا النوع كثيرون ، كأبى نواس ، وابن هانئ الأندلسى ، والمتنبى ، والمعرّى وغيرهم من المتأخرين ، كابن النبيه ومن جرى مجراه .

الهجـاء

يمثل الهجاء فى هذا العصر ماتثمره المدنية من خبث النفوس، وتتبع العثرات، وسهولة الادعاء، والتقوّل على الناس (لضعف الوازع الدينى). كذلك كان من أثر المدنية أن تعدّدت المثالب، وكثر الفجور، فكان ما تورّط الناس فيه من المفاسد مادة للهجاء. فعيبوا باللواط والأبنة والرشوة وامتناع الوفاء. كما كان من آثار المدنية أن ارتقت الأذواق، فاستقذرت بعض المناظر، وهجنت بعض العادات. فذموا اللحى، واستبشعوا طولها، وهزئوا بالخلقة المشوهة، والأنوف الكبيرة، واستهجنوا بعض أصوات المغنين؛ مما يدلّ على أن الشعور قد دقّ، والإحساس قد رق.

ولم يكن كلّ الباعث على الهجاء تلك الأحقاد التى تغلى بها الصدور، والعصبيات التى تقتل فى النفس طبيعة الإنصاف، وفضيلة الرحمة كما كان ذلك فى العصور الماضية. بل كان مرجع أغلبه إلى السخرية والتهكم وحبّ التنادر، والغلو فى المجون، وإظهار البراعة فى التقبيح وتوليد المعانى فيه، كما هو الشأن اليوم فيمن توفرت لهم أسباب الراحة وخلت أيديهم من الأعمال، وأفكارهم من البَلْبال فهم يزجون وقتهم بالتنادر على ذى خلقة عجيبة. أوعادة غريبة، وربما لم يجدوا حقيقة يَدْعَمون بها دعواهم فبنوها على الخيال الكاذب.

وقد يبنى الهجاء على سبب ليس له فى قرارة النفس غور، ولكنه ناشئ من حرمان الشاعر من العطاء، وذلك حين كثر الشعراء وقلت رغبة الممدوحين فى الجود فترتب على ذلك أن الشاعر يمدح المرء طمعا فى ماله، ثم يخيب أمله فيذمه، ثم يعود إلى الرضا حين يجد له أملا فيه، وهكذا أصبحت دواوين الشعراء ميداناً لمناقضات تدل على انحطاط أنفس الشعراء، وأنهم لا يتبعون فى ذمهم أو مدحهم رأياً يتعصبون

له ، أو حقيقة يدافعون عنها ، فمدحهم وذمهم كله كذب ، وهم أعلم الناس بكذب مزاعمهم . ولم يكن للأخلاق رقيب يحميها ، ولا لهؤلاء الذين اتخـذهم الناس هزأة من يدفع عنهم تلك العاديات ، فانطلق الهـاجون يقولون بالحق وبالباطل ، ويبالغون فى الصغير حتى يجعلوه جسيما ، والوهم حتى يصيروه حقيقة . ولقد كانت هذه الإباحة شأن الدولة فى كل شيء يتعلق بالأدب أو المعتقد ما لم يمس الخلافة أو سلطان ذوى السلطان .

ذكروا أن دِعْبِلاً هجا المأمون بقوله :

أَيَسُومُـــنِى المَأْمُونُ خُطَّةَ عاجزٍ ... أَوما رأى بالأمس رأسَ مُحَمَّدِ

يُوفِى على هَامِ الخلائف مِثْلَ ما ... تُوفى الجبالُ على رُءوس القَرْدَدِ [1]

ويَحِلُّ فى أكناف كُلِّ مُمَنَّعٍ ... حـــتى يُذَلِّلَ شاهقاً لم يُصْعَدِ

إنّ الـــتِّرات مُسَهِّدٌ طُلاَّبُها ... فاكْفُفْ لُعَابَك عن لُعَابِ الأَسْوَدِ

إِنِّى مِنَ القَوْمِ الذينَ سُيُوفُهُمْ ... قَتَلَتْ أَخَاكَ وشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ [2]

شَادُوا بذِكْرِكَ بَعْدَ طول خُمُولِهِ ... واسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الحَضِيضِ الأَوْهَدِ

فلما بلغ المأمونَ قوله : ما زاد على أن قال : قاتل الله دِعْبِلا متى كنت خاملا ؟ وفى حجر الخلافة ولدت ، وبدَرِّها غُذِيت ، وفى مهدها رُبِّيت .

☆☆☆

قال ابن الرومى حين خاب أمله فى جائزة المدح :

إن كُنْتَ من جهل حقى غيرَ معتذرٍ ... أو كنتَ عن رَدِّ مدحى غير مُنْقَلِبِ [3]

فأعطنى ثمن الطرس الذى كتبت ... فيه القصيدة أو كَفَّارَةَ الـكَذِبِ

وقال فى نفس المعنى أبو المُظَفَّر الأَبِيوَرْدِىّ :

---

(١) القردد : ما ارتفع من الأرض .

(٢) يشير إلى طاهر بن الحسين الخزاعى ، وهو من قبيلة دعبل .

(٣) سبق أن روينا الأبيات ، وفيها «متئب» بدل «منقلب» وهما روايتان .

ومدائحٍ تَحْكِى الرياضَ أَضَعْتُها ... فى باخلٍ أعْيَتْ به الأَحْسابُ(١)

فإذا تَنَاشَدَها الرُّواةُ وأَبْصَرُوا الـ ... ـمَمْدُوحَ قالوا ساحرٌ كَذّابُ

وقال بشار بن بُرْدٍ فى بخيل :

خليليَّ مِنْ كَعْبٍ أَعِينَا أَخَاكُمَا ... على دَهْرِهِ إِنَّ الْكَرِيمَ مُعِينُ

ولا تَبْخَلَا بُخْلَ ابْنِ قَزْعَةَ إِنَّهُ ... مَخَافَةَ أَنْ يُرْجَى نَدَاهُ حَزِينُ

كأنّ عُبَيْدَ اللهِ لم يَلْقَ ماجدًا ... ولم يَدْرِ أنّ المَكْرُمَاتِ تَكُونُ

إذا جِئْتَهُ فى حاجةٍ سَدَّ بابَه ... ولم تَلْقَهُ إلاّ وأنت كَمِينُ

فقل لأبى يحيى متى تَبْلُغُ المُنَى ... وفى كلِّ معروفٍ عليك يَمِينُ

وقال أبو العتاهية يهجو مَعْن بن زائدة :

فَصُغْ ما كُنْتَ حَلَّيْـ ... ـتَ بِهِ سَيْفَكَ خَلْخَالَا

فَمَا تَصْـنَعُ بالسَّيْـ ... ـفِ إِذَا لَمْ تَكُ قَتَّالَا

وقال البحترىّ يهجو الخَثْعَمِىّ بكِبَرِ الأنف :

رَأَيْتُ الخَثْعَمِىَّ يُقِلُّ أَنفًا ... يَضِيقُ بعَرْضِه البلدُ الفضاءُ

سما صُعُدًا فقصر كل سامٍ ... لهيبته وغَصّ به الهَواءُ(٢)

هو الجبلُ الذى لولا ذُرَاه ... إذًا وقعَتْ على الأرض السماءُ

وقال ابن الرومى فى صَلْعَةِ أبى حَفْصٍ الوَرّاق :

يا صَلْعَةً لأبى حَفْصٍ مُمَرَّدَةً ... كأنّ ساحتها مرآةُ فُولَاذ

تَرِنُّ تَحْتَ الأَكُفِّ الواقعاتِ بها ... حتى تَرِنَّ بها أَكْنافُ بَغْدَاذِ(٣)

وقال يهجو كُنَيْزَةَ المغنية :

---

(١) أعيا : تعب .

(٢) غص (كضرب وفرح والمضارع بالفتح فقط) : امتلأ .

(٣) بغداذ (بالذال) لغة فى بغداد .

شاهَدْتُ فى بعض ماشاهَدْتُ مُسْمِعَةً ... كأنما يومُها يومان فى يَوْمِ
تَظَلُّ تُلْـــقى على مَنْ ضَمَّ مَجْلِسُها ... قولا ثقيـــلا على الأسماع كاللَّوْمِ
لها غِناءٌ يُثِيبُ اللهُ سامعــــــــه ... ضِعْفَىْ ثواب صَــلاةِ الليل والصَّوْمِ
ظَلِلْتُ أشربُ بالأَرْطَالِ لا طَرَبًا ... عليـــه بل طَلَبًا للسُّـكْرِ والنَّوْمِ

وقال يهجو جَحْظَة بالقُبْح :

رأيت جَحْظَةَ يَخْشَى الناسُ كلُّهُمو ... إذا همو عاينوه الفالِجَ الذَّكَرا
تخاله أبداً من قُبْحِ مَنْظَرِه ... مُجاذِبًا وَتَراً أو بالعًا حَجَــرَا
كأنَّهُ ضِفْدَعٌ فى لجَّةٍ هَـــرِمٌ ... إذا شَدَا نَغَمًا أو كَرَّرَ النَّظَرَا
لو كان للهِ فى تخليـــدنا قَدَرٌ ... مَعْ قُرْبِهِ ما أَرَدْنَا ذلك القَدَرا

وقال يهجو من يسمى عَمْرا :

وجهُك يا عمرُو فيه طولُ ... وفى وُجُوهِ الكلاب طُولُ
والكَلْبُ وافٍ وفيك غَدْرٌ ... ففيك عن قدره سُفُولُ
وقد يُحامِى عن المواشى ... وما تُحامِى ولا تَصُـــولُ
وأنت من أَهْلِ بَيْتِ سُوءٍ ... قِصَّتُهم قِصَّــــةٌ تَطُولُ
وُجوهُهُمْ للوَرَى عِظَاتٌ ... لَـكِنَّ أقفاءَهُمْ طُبُولُ
مستفعلن فاعلن فعولن ... مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيـــه ... معنى سوى أنه فضـــول

وقال فى عجوز تتصابى :

عجوزٌ تصابى وهى بِكْرٌ بزعمها ... ومذ ألفِ عامٍ قد وَجَى خَدَّها الواجى (١)
ترى شَـعْرَها تحت القِناعِ كأنَّه ... ضفائرُ لِيفٍ فى هَدِيَّةِ حُجَّاجِ

وقال المتنبى يهجو ضبة بن يزيد العتبى :

---

(١) وجى مسهل وجأ . ووجأ خدها : دقه ، وألصقه بالأرض .

يا أطيبَ الناس نَفْسًا ... وألين الناس رُكْبَهْ

وأخبثَ الناس أصلا ... فى أخبث الأرضِ تُرْبَهْ

إن أوحشتك المعالى ... فإنها دارُ غُرْبَهْ

أو آنستك المخازى ... فإنها لك نِسْبَهْ

وقال يهجو كافورا :

أُريك الرِّضاَ لو أَخْفَتِ النفسُ خافيا ... وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا(١)

أَمَيْنًا وإخلافًا وغَدْرًا وخِسَّةً ... وجُبْنًا ! أشخصا لُحْتَ لى أمْ مَخازِيَا

تَظُنُّ ابتساماتى رَجَاءً وغِبْطَةً ... وما أنا إلاَّ ضاحكٌ من رجائيا

وتُعْجِبُنى رِجلاكَ فى النَّعْل إننى ... رأيتُكَ ذا نَعْلٍ إذا كُنْتَ حافيا

وإنّكَ لا تَدرِى ألونُك أسودٌ ... من الجهل أم قد صار أبيض صافيا

ويُذْكِرنى تَخْبِيطُ كَعْبِك شَقّه ... ومَشْيَك فى ثوبٍ من الزيت عاريا(٢)

ولولا فُضُولُ الناس جئْتُكَ مادحاً ... بما كنتُ فى نفسى به لك هاجيا(٣)

فأصبحْتَ مسروراً بما أنا مُنْشِدٌ ... وإن كان بالإنشاد هَجْوُكَ غاليا

فإنْ كنتَ لا خَيْرًا أَفَدْتَ فإننى ... أَفَدْتُ بلحظى مِشْفَرَيْك الملاهيا

ومِثْلُكَ يُؤْتَى من بلادٍ بعيدةٍ ... لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الحدادِ البواكيا

---

(١) لست راضيا عن نفسى لخطئى بقصدك . ولا عنك لتقصيرك فى حقى .

(٢) يشير إلى أن كافورا كان غلام زيات فكان يحمل الزيت ويمشى عاريا ، وقد تلطخ بالزيت . فكأنه يلبس ثوبا منه .

(٣) الفضول : تعرض الناس لما لا يعنيهم . يقول : إنك لا تفهم الفرق بين المدح والهجاء ، ولولا أنى أخشى أن يدلك الناس بما عندهم من فضول . على أن ما أنشدك على أنه مدح هو فى الواقع هجاء لفعلت .

شعر السياسة

خلف العصر الأموى كثيراً من الخلاف والعصبيات ، فقد أحـــدث الأمويون عامدين عصبيات اليمانية والمضرية بما أرّثوا بينهم من نار الحقد ، وأثاروا من أسباب المنافسة ، فبقيت هـــذه الأحقاد إلى العصر العباسى خصوصاً فى أوله ، وقد أكثر من القول فيها مسـلم بن الوليد ، وأبو نواس من اليمانية ، والحكم بن قنبر من المضرية ، وكان يهجو الأنصار .

وكذلك كان احتقار الأمويين للموالى قد أحدث فى نفوس هؤلاء ضغينة عليهم ، فتحرّكوا الدفاع عن أنفسهم بذكر مفاخرهم ، وتعـــداد مثالب العرب ، ولـكن قليلا منهم الذى اجترأ على إظهار القول فى هذا ، أيام بنى أمية . فلما قامت دولة بنى العباس، وهى من الإباحة فى إبداء الرأى ، والاعتداد بالموالى بحيث عرفت ، كُثر القول فى ذلك كما فى شعر بشّار وديك الجن والخريمى والمتوكلى ، (وكان من ندماء المتوكل) .

فأما الشعر الذى كان فى صميم السياسة فهو الذى كان يقوله شيعة بنى العباس أمثال مروان بن أبى حفصة ، وعلىّ بن الجهم ، وأبان بن عبدالحميد يحتجون لاستحقاقهم الخلافة ، وأنهم أولى بها من بنى علىّ ، و بعكسهم شيعة العلويين أمثال السيد الحميرى ، ودعبل الخزاعى ، ومسلم بن الوليد ، ومحمد بن وُهيب ، فإنهم يردّون عليهم فى ذلك ويهجو بعضهم ملوك بنى العباس كما فعل دعبل .

***

دخل بشار على المهدى ، فقال له : فيمن تمتدح يا بشار ؟ فقال : أما على اللسان

والرأى فعربى ، وأما على الأصل فعجمى كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

وَنُبِّئْتُ قومًا بهم جِنَّةٌ　　يقولون من ذا وكنتُ العَلَمْ

ألا أيُّها السائلى جاهلاً　　ليَعْرِفَنِى أنا أنْفُ الكَرَمْ

نَمَتْ فى الكرامِ بنى عامرٍ　　فُروعى وأصلى قريشُ العَجَمْ

وقال مسلم بن الوليد يفاخر قريشاً :

فاخَرَتْنَا بما بَسَطْنَا لها الفَخْـ　　ـرَ قريشٌ وفَخْرُها مُسْتَعارُ (١)

ذَكَرتْ عزَّها وما كان فيها　　قَبْلَ أن تَسْتَجيرَنا مُسْتَجارُ

إنما كان عِزُّها فى جِبالٍ　　ترتقيها كما تَرَقَّى الوِبَارُ (٢)

أيها الفاخرون بالعز والعِزْ　　زُ لقومٍ سواهُمُ والفَخَارُ

أَخْبِرُونا عن الأعزِّ أَالمنـ　　ـصورُ حتى اعتلى أَمِ الأنْصَارُ

فلنا العِزُّ قبل عِزِّ قُرَيْشٍ　　وقُرَيْشٌ تلك الدُّهُورَ تِجَارُ

وقال مروان بن أبى حفصة يخاطب آل أبى طالب ، وكان شديد العداوة لهم :

خَلُّوا الطريقَ لمعشرٍ عَادَاتُهُمْ　　حَطْمُ المَنَاكِبِ يَوْمَ كُلِّ زِحَامِ

وارْضَوْا بما قسم الإلهُ لكُمْ به　　ودَعُوا وِرَاثَةَ كُلِّ أَصْيَدَ سامى (٣)

أَنَّى يَكُونُ وَلَيْسَ ذاك بكائنٍ　　لِبَنِى البَنَاتِ وِرَاثَةُ الأَعْمَامِ (٤)

ومثله قول الطاهر بن علىّ بن عبد الله بن سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس :

لو كان جَدُّكُمُ هناك وَجَدُّنا　　فتنازعا فيه لوقت خصام

كان التُّراثُ لِجَدِّنا من دونه　　فحواه بالقُرْبى وبالإسلام

حقُّ البناتِ فريضةٌ معلومة　　والعَمُّ أولى من بنى الأعمام

---

(١) بما بسطنا لها الفخر : أى ببسطنا لها الفخر . أى بتمكينها من أسبابه وذلك بنصرتها .

(٢) الوبار (بكسر الواو) : جمع وبرة (بالفتح) وهى دويبة كالسنور .

(٣) الأصيد : الملك ، وكل رافع رأسه كبرا .

(٤) أى كيف يأخذ بنو البنات حق الأعمام فى الوراثة ؟

كان الرشيد قد سمع غناء فى قول دعبل :

أَيْنَ الشبابُ وأَيَّةً سلكا   لا أَيْنَ يُطْلَبُ ضَلَّ بَلْ هَلَكَا؟
لا تَعْجَبِي يا سَلْمَ من رَجُلٍ   ضَحِكَ المَشِيبُ برأسه فبكى
ياليت شِعْرِى كيف يَوْمُكما   يا صاحبَيَّ إذا دَمِى سُفِكا
لا تأخذوا بظُلامتى أحدا   قَلْبِي وطَرْفِى فى دمى اشتركا

فسأل عن قائلها ، فقيل له : دعبل ، غلام من خزاعة ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وخلعة من ثيابه ، ومركب من مراكبه ، وجهز له ذلك مع خادم من خدمه إلى خزاعة فأعطاه جائزة أمير المؤمنين ، وأشار عليه بالمسير إليه فحضر ، ولما سلم أمره بالجلوس فجلس ، فاستنشده الشعر ، فكان الرشيد أوّل من حرّضه على قول الشعر ، ثم لما بلغه موت الرشيد كافأه أقبح مكافأة ، فقال فيه من قصيدة يمدح أهل البيت ويهجوه :

وليْسَ حَيٌّ من الأحياءِ نَعْلَمُهُمْ   من ذى يَمَانٍ ولا بَكْرٍ ولا مُضَرِ (١)
إلاّ وَهُمْ شُرَكَاءُ فى دِمَائِهِمُ   كما تَشَارَكَ أَيْسَارٌ على جُزُرِ (٢)
قَتْلٌ وأسرٌ وتحريقٌ ومَنْهَبَةٌ   فِعْلَ الغُزَاةِ بأرض الروم والخَزَرِ (٣)
أَرَى أُمَيَّةَ معذورين إن قَتَلوا   ولا أرى لبنى العباس من عُذُرِ
إِرْبَعْ بطُوسٍ على القبرِ الزَّكِيِّ إذا   ما كُنْتَ تَرْبَعُ من دينٍ على وَطَرِ (٤)
قَبْرانِ فى طوسَ خيرُ الناس كلِّهِمُ   وقَبْرُ شَرِّهِمُ هـذا من العِبَرِ (٥)

---

(١) يقال : ذو زيد . أى صاحب هذا الاسم . فذو يمان : أى الذى يقال له يمان ، ويمان كيمنى نسبة إلى اليمن .

(٢) الأيسار . جمع يسر ، وهم لاعبو الميسر . الجزر: جمع جزور ، وهى الناقة التى يقامرون عليها ، ثم يجزرونها ويوزعون لحمها على الفقراء .

(٣) الخزر : جيل من الناس خزر العيون (ضيقوها) .

(٤) اربع : قف وامكث .

(٥) يعنى قبر الرشيد ، وقبر موسى الكاظم .

ماينفعُ الرِّجسَ من قرب الزّكىّ ولا   على الزّكىّ بقرب الرِّجسِ من ضَرَرِ
هيهات كُلُّ امرىءٍ رَهْنٌ بما كَسَبَتْ   له يداه فَخُذْ ما شئت أو فَذَرِ

الغزل بالمذكر

قد عرفت أن من أثر اختلاط الفرس بالعرب شيوع هذه العادة بينهم ، وكان أوّل من اجترأ على القول فيها حماد عَجْرَدٍ، ووَالِبَة بن الحُباب ، ثم أبو نُوَاس ، وحسين ابن الضَّحَّاك ، ثم توالى من الشعراء القول فى ذلك حتى غلب الغزل بالمذكر على كل قائل ، وصار المتغزل يعيد الضمير فى غزله مذكراً ، ولو كانت الصفات للأنثى .

وقد تبع القول فى هذا أن وصفوا العذار وافتنّوا فيه ، وهو معنى كما قلنا لم يعرفه السابقون لأنهم لم يكونوا عرفوا هذا النوع من الغزل ، كما كان من آثار شيوع هذه العادة أن هجى الناس بالأُبنة واللوطية، فتفرع عن هذه الرذيلة مساوىء كثيرة كانت فى الأدب العربى سبة لقائلها، وقذى فى عين قارئها، وصمما فى أذن سامعها ، و بعد أن كان الغزل القديم إلا أقله عفيفاً يدلّ على طهارة النفس ، ونبل المقصد ، والتسبيح بحمد الله فى خلقته الجمال ، صار على أيام العباسيين عهرا ودعارة ، حتى نرى أكثر المؤلفين إذا تناولوا القول فيه أمسكوا عن الاسترسال خشية أن تندى وجوههم خجلا مما يسطرون فى الأوراق ، وما يحكون عن غيرهم ؛ من وصف شنيع ، أو حكاية لفعل قبيح ، فكيف بقائل الكلام إن كان صادقا فيما يروى مخبراً عن واقع جرى .

وليس بعيداً أن تكون الأخلاق قد انحطت إلى هذا الدرك ، فكل الشعوب تنتهى بها المدنية ، و إعطاء النفس رغباتها إلى مثل هذا الحدّ ، ولكن تسجيل هذه المخازى فى الشعر دليل على الإفلات من قيود الأدب حتى يتبجح المجرم بما جنى ، فلا ينثنى عن تسجيل تهمته بشهادة نفسه .

ونحن ناقلون إليك ما يدلّ على اتجاههم فى هذا النوع ، وإن كنا كذلك لا نستطيع أن ننقل كلّ ما وقفنا عليه . قال أبو نواس :

يا بدْعــةً فى مثال ... يجُوزُ حَــدّ الصفاتِ
الوجـــــه بدرُ تمام ... بعين ظبى فــــــلاة
والقَدّ قَدّ غــــلام ... والغُنْج غُنْـــج فتاة[1]
مذكـر حين يبدو ... مؤنث الخــــلوات
زها علىّ بصُــدْغٍ ... مُزَرْفَنِ الحلقـــات[2]
من فوق خدٍّ أَسِيلٍ ... يضىء فى الظلمات[3]

وقال أيضاً :

جالَ ماء الشباب فى خديكا ... وتلالا البهاء فى عارضيكا
ورمى طَرْفُكَ المُكَحّل بالسحــــر فؤادى فصار رهنا لديكا
أنا مُسْتَهْتَرٌ بحبك صبّ ... لست أشكو هواك إلا إليكا[4]
يا بديع الجمال والحسن والدلــــل حياتى وميتتى فى يديكا
بأبى أنت لو بليت بوجدى ... لم يهن ما لقيت منك عليكا

وقال الحسن بن الضحاك فى غلام يستحم :

وا بأبى أبيض فى صفرة ... كأنه تـــبر على فضه
جرده الحمام عن دُرّةٍ ... تلوح فيها عُكَن بَضّهْ
غصن تبدى يتثنى على ... مَأْكَمة مُثْقَلَةَ النّهْضـــه[5]

---

(١) الغنج : ملاحة العينين ، أو دل المرأة وعزلها .
(٢) الزرفين : حلقة الباب أو عام ، وقد زرفن صدغيه : أى لوى شعرهما وحلقه .
(٣) الخد الأسيل . المستطيل المسترسل .
(٤) المستهتر بالشىء (بصيغة المفعول) : المولع به لا يبالى ما قيل فيه .
(٥) المأكمة : اللحمة على رأس الورك ، وهما مأكمتان فى الإنسان .

كأنما الرّمْش على خده   طَلٌّ على تفاحة غضه[1]
صفاته فاتنة كلها   فبعضه يذكرني بعضه

وقال فضل الرُّقاشيّ :

وشاطرٍ فاتكِ الشمائل قَدْ   خالط منه المجونُ تخنيثا
نراه طوراً مُذَكَّراً فإذا   عاقَرَ راحًا رأيتَ تأنيثا
ألثغ إن قلت يا فديتك قل   موسى يَقُلْ من رطوبةٍ موثى[2]
ما زال حتى الصباحِ مُعْتَنِقِي   مطارحي في الدُّجى الأحاديثا

وقال السَّرّاج الورّاق في العذار :

وفاتك يجْرَح سَيْفُ لحظه   مُجرَّداً من جفنه ومُغْمَدا
خاف على خَدَّيْه من لحاظه   فبات في عذاره مُزَرَّدا[3]

ومن استعمال لفظ المذكر في المؤنث قول أبي نُوَاس :

يا قمرا أبصرتُ في مأتمٍ   يَنْدُبُ شَجْوا بين أتراب
يبكي فيُذري الدرّ من نَرجِسٍ   ويَلْطِم الوردَ بعُنّاب[4]
أبرزه المأتمُ لي كارها   برَغْمِ دَايَاتٍ وحُجّابِ[5]
لا تبك مَيْتاً حلّ في قبره   وابكِ قتيلاً لك بالباب

---

(١) الرمش : الدمع القليل .

(٢) اللثغة في النطق : تحوّل السين ثاء أو الراء غينا ، أو مطلق تغيير حرف بحرف .

(٣) الزرد : الدرع . يريد أن العذار على بشرته كالزرد يغطى الجسم .

(٤) أذرت العين الدمع : أسقطته .

(٥) في القاموس المحيط : المأتم كل مجتمع في فرح أو حزن أو خاص بالنساء أو الشواب منهن ، وفي الصحاح : المأتم عند العرب النساء يجتمعن في الخير والشر . قال أبو العطاء السندى :

عشية قام النائحات وشققت   جيوب بأيدى مأتم وخدود

أى بأيدى نساء ، وفي المصباح أتمّ بالمكان : أقام ، ومنه المأتم للنساء يجتمعن في خير أو شر تسمية للحالّ باسم المحل .

نماذج من بقية الأغراض

من الوصف قول الأرّجانىّ فى شمعة ، وقد استوفى كلّ مايقال فيها ، ولم يكد يخلى لمن بعده فيها فضلا :

نمّتْ بأسرارِ ليلٍ كان يُخفيها　　وأطلعتْ قلبَها للناس من فيها
سفيهةٌ لم يزلْ طولُ اللسان لها　　فى الحى يجْنِى عليها حَذْفَ هَادِيها(١)
غريقةٌ بدمــــوعٍ وهى تحْرِقُها　　أنفاسُها بدوام من تَلَظِّيها
قد أثمرتْ وردةً حمراء طالعةً　　تجْنِى على الكفّ إنْ أهْوَيْتَ تجْنيها
وَرْدٌ تُشاكُ به الأيدى إذا قَطَفَتْ　　وما على غُصْنِها شــوكٌ يُوَقِّيها
وَيْلُمِّها فى سواد الليل مُسْعِدَةً　　إذا الهمُومُ دَعَتْ قلبى دواعيها

وهى طويلة ، ولأبى الفرَج الببّغاء فى وصف كانون :

وذى أربعٍ لا يُطيق النهوض　　ولا يَألَفُ السَّيْرَ فيمن سَرَى
تحَمَّلَهُ سَبَجاً أســــودًا　　فيجعَلُه ذهبا أحمـــــرا(٢)

ومثله قوله :

والتَهَبَتْ نارُنا فمنظَرُها　　يغْنيكَ عَنْ كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ
إذا رمت بالشرار واضطربت　　على ذُراها مطارف اللهبِ
رأيت يا قوتة مشبكة　　تطير منها قُراضةُ الذهب

وقال السرِىُّ الرَّفَّاء يصف الطبيعة :

وغيم مرهفاتُ البرق فيــــه　　عَوَارٍ والرياضُ بها كواسى

---

(١) الهــادى : العنق .
(٢) السبج : الشىء الأسود .

ولاح لنا الهلال كشَطْرِ طَوْقٍ   على لَبَّاتِ زَرْقاءِ اللباسِ

وقال ابن المعتز يصف سحابة :

وساريةٍ لا تَمَلُّ البُكَاء   جرى دَمْعُها فى خُدُودِ الثَّرَى

سَرَتْ تَقْدَحُ الصبحَ فى ليلها   ببرقٍ كهندية تنتضى

فلما دنت جلجلت فى السما   ء رَعْداً أَجَشَّ كَجَرْشِ الرحى

كأنَّ عليها ارتداء اليَفَاعِ   بأنوارها واعتجار الرُّبا(١)

فما زال مَدْمَعُها باكيا   على التُّرْبِ حتى اكتسى ما اكْتَسَى(٢)

فأضحتْ سواءً وجوهُ البلاد   وجُنَّ النَّبَاتُ بها والتقى(٣)

ولابن الرومى فى تفضيل النَّرْجِس على الورد :

للنرجس الفضل المبين لأنه   زَهر ونَوْر وهو نبت واحد(٤)

ينهى النديمَ عن القبيح بلحظه   وعلى المدامة والسماع مساعد

خجلت خدود الورد من تفضيله   خجلا توردها عليه شاهد

هذى النجوم هى التى رَبَّتْهُما   بحيا السحاب كما يُرَبِّى الوالد

فتأمل الأثنين مَنْ أدناهما   شبها بوالده فذاك الماجد

أين الخدود من العيون نفاسة   ورياسة لولا القياس الفاسد

وقال أحمد بن يونس الكاتب يفضل الورد :

يا من يُشَبِّهُ نَرْجِساً بنواظر   دُعْجٍ تَنَبَّهْ إنَّ فهمك راقد(٥)

إن القياس (لِمَنْ يَصِحُّ قِيَاسُهُ)   بين العيون وبينه متباعد

---

(١) الاعتجار : التعمم (لف العمامة) . أنوار : جمع نور (بالضم) وهو الضوء .

(٢) الترب : لغة فى التراب .

(٣) جنّ النبات : طال وزاد نموّه ، ومن معانيه أيضا : أخرج زهره ونوره.

(٤) الفرق بين الزهر والنور : أن الزهر هو الأصفر من نور النبات . والنور هو الأبيض منه

(٥) الدعج : جمع دعجاء، وهى العين الشديدة السواد مع السعة ، وبابه طرب.

والورد أشبه بالخدود حكايةً　　فعلام تَجْحَدُ فضلَه يا جاحد

ملكٌ قصـــير عمره مُسْتَأهِل　　لخـــلوده لو أن حَيًّا خالد

وخليفةٌ إن غاب ناب بنفحه　　وبنفعه عنـــه مقيم راكد

إن كنت تنكر ما ذكرنا بعد ما　　وضَحَتْ عليه دلائلٌ وشواهد

فانظر إلى المُصْفَرِّ لونًا منهما　　وافْطُن فما يصفر إلا الحاسد(١)

وقال أبو نواس يصف مجلس الشراب وآنيته(٢) :

ودارِ نَدَامَى عَطَّلُوها وأَدْلَجوا　　بها أَثَرٌ منهم جديدٌ ودارسُ

مَسَاحبُ من جَرِّ الزِّقاقِ على الثَّرَى　　وَأَضْغَاثُ رَيْحانٍ جـنيٌّ ويابسُ

حَبَسْت بها صَحْبِى فجَدَّدْتُ عهدهم　　وإنِّى على أمثال تلك لحابس

ولم أدْرِ مَنْ هُمْ غيْرَ ما شَهِدَتْ به　　بشَرْقِيِّ سَابَاطَ الدِّيَارُ البسَابِسُ

أقمنا بها يومًا ويومين بعـــده　　ويوما له يوم الترحل خامس

تُدارُ علينا الرّاحُ فى عسجديّة　　حبتها بأنواع التصاوير فارس

قَرَارتُها كِسْرَى وفى جَنَبَاتِها　　مَهًا تَدَّرِيها بالقِسِيِّ الفوارس

فلِلْخَمْرِ ما زُرَّتْ عليه جُيُوبُهُمْ　　وللماء ما دارَتْ عليه القَلَانِس

وقال يصف اللعب بالصولجان والكرة :

جِنٌّ على جِنٍّ وإن كانوا بَشَرْ　　كأنما خِيطُوا عليها بالإبَرْ

---

(١) فطن من باب قعد وفرح وكرم .

(٢) قالوا خرج أبو نواس مع بعض الناس إلى المدائن فرأى بساباط آثارا تدل على اجتماع كان لقوم فقال له أصحابه صف لنا هؤلاء وبقاياهم فقال غير متمكث ، هذه الأبيات . قال الجاحظ : نظرنا فى شعر القدماء والمحدثين فوجدنا المعانى تقلب ورأينا بعضا يسرق من بعض إلا قول عنترة :

وخلا الذباب بها فليس ببارح　　غردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه　　فعل المكب على الزناد الأجذم

وقول أبى نواس :

قرارتها كسرى ....

أو سُمِّرَ الفارسُ فيها فانْسَمَرْ ... بين رياضٍ مِثْلِ مَوْشِيِّ الحِبَرْ (١)

مكالات ببهار وزَهَرْ ... فانتدبوا فى يوم قُرٍّ وخَصَرْ (٢)

إذ ذَرَّ قَرْنُ الشمس فى غِبِّ مَطَرْ ... صوالجا يَصْبُو إليها من نَظَرْ (٣)

مَحْنِيَّةً أطرافُها فيها زَوَرْ ... قَدَّرَها شابرُها لما شَبَرْ

فلم يَعِبْ طولٌ ولا شان قِصَرْ ... وقد تنادَوْا فترامَوْا بالأُكَرْ (٤)

مُدْمجة الأركان مُدْماة الطُّرَرْ ... شدَّد صَفْقَيْ مَتْنِها حشوُ الشَّعَرْ (٥)

أحكمها صانعُها لما فَطَرْ ... ألْطَفَ بالإشفاء خَرْزاً إذ دَسَرْ (٦)

فليس للاشفاء بالجلد أثر ... يُحسَبْنَ تُفَّاحا تَدَلَّى من شَجَرْ

وقال يصف الخمر (وهى من غرره) :

يا شقيق النفس مِنْ حَكَمِ ... نِمْتَ عن لَيْلِي ولم أَنَمِ (٧)

فاسقنى البِكْرَ التى اخْتَمَرَتْ ... بخمار الشَّيْبِ فى الرَّحِمِ (٨)

ثُمَّتَ أُنصاتَ الشبابُ لها ... بعد ما جازتْ مَدَى الهَرَمِ (٩)

---

(١) يقال وشى الثوب ووشاه فالثوب موشيّ وموشى أو وضع عليه مايجمله من غير لونه . الحبر (كعنب) : جمع حبرة (كعنبة) وهى ثوب يمان .

(٢) القر : البرد . الخصر : البرد يجده المرء فى أطرافه .

(٣) قرن الشمس : أعلاها وأول مايبدو منها . صوالجا : مفعول لانتدبوا . يقال ندبه للأمر إذا طلبه فانتدب : أى أجاب فكان الوجه أن يقول فندبوا . فيكون أبو نواس أول من أشاع هذا الخطأ إن لم يكن قد سبقه غيره إليه .

(٤) الأكر : جمع أكرة ، وهى الكرة .

(٥) مدماة : شديدة الحمرة . الطرر : جمع طرة وهى شبه علمين يخاطان على طرف الثوب . الصفق الجانب

(٦) فطر : شق . الإشفى : مخرز يثقب به الجلد . وقد مد هنا وفى البيت بعده للشعر . الدسر : الطعن والمراد هنا الثقب بالإشفى .

(٧) حكم : مخلاف من اليمن ينسب إليه أبو نواس وقد ذكره فى شعره فى غير هذا الموضع قال :

وينمى إلى حكم دعوة ... وما إن له نسب من حكم

(٨) المراد بخمار الخمر : مايعلوهامن الزبد.

(٩) انصات : أجاب .

فهْيَ لليوم الذى بُزِلَتْ ... وهى تِرْبُ الدَّهْرِ فى القِدَمِ (١)
عُتِّقَتْ حتى لو اتصلت ... بلسانٍ ناطقٍ وفمِ
لاحتبَتْ فى القوم ماثلة ... ثم قَصَّتْ قصةَ الأُمَمِ
قَرَعَتْهَا بالمِزَاجِ يَدٌ ... خُلِقَتْ للسيف والقلمِ
فى نَدَامَى سادةٍ زُهُرٍ ... أَخَذُوا اللذاتِ من أَمَمِ (٢)
فتَمَشَّتْ فى مفاصلهم ... كتَمَشِّى البُرْءِ فى السَّقَمِ
فعلتْ فى البيت إذ مُزِجَتَ ... مِثْلَ فِعْلِ الصبح فى الظُّلَمِ
فاهتدى سارى الظلام بها ... كاهتداءِ السَّفْرِ بالعَلَمِ

حكى الأصمعى قال : رأيت أبا نواس فى المنام ، فقلت له : هل نسى من خمرياتك شيء ؟ قال : أجودها ، قلت : فاذكر ، فقال :

أذكى سراجا وساقى الشَّرْبِ يَمْزُجُها ... فلاحَ فى البيت كالمصباح مصباحُ
كِدْنا ــ على علمنا ــ بالشك نسأله ... أراحُنا نارُنا أم نارُنا الراحُ

وقال ابن الرومى يصف صانع الزّلابية :

ومستقرٍ على كرسيّه تَعِبٍ ... روحى الفداء له من مَنْصِبٍ نَصِبِ
رأيتُه سَحَرًا يَقْلِى زَلَابِيَةً ... فى رقَّةِ القِشْرِ والتجويفِ كالقَصَبِ
يُلْقِى العجينَ لُجَيْنًا من أنامله ... فيستحيل شَبَابِيكًا من الذَّهَبِ

وقال يصف العنب الرّازقىّ (٣) :

ورَازِقىٍّ مُخْطَفِ الخُصُورِ ... كأنَّه مخازن البَلُّورِ
قد ضُمِّنَتْ مِسْكًا إلى الشُّطُورِ ... وفى الأعالى ماءَ وَرْدٍ جُورِى (٤)

---

(١) بزل الشراب بالمبزل : أسال منه، والمبزل شبه الطبى فى الدنّ «صنبور».
(٢) زهر : جمع أزهر، وهو المشرق .
(٣) الرازق : نوع من عنب الطائف أبيض طويل الحب .
(٤) جور : مدينة بفارس هى قصبة فيروزاباد من أعمال شيراز ، وردها جيد جدا .

بلا فريد وبلا شذور   له مَذاقُ العَسَلِ المُشورِ[1]

وبَرْدُ مَسِّ الخَصِرِ المقْرُورِ   ونَكْهَةُ المِسْكِ مع الكافور

لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحَرُور   إلا ضياءً فى ظُروفِ نُورِ[2]

لو أنه يبقى على الدُّهُورِ   قَرَّطَ آذانَ الحسانِ الحُورِ

وقال أبو حسن الجوهرى يصف الفيل :

يزهو بخرطوم كمثـ   ـل الصَّوْلجانِ يُرَدّ رَدّا[3]

متمددا كالأُفْعُوا   نِ تَمُدُّه الرَّمْضاءُ مَدّا

أو كُمِّ راقصةٍ تشيـ   ـر به إلى النَّدْمان وجدا[4]

وَكأنَّه بُوقٌ يُحَرْ   رِكُهُ لينفخ فيه جِدّا

يسطو بصارمتى لِحُيْـ   ـىٍ يَحْطِمان الصخرهَدّا[5]

أذْناه مِرْوحتان أسـ   ـندتا إلى الفَوْدَينِ عَمْدَا[6]

عيناه غائرتان ضُيْـ   ـيِقتا لجمع الضوء عمدا

ومن وصف القصور وما فيها قول البحترى يصف بركة المتوكل وما فيها من السمك :

يامَنْ رأى البِرْكةَ الحسناءَ رُؤْيَتَها   والآنساتِ إذا لاحتْ مَغانِيَها

بِحَسْبِها أنها من فضل رتبتها   تُعَدُّ واحدةً والبحرُ ثانيها

ما بال دِجْلة كالغَيْرَى تنافسها   فى الحسن طوراً وأطواراً تباهيها

(١) الفريد : الدر الذى يفصل بين الذهب فى القلادة ، فالدر فريد والذهب مفرد . الشذر : صغار اللؤلؤ

(٢) الوهج : الشعاع . الحرور : حرّ الشمس .

(٣) يرد ردا : يحرك تحريكا .

(٤) الندمان : المنادم .

(٥) اللحىّ (كفعيل): منبت اللحية فى الانسان وغيره ، وهما لحيان وثلاثة ألح والكثير لحىّ (بضم اللام أو كسرها مع شد الياء) .

(٦) الفودان : جانبا الرأس .

أما رأت كالئَ الإسلام يَكْلَؤُها ... من أن تُعاب وبانِي المجدِ يبنيها

كأنَّ جنَّ سليمان الذين وَلُوا ... إبداعها فأَدَقُّوا فى معانيها

فلو تَمُرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُض ... قالت هى الصَّرْحُ تمثيلا وتشبيها[1]

تَنْصَبُّ فيها وُفُودُ الماء مُعْجَلَةً ... كالخيل خارجةً من حبل مجريها

كأنما الفضـةُ البيضاء سائلةً ... من السبائك تَجْرِى فى مجاريها

إذا عَلَتْهَا الصَّبا أبدتْ لها حُبُكاً ... مثل الجَوَاشنِ مصقولاً حواشيها[2]

فحاجبُ الشمسِ أحيانا يضاحكها ... ورَيِّقُ الغيثِ أحيانا يباكيها[3]

إذا النجومُ تراءتْ فى جـوانبها ... لَيْلاً حَسِبْتَ سماء رُكِّبَتْ فيها

لا يَبْلُغُ السمك المحصور غايتَها ... لبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها

يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مُجَنَّحـةٍ ... كالطير تَنْقَضُّ فى جوٍّ خَوَافيها

لَهُنَّ صَحْنٌ رحيبٌ فى أسافلها ... إذا انحطَطن وبَهْوٌ فى أعاليهـا

صُوَرٌ إلى صُورةِ الدُّلْفِينِ يُؤْنِسُها ... منه انزواءٌ بعينيـه يُوَازِيها[4]

مَحْفُوفَةٌ برياض لا تزال ترى ... ريشَ الطواويس تَحْكِيه ويَحْكيها

وَدكَّتين كمثل الشِّعْرَيَيْنِ غدَتْ ... إحداها بإزا الأخرى تُساميها[5]

إذا مساعى أمير المؤمنين بَدَتْ ... للواصفين فلا وَصْفٌ يدانيها

ومن شعر المجون قول الحمدونى الشاعر فى طيلسان أهداه إليه محمد بن حرب ، فأكثر

---

(١) بلقيس هى السادسة من ملوك التبابعة (الطبقة الأولى) وكانت ذات جمال رائع وعدل فى حكمها وكان فى عصرها نبي الله سليمان يملك بيت المقدس فنقل الهدهد إليه خبرها وسافرت إليه فأكرمها وآمنت على يديه ثم عادت إلى بلادها فوجدت الملك المخلوع قبلها قد استولى عليه فاحتالت له بأن تزوجته ثم قتلته . العرض الجانب .

(٢) الجواشن: الدروع والواحد جوشن . الحبك : التكسر. قال الفراء: هوالتكسر فى كل شىء.

(٣) ريق الغيث : أوله . حاجب الشمس : حرفها وجانبها .

(٤) انزواء : تجمع وتقبض .

(٥) الدكة كالدكان : الذى يجلس عليه . كمثل الشعريين : أى متقاربين تقارب هذين النجمين .

فى وصف بلاه وانسالت عليه المعانى حتى قال : قرابة مائتى مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى جديد وكلها تهكم بالهدية فمن قوله فيه :

يا بن حرب كسوتنى طيلساناً ... مَلَّ من صحبة الزمان وصَدّا

فحسِبْنا نَسْجَ العناكب قد حا ... ل إلى ضَعْفِ طيلسانك سَدّا[١]

طال ترداده إلى الرَّفْوِ حتى ... لو بعثناه وحـــده لتهدَّى

وقوله :

قل لابن حرب طيلسانك قد ... أوهى قواى بكثرة الغُــرْمْ

متبين فيـــــه لمبصره ... آثار رفـــو أوائل الأمم

وكأنه الخمر الـتى وصفت ... فى (يا شقيق النفس من حكم)

فإذا رممناه فقيـــــل لنا ... قد صح قال له البلى انْهَدِمِ

مثل السقيم بَرَا فراجعـــه ... نُكْسٌ فأسلمــه إلى سَقَمِ[٢]

أنشدت حين طغى فأزعجنى ... « ومن العناء رياضة الهَرِم » .

وقوله[٣] :

يا بن حرب أطلْتَ فقرى برَفْوِى ... طيلسانا قـــد كُنْتُ عنه غَنيَّا

فهو فى الرَّفْوِ آل فرعون فى العرْ ... ضِ على النار بُكْـــرة وَعَشِيَّا

وقد أكثر أيضاً من القول فى شاة أهداها إليه سعيد بن أحمد بن خوسنداذ ، ومن قوله فيها :

أسعيدُ قد أعطيتنى أُضْحِيَّةً ... مكثَتْ زماناً عندكم ما تُطْعَمِ

نِضْواً تعاقرت الكلاب بها وقد ... نُبِذوا عليها كى تموت فتؤْلَمَ[٤]

---

(١) لعل المعنى : ظننا أن نسج العناكب قد صار بمثابة السد فى المتانة بالنسبة لهلهلة وضعف طيلسانك.

(٢) النكس (كقفل) : عودة المرض بعد الدخول فى الشفاء ، ولا يقال نكس بفتح النون الامع تعس وذلك للمزاوجة والاتباع . برا : مسهل برأ (كقطع) وهى لغة فى برئ .

(٣) فى الجزء الرابع من زهر الآداب مقطعات للحمدونى فى طيلسان بن حرب .

(٤) النضو : الهزيل والأنثى بالتاء .

فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم   لا تَهْزَءوا بى وارحمونى تُرْحَموا
مَرَّتْ على عَلَفٍ فقامت لم تَرِمْ   عنه وغَنَّتْ والمدامع تَسْجُم (١)
وقف الهوى فى حيث أنت فليس لى   متأخَّـــرٌ عنه ولا مُتَقَدَّم

حدث أحمد بن خالد قال : كنا يوماً عند دار رجل يقال له صالح ، ومعنا جماعة من أصحابنا ، فسقط على كنيسة فى سطحها ديك طار من بيت دعبل ، فلما رأيناه قلنا هذا صيد فذبحناه وشويناه ثم خرج دعبل وسأل عن الديك ، فعرف قصته ، فغدا فى اليوم الثانى على مسجد الحى ، فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد ينشد قوله :

أَسَرَ المؤذِّنَ صالحٌ وضيوفُه   أَسْرَ الْكَمِىِّ هفا خلال المَاقِطِ (٢)
بعثوا عليه بناتهم وبنيهم   ما بين ناتفة وآخر سامط (٣)
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا   خاقانَ أو هزموا كتائب ناعط (٤)
نَهَشُوه فانْتُزِعَتْ له أسنانهم   وتَهَشَّمَتْ أقفاؤهم بالحائــط

وزعموا أن وهب بن سليمان بن وهب ضَرَط فى حضرة أحد القضاة فذاع أمر هذه الضرطة ، وتناولها الشعراء فأكثروا من القـــول فيها ، فمن ذلك قول ابن مهدى الكسروى :

إن وَهْب بن سليما   ن بن وَهْب بن سعيد
حمل الضَّرْطَةَ للرىْ   ى على ظهر البريد
فى مُهِمَّاتِ أمور   منه بالرَّكْضِ الشديد
إسته تنطق يوم الـ   ـحَفْلِ بالأمر الرشيد

---

(١) سجم الدمع (كدخل) : سال .
(٢) المؤذن : الديك . هفا : سقط . الماقط : مسهل الأقط ، وهو حومة الوغى .
(٣) سمط الدجاجة : وضعها فى ماء ساخن لينظف ماعليها من ريش .
(٤) خاقان : لقب لملك الترك ككسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم ، وفرعون لملك مصر قديماً . ناعط ، قبيلة من همذان : وأصله جبل نزلوا به فنسبوا إليه .

لم يُجدْ فى القول فاحتا　　جَ إلى دُبْرٍ مجيد

وقد عارض بعض الشعراء قول أبى نواس :

يا قمرا أبرزه مأتم　　يندب شجوا بين أتراب

فقال فى ذم أعور :

يا أعورا أبرزه مأتم　　يندب شجوًا بتخاليط

يبكى فيذرى الدمع من كُوّةٍ　　ويَلْطِمُ الشّوْكَ ببَلُّوطِ

وحدث أبو عَنْبَسٍ الصَّيْمَرِىُّ قال : كنت عند المتوكل والبحترىُّ ينشده :

عن أىِّ ثغرٍ تبتَسِمْ　　وبأىِّ طَرْفٍ تحتكم

حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفر الـــمتوكل بن المعتصمْ

والمجتدَى ابن المجتدَى　　والمنعِمِ ابن المنتقِمْ

اســـلم لدين محمد　　فإذا سلمْتَ فقد سَلِمْ

وكان البحترىّ من أبغض الناس إنشادا فضَجِر المتوكل منه ، وأقبل علىّ فقال : أما تسمع ما يقول يا صَيْمَرِىُّ ؟ فقلت : بلى يا سيدى ، فمرنى فيه بما أحببت ، فقال بحياتى اهجه على هذا الروىّ الذى أنشدنيه ، فقلت :

أدخلت رأسك فى الرّحِمْ　　وعلمتُ أنّكَ تنهزِمْ

يا بحترىُّ حَـــذَارِ ويــحك من قَضَاقِضَةٍ ضُغُمْ (١)

فلقــــد أسَلْتَ بواليـــك من الهجا سَيْلَ العَرِم

فبـــأىِّ عِرْضٍ تعتصم　　وبِهَتْكِهِ جَفَّ القــلَم

والله حِلْفَةَ صادقٍ　　وبِقَبْرِ أحمــــدَ والحرَم

وبحق جعفرٍ الإما　　مِ ابن الإمامِ المعتصِم

---

(١) قضاقضة : جمع قضقاض (بضم القاف وفتحها) وهو الأسد . ضغم : جمع ضغم وهو الأسد .

لَأُصَـــيِّرَنَّكَ شُهْرَةً بينَ المَسِيلِ إلى العَلَم

فجعل المتوكل يضحك ، ويصفق بيديه ، وقد خرج البحترى مغضباً .

ومن مشهورى شعراء المجون أبو الرَّقَعْمَق بالشأم المتوفى سنة ٣٩٩ ه ، وابن حَجّاج المتوفى سنة ٣٩١ ه ، وابن سُكَّرة المتوفى سنة ٣٨٥ ه بالعراق ، وقد اجتمعا فى بغداد ، فكان يقال فيهما إن زماناً جاد بابن سُكَّرَة ، وابن حَجّاجٍ لسخى جدًّا .

وأبو الرقعمق ، (وهو نبز له واسمه أحمد بن محمد الأنطاكى) هو القائل :

إخوانُنا ذكروا الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فأتى رَسُـولُهُمُ إلىّ خُصُوصاَ

قالوا اقْتَرِحْ شيئاً نُجِدْ لكَ طَبْخَه قلت اطبخوا لى جُبّةً وقميصا

وإلى هنا نمسك القلم عن الإفاضة فى نماذج الشعر ، فإنه باب لا تنتهى محاسنه ، ويحسن بك العود إلى مامثلنا به فى أبواب سابقة للحكمة والمثل ، فلا نطيل بذكر أمثلتهما

لفظ الشعر وأسلوبه

كان من أثر المدنية رقة حاشية الكلام بنوعيه : النثر والنظم ، ولما كان الشعر مجال الأناقة والتظرف ، فقد رقت حاشيته كثيراً ، خصوصاً وأنه كان موضوع الغناء وهو يتطلب اللفظ الأنيق الرقيق العذب ، لذلك نرى لفظه فى هذا العصر قد صار إلى غاية الرقة ، فلو سال كلام لرقته لسال ، ولو طار لفظ لخفته لطار .

وقد دخل الشعر بعض الألفاظ الفارسية على حالها فى لغتها دون تعريب أو معرّبة مصقولة ، وقد فعلوا ذلك تظرفاً حين استعملوا الألفاظ الفارسية على حالها لأن ذلك غير جائز فى العربية ، ولكن فعله منهم أبو نواس ، وابن المعتزّ كثيراً اقتداء بالأعشى ، وأمية بن أبى الصلت فى الجاهلية ، وقد فعلا ذلك لأن

الأول أكثر من الرحلة إلى بلاد الفرس ومدح ملوكها وأمية قد طال نظره فى كتب الدين ، فانتقلت عدواها إلى لغة شعره .

وأما استعمال الألفاظ بعد تعريبها فتلك شرعة أبيحت فى العربية منذ قديم ، وكثرت فى هذا العصر فى شعر وغيره لأنهم لما رأوا مسميات ولم يجدوا لها ألفاظاً عربية استعاروها من اللغات الأخرى ، وأجروها على مثال ألفاظهم ، فصارت عربية بالتعريب ووقع منها كثير فى كتب العلم والأدب والشعر وسواه .

فمن التظرف باستعمال اللفظ الأعجمى بعجمته قول أبى نواس :

أَلْبَسْتُ كَفِّى دَسْتَبَانًا مُشْعَرًا فَرْوَةَ سِنْجَابٍ تُؤَامًا أَوْبَرَا

وقول إبراهيم الموصلى :

إذا ما كنت يوما فى شجاها فقل للعبد يسقى القوم بَرَّا

فإن السقى مكرمة ومجد ومَدْفأَةٌ إذا ما خفت قُرَّا

والبَرّ : لفظ فارسى معناه ملآن .

وقول العَمَّانىّ يصف من وقف بين الآساد :

لما هوى بين غِياضِ الأُسْدِ وصار فى كف الهِزَبْرِ الوَرْدِ

* آلى يذوق الدهر آبَ سَرْدِ *

وآب سرد : هو الماء البارد .

وأمّا الألفاظ المعربة فقد كثرت بداعى الحاجة إليها فى الدلالة على مسمياتها مثل آنسون فى قول القائل :

يا طبيباً بالآنَسُون يداوى ليس مابى يزول بالآنَسُون

داوِنى يامُعَذِّبى باسم قوم أىّ وقت ذَكَرْتَهُمْ آنَسونى

وقول ابن المعتزّ :

سقيا لروضات لنا من كل نورٍ حاليه

عيون آذَرْيُونِها للشمس فيها كاليه
مداهنٌ من ذهب فيها بقايا غاليه

وقد وردت ألفاظ كثيرة مثل ، مِهْرَجان ، ونَيْرُوز ، وبَرْكَار ، ولَوْزِينَج ، وجَوْزِينَج ، فلا نطيل بذكرها .

أما أسلوب الشعر فقد رق برقة ألفاظه ، وحسن بالإكثار من التشبيه والاستعارة ، والعناية بالمحسن البديعى . وأول من التفت إليه ، واستكثر منه (لأنه قبل ذلك فى القرآن الكريم ، وقديم كلام العرب) بشار ، وإبراهيم بن هرمة ، ثم مسلم وأبو نواس ثم أبو تمام والبحترى ، ثم ابن المعتز ، وكل طبقة من هؤلاء تزيد على سابقتها ، وتستكثر من استعمال البديع ، و بعضهم يغلو كأبى تمام فيغض فى بعض الأحيان من جمال شعره . وآخر من انتهى إليه الإبداع والاكثار مع السلامة من السقوط هو ابن المعتز ، ثم جاء بعده قوم توسعوا فى البديع ، وألحوا فى المحسنات خصوصاً فى عصر بنى بويه ، ولكنهم كانوا إلى السلامة أقرب . ثم غض البديع من محاسن القول فيما بعد عصر بنى بويه كما كان الشأن فى الكتابة .

ومن المحسنات التى أكثروا منها الإشارة إلى مصطلحات العلوم مثل قول أبى نواس :

تَأَمَّلُ العين منها محاسنا ليس تَنْفَدْ
فبعضها قد تناهى و بعضُها يتجَدَّدْ
والحسن فى كل عضو منها مُعَادٌ مُرَدَّدْ

وقول القاضى شرف الدين المقدسى موجها فى قواعد الفقه :

أَحْجُجْ إلى الزَّهْر لتَحْظَى به وارم جِمَارَ الْهَمِّ مُسْتَنْفِرَا
من لم يَطُفْ بالزَّهْرِ فى وقته من قبل أن يُحْلَق قد قَصَّرَا

وقول أبي الفتح البُسْتي :

عُزِلْتُ ولم أُذْنِبْ ولم أكُ جانياً　　وهذا لإنصاف الوزير خِلَافُ

حُذِفْتُ وغيري مُثْبَتٌ في مكانه　　كأنّيَ نُونُ الجَمْعِ حين يُضاف

وقال أبو نَصْرٍ أحمدُ بن يوسف :

ولِي غُلَامٌ طال في دِقَّةٍ　　كخَطِّ إقْليدِسَ لاعَرْضَ لَهْ

وقد تناهى عقله خِفَّةً　　فصار كالنقطة لا جُزْءَ لَهْ

وقال آخر :

محاسنه هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ　　ومِغْنَاطِيسُ أفئدةِ الرِّجَالِ(١)

وقال آخر :

مسألة الدَّوْرِ جرت　　بيني وبين من أُحِبْ

لولا مشيبي ما جفا　　لولا جَفَاهُ لم أَشِبْ

وقول البستيّ :

قد غَضَّ من أَمَلِي أنّي أرَى عَمَلِي　　أَقْوَى من المُشْتَرِي في أَوَّلِ الحَمَلِ

وأنَّنِي راحلٌ عما أُحاوِلُهُ　　كأنني أستمدُّ الحظ من زُحَلِ

وكذلك الجناس أكثروا منه وعلى نسبة الكثرة في أقسامه في علم البديع تجد أمثلة كثيرة ، ولكننا نقتصر على بعضها ، فمن المطرف قول البحتري :

فإنْ صَدَفَتْ عنا فَرُبَّتَ أَنْفُسٍ　　صوادٍ إلى تلك الوُجُوهِ الصَّوَادِفِ

ومن المقلوب قول العَبّاس بن الأحْنَف :

حُسامُكَ فيه للأحْبَابِ فَتْحٌ　　ورُمْحُكَ فيه لِلأَعْدَاءِ حَتْفُ

---

(١) الهيولى : الأصل وهو في الأصل القطعة ، وشبه به الأوائل طينة العالم . وهو في اصطلاحهم موصوف بما يصف به أهل التوحيد الله سبحانه وتعالى من أنه موجود بلا كمية ولا كيفية ولم يقترن به شيء من سمات الحدوث ثم حلت به الصنعة واعترضته الأعراض فحدث منه العالم.

ومن جناس التركيب قول البُسْتِيّ :

إِذا مَلِكٌ لم يكن ذَاهِبَهْ   فدَعْهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَهْ

وقول شَمْسَوَيْهِ المصرى فى غلام يبيع القَرَانى :

قُلْتُ للقلب مادهاك أجبنى   قال لى بائع القَرَانِى قَرانِى

ناظراه فيما جَنَى ناظِرَاه   أو دَعَانى أَمُتْ بِمـا أَوْدَعانِى

وقال البُسْتِيّ :

كلُّـكم قد أخذ الجا   مَ ولا جامَ لنا

ما الذى ضرَّ مُدير الـــجام لو جاملنا

وقوله :

إلى حتفى سعى قدمى   أرى قدمى أراق دمى

وقد أولع المتأخرون من أهل هذا العصر بالنوع البديعى المعروف بالقلب ، وهو المسمى أيضاً (مالا يستحيل بالانعكاس) ، وهو أن يكون عكس البيت ، أو عكس شطره كطرده ، ولصعوبة مركب هذا النوع لم يسلم من أمثلته إلا قليل ، وقد انعقد الإجماع على أن أبلغ الشواهد عليه قول الأَرَّجانىّ :

مودته تدوم لـكل هَوْلٍ   وهَلْ كلٌّ مودته تدوم

ومن الشواهد المقبولة عليه قول بعضهم :

عُجْ تَنَمْ قُرْبَكَ دَعْدٌ آمنا   إنمـا دَعْدٌ كَبرْقٍ مُنْتَجَعْ

ومما ألحوا فيه أيضاً فخرجوا عن الجادة ذلك النوع البديعى المسمى لزوم مالا يلزم ، وهو التزام حرف قبل الروىّ ، وما يقع من هذا الباب لمتقدم فهو غير مقصود ، أما المتأخرون فقد قصدوا عمله وأكثروا منه حتى إن أبا العلاء المعرى عمل فى ذلك ديوانا كاملا يسمى « اللزوميات » .

ومنه قوله :

كن كيف شئت مُهَجَّناً أو خالصاً وإذا رزقت غِنًى فأنت السَّيِّدُ
واْصمُتْ فما كثر الكلام من امرئ إلا وقالوا إنه مُتَزَيِّدُ

ويلحق به : مايختبر به الأدباء مواهبهم ويشحذون به قرائحهم من التزام حروف جميعها مهمل أو معجم أو ما لاتنطبق فيه الشفتان أو مافى كل كلمة منه همزة أو حروفها كلها منفصلة أو ما يجمع به حروف المعجم كلها فى بيت واحد ، إلى غير ذلك مما استهلك المعنى وجنى على الأسلوب فلم ينظر الشاعر بعد تحقيق وجه من تلك الوجوه فى كلامه إلى حسن تعبير ، أو وضوح دلالة ، أو صلاحية كلمة لموضعها إلى غير ذلك .

وإننا من باب الفكاهة نروى بعض أمثلة من هذا .

فمما جميع الحروف فيه مهملة قول الخطيرى الوراق :

صُدُودُ سُعَادٍ أَحْدَرَ الدَّمْعَ مُرْسَلاً وأَسْأَرَ حَرًّا لم أُحَاوِلْهُ أَوَّلاَ

ومما لا تنطبق فيه الشفتان :

هأنذا عارى الجَلَدْ أسهرنى الذى رَقَدْ[1]
آه لعين نظرت إلى غزال ذى غيد

ومما كل كلمة فيه مهموزة :

بأبى أغيدٌ أذاب فُؤادى إذ تَنَاءى وأَظْهَرَ الإِعْرَاضَا

ومما ليس فيه حرف متصل بآخر :

زارَ دَاودُ دارَ أَوْرَى وأَرْوَى ذاتُ دَلٍّ إذا رَأَتْ دَاوُدا

ومما جمع حروف المعجم فى بيت ، قول أبى جعفر اليزيدى :

ولقد شَجَتْنِي طَفْلَةٌ بَرَزَتْ ضُحًى كالشَّمْسِ خَثْماءُ العِظامِ بِذِي الْغَضَى[2]

---

(١) الجلد (بالكسر أو بالتحريك) : المسك من كل حيوان .

(٢) طفلة (بالفتح) : رخصة ناعمة . خثماء : عريضة العظام .

أوزان الشعر وقوافيه

نظر الخليل بن أحمد الفراهيدى فيما ورد عن العرب من الشعر ، فاستطاع أن يضبطه ، ويرجع أوزانه إلى خمسة عشر أصلا سماها بحور الشعر . وخالفه فى ذلك الأخفش ، فجعلها ستة عشر ، وكان بحر المتدارك هو الذى نفاه الخليل وأثبته الأخفش .

فكلّ ما خرج عن هذه الأوزان الستة عشر ، أو الخمسة عشر فليس بشعر عربى وما يصاغ على غير هذه الأوزان ، فهو عمل المولدين الذين رأوا أن حصر الأوزان فى هذا العدد يضيق عليهم مجال القول ، وهم يريدون أن يجرى كلامهم على الأنغام الموسيقية التى نقلتها إليهم الحضارة ، وهذه لاحدّ لها ، و إنما جنحوا إلى تلك الأوزان لأن أذواقهم تربت على إلفها ، واعتادت التأثر بها ، ثم لأنهم يرون أن كلاما يوقع على الأنغام الموسيقية يسهل تلحينه والغناء به ، وأمر الغناء بالشعر العربى مشهور ، ورغبة العرب فيه خصوصاً فى هذه المدنية العباسية أكيدة .

لذلك رأينا أن المولدين لم يطيقوا أن يلتزموا تلك الأوزان الموروثة عن العرب ، فأحدثوا أوزاناً أخرى منها ستة استنبطوها من عكس دوائر البحور . وهى :

١ — المستطيل، وهو مقلوب الطويل ، وأجزاؤه: (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين كقول القائل :

لقد هاج اشتياقى غريرُ الطَّرْف أحورْ أدير الصُّدْغ منـه على مِسْكٍ وعَنْبرْ

٢ — الممتد ، وهو مقلوب المديد ، وأجزاؤه : (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين كقول القائل :

صاد قلبى غزالٌ أحورٌ ذو دلالٍ كلما زدت حبا زاد منى نفورا

٣ — المتوافر ، وهو محرف الرمل، وأجزاؤه : (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين، ومثاله :

ما وقوفك بالركائب فى الطَّلَلْ ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

ما أصابك يا فؤادى بعـــدهم أيْنَ صَـــبْرُكَ يا فؤادى ما فعل

٤ — المتئد ، وهو مقلوب المجتث ، وأجزاؤه : (فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن) مرتين . وقد نظم منه بعض المولدين :

كن لأخلاق التصابى مستمريا ولأحـــوال الشباب مستحليا

٥ — المنسرد ، مقلوب المضارع ، وأجزاؤه : (مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن) مرتين ، وقد نظم منه بعضهم :

على العقل فعول فى كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى

٦ — المطرد ، صورة أخرى من مقلوب المضارع ، وأجزاؤه : (فاعلاتن مفاعيلن مفاعيان) مرتين كقول بعضهم :

ما على مستهام ريع بالصد فاشتكى ثم أبكانى من الوجد

ومن الأوزان التى استحدثوها ما فعله أبو العتاهية ، فقد ذكر أنه نظم على أوزان لا توافق ما استنبطه الخليل إذ جلس يوما عند قصار ، فسمع صوت المدق ، فحكى وزنه فى شعر ، وهو :

للمنون دائرا ت يدرن صرفها

حتى ينتقيننا واحدا فواحدا

فلما انتقد فى هذا . قال : أنا أكبر من العروض .

ومما ينسب إلى مسلم بن الوليد من ذلك قوله :

يأيها المعمود قد شفك الصدود

فأنت مستهام حالفك السهود

تبيت ساهرا وقد ودعك الهجود

وفى الفؤاد نار ليس لها خمود

ومن أشهر ما استحدث غير ما تقدم الفنون السبعة ، وهى : السلسلة ، والدو بيت ، والقوما ، والموشح ، والزجل ، وكان وكان ، والمواليا ، (والموشحات والأزجال من اختراع الأندلسيين وتبعهم فيها المشارقة) .

١ — فالسلسلة أجزاؤه (فعلن فعلاتن منفعلن فعلاتان) ، ومنه :

السحر بعينيك ما تحرك أوجال   إلا ورمانى من الغرام بأوجال
ياقامة غصن نشا بروضة إحسان   أيَّانَ هَفَتْ نَسْمة الدلال به مال

٢ — والدو بيت ، وهو وزن فارسى نسج على منواله العرب ، ودو بالفارسية : معناها اثنان ، أى أنه مركب من بيتين ويسميه الفرس الرباعى ولعله لاشتماله على أربعة أشطر . وأوزانه كثيرة ، وأشهرها : (فَعْلن متفاعلن فعولن فَعِلن)[1] مرتين ، ومنه قول ابن الفارض .

روحى لك يازائر الليل فِدَا   يامؤنس وَحْدَتِى إذا الليل هَدَا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا   لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

وهو كما ترى متحد القوافى فى جميع مصاريعه ، فإن اختلفت الثالثة منها سمى أعرج مثل قول شرف الدّين بن الفارض :

أهوى رَشَأً كُلّ أسَى لى بعثا   مذ عاينه تصبرى ما لبثا
ناديت وقد فَكَّرْتُ فى خلقته   سبحانك ما خلقت هذا عبثا

٣ — القوما : اخترع هذا الفن البغداديون القائمون بالسحور فى رمضان ، واسمه مأخوذ من قول بعضهم لبعض (قوما نسحر قوما) ، وقد شاع هذا الفنّ ، ونظموا فيه الزّهْرِىّ والخمرى والعتاب وسائر الأنواع ولغته عامية ملحونة ووزنه (مستفعلن فَعْلانْ) مرتين .

---

(١) قال ابن غازى فى ضبطه :

دوبيتهم عروضه ترتجل   فعلن متفاعلن فعولن فعلن

وأوّل من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر ، وكان يطرب له فجعل له عليه وظيفة كل سنة ، ولما توفى كان ابنه ماهراً فى نظم القوما ، فأراد أن يعرفه الخليفة ليجرى على مفروضه ، فتعذر عليه ذلك إلى رمضان ، ثم جمع أتباع والده ، ووقف أول ليلة من تحت شرف القصر وغنى القوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة له وطرب ، فلما أراد الانصراف قال :

يا سـيد الساداتْ   لَكْ بالكرم عادات

أنا ابن أبو نقطه   تعيش أبويا مات

فخلع عليه الخليفة ، وجعل له ضعف ما كان لوالده .

٤ — الموشحات : اخترعها الأندلسيون ، وأول من نظمها منهم مُقَدَّم بن مَعَافر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث ، وقد كسدت هذه الصناعة فى أول الأمر حتى نشأ عُبادة القَزَّاز المتوفى سنة ٤٣٣ ﻫ ، فأجاد فيه وانتقل هذا الوزن إلى المشرق فنسج المشارقة على منواله ، وأوزانه كثيرة منها : (مستفعلن فاعلن فعيلْ) مرتين مثل :

يا جيرة الأبرق اليمان   هل إلى وصلكم سبيل

ومنها : (فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن) مرتين مثل موشحة ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ ﻫ :

كللى . . . . . .   يا سحب تيجان الربا بالحلى

واجعلى . . . . .   سوارك منعطف الجدول

٥ — الزجل : وقد اخترع هذا الفنّ بالأندلس بعد أن نضجت الموشحات وتداولها الناس بكثرة حركت نفوس العامة ، فنسجوا على منوال الموشح بلغتهم الحضرية ، وقد كثرت أوزانه حتى قيل صاحب ألف وزن ليس بزجال . وأول من اخترعه رجل يقال له راشد ، ولكنه لم يظهر فيه رشاقته كما أبدع فيه بعده ابن قُزْمَان

المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، ومن قوله فيه :

وعريش قام على دكان   بحـــال رواق
وأســد ابتلع ثعبان   فى غلــظ ساق
وفتح فمو بحال إنسا   ن فيـــه الفُوَاق
وانطلق يجرى على الصَّفَّاح   ولــقى الصّــباح(١)

٦ — وَكان وكان : نظم اخترعه البغداديون ، وسمى بذلك لأنهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات .

فكان قائله يحكى ما كان حتى ظهر الإمام الجوزى والواعظ شمس الدين فنظما منه الحكم والمواعظ ، ويصاغ معرب بعض الألفاظ على وزن واحد وقافية واحدة ولا تكون قافيته إلا مردوفة (ساكنة الآخر وقبله حرف ساكن) ومثاله :

قمْ يا مقصرْ تضرعْ   قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجرى الجــوارى   فى البحر كالأعــلام

٧ — المواليا : هو من الفنون التى لايلزم فيها مراعاة قوانين العربية ، وهو من بحر البسيط لولا أن له أضربا تخرجه عنه .

وقد ذكروا فى سبب نشأته أن الرشيد لما نكب البرامكة أمر ألا يرثوا بشعر ، فرثتهم جارية بهذا الوزن ، وجعلت تنشد وتقول : يا مواليا ليكون ذلك منجاة لها من الرشيد لأنها لا ترثيهم بالشعر المنهى عنه .

وهو فى الاصطلاح ثلاثة أنواع : رباعى ، وهو ما كان أشطر بيتيه مصرعة مثل قول جارية البرامكة :

يا دار أين الملوك أين الفــرس   أين الذين رعــوها بالقنا والترس

---

(١) الصفاح : حجارة رقيقة عريضة والمفرد صفاحة . ولقى الصباح : يريد أن الماء فى ابيضاضه كأنه الصباح .

قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وأعرج: وهو ما اختلف مصراع منه عن الثلاثة الباقية مثل قول بعضهم فى الوعظ :

يا عبد إبكى على فعل المعاصى ونوح هم فين جدودك أبوك آدم و بعده نوح

دنيا غروره تجى لك فى صفة مركب ترمى حمولها على شط البحور وتروح

ونعمانى مثل قول بعضهم :

الأهْيَف اللى بسيف اللحظ جارحنا بيده سقانا الطلا ليلا وجارحنا

رمش رمى سهم قطع به جـــوارحنا آهين على لوعتى فى الحب يا وعدى

هجره كوانى وحيرنى على وعدى يا خل واصل ووافى بالمنى وعدى

* من حر هجرك ومن نار الجوى رحنا *

⁂

إن الذى دعاهم إلى الإفلات من قيود الوزن ، (وهو على زعمهم ضيق الأوزان فى الشعر العربى) قد دعاهم مثله إلى الإفلات من قيود القافية . ذلك بأن الشعر العربى إذا زاد المقول فيه على بيت واحد وجب أن يتحد مع الأصل فى الوزن والقافية ، ولم يعهد عن العرب القدماء أنهم قالوا بيتين أو أكثر فى معرض واحد إلا جاءوا بذلك من بحر واحد ، وجعلوا أواخر الأبيات حرفاً واحداً مع ما اشترطوا فى هذه الأواخر من شروط مجموعها هو علم القوافى .

حقًّا إن هذا إذا نظرنا إليه نظرة عامة نراه التزامًا شـــديداً لم تشترطه لغة غير العربية . فأكثر اللغات يكفى فيها شرط الوزن مع خلاف بين اللغات واللغة العربية فيما يراد بهذا الشرط أيضاً .

ولــكننا ننظر إلى العربية فى سابق عهودها فنجدها قد نهضت بجميع أغراض القول مع اشتراط الوزن والقافية ، وكان أكثر كلام العرب شعراً ، ولم يعرف أن أحدا

منهم شكا من ذلك ، أو تبرم به ، أو حاول الخروج عليه لا فى جاهلية ولا إسلام حتى كان العصر العباسى .

فإذا كان بعض الشعراء فى العصر العباسى قد تبرم بهذين القيدين ، فليس العيب عيب اللغة ، ولكنه عيب من يحاول ما لا يستطيع ، هو عيب من لا يستكمل الوسائل ، ثم يريد الطفور إلى الغايات . وما كان لنا أن نتابع هؤلاء الباغين على العربية الذين يريدون أن يتحيفوا جمالها من أطرافه فننادى معهم بطرح هذه القيود ، فإنها ليست كما ظنوا قيود منع وإرهاق ، ولكنها حجز زينة ، ومعاقد رشاقة ، ونظام كأنه نظام فريد لا يحسن إلا إذا روعى فيه التناسق والتناظر .

ومن أمثلة هذه المحاولة المزرية بقدر الشعر ما أنشد القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن قول بعضهم :

رب أخ كنت به مغتبطا   أشد كفى بعرى صحبته

تمسكا منى بالود ولا   أحسبه يزهد فى ذى أمل

ولكن هذا الناعق لم يجد من يتابعه ، لأن الأذن لا ترتاح إلى صنيعه ، ولكنهم قبلوا من ذلك نوعًا سموه المزدوج ، وهو أن يؤتى ببيتين من مشطور أىّ بحر مقفيين و بعدهما غيرهما بقافية أخرى ، وهكذا . وقد احتاجوا إلى ذلك ، وأكثروا منه فى نظم القصص الطويلة والحكم والأمثال ومسائل العلوم ، مما لا يراد به إلا مجرد الضبط لسهولة الحفظ ، وحرموا هذا النوع أن يسمى قصيدة مهما طال . وأول من نظم فيه بشار وأبو العتاهية ، ثم تتابع عليه الشعراء ، ومن مزدوجة لأبى العتاهية فى الحكم ، وقد سماها ذات الأمثال وله فيها أربعة آلاف مثل ، قوله :

حسبك مما تبتغيه القوت   ما أكثر القوت لمن يموت

الفقر فيما جاوز الكفافا   من اتقى الله رجا وخافا

هى المقادير فلمنى أو فذر   إن كنت أخطأت فما أخطا القدر

لكل ما يؤذى وإن قلّ ألم   ما أطول الليل على من لم ينم

ما انتفع المرء بمثل عقله   وخير ذخر المرء حسن فعله

من جعل النمام عينا هلكا   مبلغك الشر كباغيه لكا

ما عيش من آفته بقاؤه   نغص عيشاً كله فناؤه

ما زالت الدنيا لنا دار أذى   ممزوجة الصفو بأنواع القذى

من لك بالمحض وليس محض   يخبث بعض ويطيب بعض

إن الشباب حجة التصابى   روائح الجنة فى الشباب

ومن هذا النوع ألفية ابن مالك ، وما على شاكلتها من متون العلوم .

ومما استحدثوه فى القافية أيضاً نوع يسمى المسمط ، وهو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع ، ثم يأتى بأربعة أقسمة من غير قافيته ، ثم يعيد قسماً واحدا من جنس ما ابتدأ به وهكذا إلى آخر القصيدة ، وقد نسبوا إلى امرئ القيس قوله من هذا النوع :

تَوَهَّمْتُ من هندٍ مَعَالِمَ أطْلالِ   عَفَاهُنَّ طُولُ الدَّهْرِ فى الزمنِ الخالى

مَرَابعُ من هِنْدٍ خَلَتْ ومَصَايِفُ   يَصيحُ بمَغْناها صَدًى وعَوَازِفُ

وغَيَّرَها هُوجُ الرياحِ العَوَاصِفُ   وكُلُّ مُسِفٍّ ثم آخرُ رَادِفُ

* بأسْحَمَ من نَوْءِ السِّما كَيْنِ هَطَّالِ *

وقد يكون بأقل من أربعة أقسمة وبلا بيت مصرع مثل قول بعضهم :

غزالٌ هاج لى شجنا   فبتُّ مكابداً حَزَنَا

عَميدَ القلبِ مُرْتَهَنا   بذِكْرِ اللهوِ والطَّرَبِ

سَبَتْنِى ظَبْيَةٌ عُطُلُ   كأن رُضابها عَسَلُ

يَنُوءُ بخَصْرِها كَفَلُ   ثقيلُ روادفِ الحَقَبِ

كذلك أحدثوا فيها المخمس ، وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة كلها من وزن واحد وخامسها بقافية مخالفة للأربعة قبله ، ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية

للأقسمة الأربعة الأولى ، ويتحد القسيم الخامس مع الخامس من الأولى فى القافية كقول الشاعر :

ورقيب يردد اللحظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا
ساحر الطرف مذ جنى الخد وردا إن يوما لناظرى قد تبدى

* فتملى من حسنه تكحيلا *

وتصدى من فحشه فى استباقِ يمنع اللحظ من جنى واعتناقِ
أيأس العين من لِحاظ اعتناقِ قال جفنى لصِنْوه لا تلاقِ

* إن بينى و بين لقياك مِيلا *

المولدون أو المحدثون

يراد بالمولدين فى الاصطلاح العام للأدب هؤلاء الشعراء الذين نشئوا فى العصر العباسى ، وهم أيضاً المحدثون . وسبب تسميتهم مولدين أنهم من الجيل الذى لم تخلص أنسابه بل اختلطت ، فكان من الناس الهجين والمقرف ، بعد أن كانوا فى القديم عربًا خلصاً ، ليس فى نسبهم ما هو غير عربىّ .

فالمولد اسم لكلّ من نشأ غير خالص العربية ، ثم صار فى اصطلاح الأدب كل من قال الشعر من أهل العصر الذى كثر فيه هؤلاء المولدون فى الأنساب ولو كان عربيًا قحًا ، وكلمة محدث قريبة المعنى من هذا ؛ لأن معناها الذى جد وحدث بعد الأصل .

على أنك واجد من بعض رواة الأدب تشددا فى اعتبار المولد من الشعراء ، فهذا أبو عمرو بن العلاء يقول عن طبقة جرير والفرزدق : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا برواية شعره ، وهو الذى جالسه الأصمعى ثمانى سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى .

وقريباً منه كان الأصمعى فى التعصب للشعر القديم . ولكنه كان أقرب إلى الانصاف ، فقد روى عنه أنه كان يستحسن أبيات أبى نواس ، « ودار ندامى عطلوها وأدلجوا » وقد مرّ بك أنه عاب النابغة فى قوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقال لو أن قائلا قال إن النَّمَرِىّ أحسن من النابغة فى قوله :

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها لخلتك إلا أن تصد ترانى

لوجد إلى ذلك سبيلا ، ولعل كل جديد يجرى عليه ما جرى على جديد الشعر فى العصر العباسى ، فقد تعصب عليه قوم حتى أعماهم التعصب عن محاسنه ، وحتى كان الشعر يعجبهم قبل أن يعرفوا قائله فينشطون لكتابته وروايته ، فإذا ما علموا أنه لمحدث ألغوا حسنه ومزقوا صحيفته كما رووا عن ابن الأعرابى أنه عرضت عليه أرجوزة أبى تمام اللامية التى مطلعها .

وعاذلٍ عَذَلْتُهُ فى عَذْلِهِ فظن أنِّى جاهلٌ من جَهْلِهِ

لبستُ رَيْعانى فَذَرْنِى أَبْلِهِ ما غَبَنَ المغبونَ مِثْلُ عَقْلِهِ

وقيل له إنها لفلان من شعراء العرب فاستحسنها غاية الاستحسان وقال هذا هو الديباج الخُسْرَوانىّ[1] ، ثم استكتبها فلما أنهاها قيل له هى لأبى تمام فقال من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ثم ألقى الورقة من يده وقال : ياغلام خرق ، خرق .

ويبلغ من آخرين أن يهجنوا القديم و يعملوا على هدمه و يبالغوا فى الزراية عليه كما فعل أبو نواس فى تهكمه بمبادئ القصائد فى كلام الجاهليين ومن بعدهم حتى حمل الناس على تكسير هذه القيود والإفلات منها .

ولكن الاعتدال فى الحكم هو الذى يصادف من العقلاء ارتياحا، وقد اعتدل كثير من النقدة المتقدمين كابن قتيبة وابن رشيق وغيرهم فحكموا أن القديم من الشعر يجب أن يكون مقدما من ناحية الجزالة وسلامة العبارة وأنه مرجع النحوىّ فى شواهده ،

---

(١) نسبة إلى خسراوية ، وهى بلدة بواسط.

واللغوى فى معانى ألفاظه ومبانيها ودلالات تراكيبها ، وأن الجديد المحدث يرجح فى الميزان بعذوبة ألفاظه ورقتها وحلاوة معانيه وشدة ترابطها، وقد حكم ابن رشيق فى كتابه «العمدة» بأن مثل القديم والمحدث كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه . فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

محاسن المولدين فى الشعر

تذاكر الناس يوما فى مجلس محاسن الدنيا ونزهها ، وأطالوا فى ذلك وكان فيهم ابن دريد الشاعر الراوية اللغوى فقال لهم قد أكثرتم من ذكر محاسن الأبصار فأين أنتم من محاسن البصائر ؟ فقالوا له وما هى ؟ قال شعر المحدثين ، وكتب الجاحظ ، ونوادر أبى العيناء .

والحق أن شعر هؤلاء مجال للروح وقد أحرزت به العربية فضيلة كبرى فصار بها ألذ الآداب لما حواه من محاسن لاتنفد .

فمن محاسنهم تلك المعانى التى أزاحوا عنها حجب القلوب ، فكانت درا انصدعت عنه أصدافه ، أوزهرا تفتحت أكامه ولم يقفوا بها عند حدّ بل تنافس الشعراء فيها ، حتى يؤثر عن أحدهم ما يشرف به عند التفضيل والموازنة . ويتمثل ذلك فى المعانى التى اخترعوها ، والمعانى التى تناولوها من القدماء ، فولدوا فيها حتى استبدوا بأغلبها وظهر فيها فضل الحضارة على البداوة ، وميزة الثقافة على الجهالة . فما بقى معنى تعرض له جاهلى أو إسلامى إلا شرف بتناول هؤلاء له وإبرازه واضحا جليا . فانظر إلى توليد أبى نواس فى وصف الدمن وهو المعنى الذى أكثر الأولون منه ، ولكن حضارة

أبى نواس أبت إلا أن يحدث فيه ما أحدثته الحضارة فى نفسه . قال :

لِمَنْ دِمَنٌ تزدادُ حُسْنَ رُسُومِ ... على طُولِ ما أَقْوَتْ وطِيبَ نَسِيمِ

تجافى البِلَى عنهن حتى كأنما ... لَبِسْنَ عَلَى الإِقْوَاءِ ثَوْبَ نَعِيمِ

وقال امرؤ القيس يصف حلىّ امرأة .

كأنّ على لَبَّاتِهَا جَمْرَ مُصْطَلٍ ... أصابَ غَضاً جَزْلاً وَكُفَّ بأَجْزَالِ

فأخذه ابن المعتز ، وتصرف فيه أبدع تصرف فقال فى وصف الثغر :

أَلْثِمه فى الدجى وبرق ثنا ... ياه يرينى مواضع اللَّثْمِ

أما اختراع المحدثين للمعانى فذلك مالا يحده حصر . وقد سبق من أمثلته كثير . ومن غير الذى ذكرناه قول أبى نواس فى الخمر وهو ما لم يسبق إليه ولا حام حوله حائم قبله :

فى كؤوس كأنهن نُجُومٌ ... دائراتٌ بُرُوجُها أيدينا

طالعاتٌ مع السُّقَاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فينا

ومن المعانى التى استفادوها بمدنيتهم واطلاعهم على العلوم ، تلك الحكمة التى شاعت فى أقوالهم واشتهر بها كثير منهم : كصالح بن عبد القدوس ، وأبى العتاهية الذى يؤثر له فيما أثر من حكمته أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة ، وقد مر بك بعض أبياتها ، وأبى تمام ، والمتنبى اللذين انبثت حكمهما فى شعرهما وفصلت بها أقوالهما . وليس ذلك بغريب على قوم اطلعوا على فلسفة سقراط وأرسطو ووعوا كل ما أثر عن فلاسفة اليونان وحكماء الهند والفرس . وللمروزى أحمد بن محمد أبى الفضل السكرى مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس ومنها قوله :

من رام طمس الشمس جهلاً أخطا ... الشمس بالتطيين لا تُغَطَّى

أحسن مافى صفة الليل وُجِد ... الليل حبلى ليس يُدرى ما تلد

من مثل الفرس ذَوِى الأَبْصَارِ ... الثوب رهن فى يد القَصَّار

إن البعير يُبْغِض الخشاشا   لكنه فى أنفـه ما عاشا[١]

نال الحمار من سـقوط فى الوحل   ما كان يهوى ونجا من العمل

من لم يكن فى بينه طعام   فماله فى بيتـه مقام

كان يقال من أتى خِوانا   من غير أن يدعى إليه هانا

ومما يتجلى للعيان من محاسن المولدين ما جرى على أيدى مجيديهم من العناية بالبديع ، وليس ينكر أحد أثره فى النفس وحسن موقعه فى الكلام ، إذا أحكم أمره فجاء مساوقا للطبع غير بادى الكلفة . فانظر إلى الطباق فى قول أبى تمام :

ولكننى لم أَحْوِ جمعا مُوَفَّرًا   ففزت به إلا بشَمْلٍ مُبَدَّدِ

ولم تعطنى الأيام نَوْمًا مُسَكَّنا   أَلَذُّ به إلا بِنَوْمٍ مُشرَّدِ

وانظر إلى قول مسلم بن الوليد يهجو وقد دق معناه ولطف وارتاحت النفس إلى حسن لفظه ، وما سبب حسنه إلا المقابلة والطباق اللذان اجتلبهما المعنى ودعا إليهما حسن تنسيق القول ، قال :

أما الهجاء فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونه   والمَدْحُ عنك كما عَلِمْتَ جليلُ

فاذهب فأنت طَلِيقُ عِرْضِكَ إنه   عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأَنْتَ ذَليلُ

وانظر إلى حسن التعليل فى قول ابن المعتز ويروى لابن الرومى :

قالوا اشتكت عَيْنُهُ فقلتُ لَهُمْ   من كثرة القَتْلِ مَسَّهَا الوَصَبُ

حمرتها من دماء من قتلت   والدَّمُ فى النَّصْلِ شاهدٌ عَجَبُ[٢]

وقول مجير الدين بن تميم وقد كتب البيتين مع وردة لم تنفتح وأرسلها إلى معشوق :

سَبَقَتْ إليك من الحدائقِ وَرْدَةٌ   وأَتَتْكَ قَبْلَ أَوَانِها تَطْفِيلاَ

طَمِعَتْ بِلَثْمِكَ إذْ رأَتْكَ فَجَمَّعَتْ   فَمَها إِلَيْكَ كَطَالِبٍ تَقْبِيلاَ

---

(١) الخشاش : مايوضع فى أنف البعير ليسهل قياده .

(٢) الأمر العجب : هو ما جاوز حد العجب .

وقال ابن الرومى فى تعليل بكاء المولود عند ولادته :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

وإلاَّ فما يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا لَأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ

إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا مُهَدَّدُ(١)

وقد حسنت المبالغة فى شعر العباسيين الذين لم يستأسروا للصنعة فيقعوا فى الإحالة وهم كثيرون خصوصاً فى المدة الأولى . والمبالغة هى التى يعظم بها الحقير. ويهون الهائل. وهى ما دامت مقبولة فى الذوق سائغة فى التخيل ، جمال لا يعد له جمال . وردت فى القرآن ففخم بها المعنى . قال تعالى — يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار — . فهى فى الآية حسنة سائغة لموضع يكاد من الدلالة على القرب ومشارفة الوقوع . فلم يدخل القول فى الغلوّ الممقوت أو الكذب المرذول . ومن أشعار العباسيين فى المبالغة قول البحترى فى المتوكل :

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

فانظر إلى التعليق بلو والتقييد بما فوق الوسع فإن المبالغة دخلت بهما فى باب الإمكان وفخم المعنى بذلك كل فخامة .

ومنها قول ابن الرومى فى وصف بخيل :

لو أن قصرك يا بن يوسف كله إبر يضيق بها فضاء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليَخِيط قَدَّ قميصه لم تَفْعَلِ

فانظر إلى المبالغة كيف كان أثرها فى تهويل أمر هذا البخيل وتصوير ضنه بإعارة أهون الأشياء لنبى من الأنبياء فى مقام يجود فيه البخيل وتجب المواساة . فأذا أضفت إلى ذلك وفرة ماتحت يد هذا البخيل مما لا يجتمع مثله فى ملك أحد وذكرت أنه

---

(١) استهل : بكى .

ابن المستعير كما يدل عليه ظاهر لفظ يوسف وابن يوسف علمت إلى أىّ حد صوّر لنا الشاعر بخله فاستوجب الزراية من كل مصدّق لهذا القول فيه .

وانظر إلى أبى تمام وقد وصف المعتصم بالشجاعة يوم عَمُّورِيَّةَ فبالغ ما شاء مع وقوعه فى حدود الإمكان قال :

لم يَغْزُ قومًا ولم يَنْهَضْ إلى بلدٍ   إلاّ تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ من الرُّعُبِ
لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلًا يوم الوغى لغدَا   مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فى جَحْفَلٍ لَجِبِ

ويكفى فى تصديق مثل هذا أن تطلع على التاريخ لتعلم أن من الشجعان من سلم له العدو قبل أن يتحرك لمحاربته فكان جيش الرعب هو العامل قبل جيش الهِنْدُوانيَّات والسَّمْهَرِيّات ، وأن منهم من لقى الجحافل وحده واخترق الصفوف وألقى الرعب فى قلوب الأعادى .

☆

ومن مزايا الشعر العباسى حسن الربط بين المعانى وذلك أثر لكثرتها عندهم وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . فليس فيها ذلك الشرود والتقطع البادى فى أقوال الجاهليين مثلا . وهذه الظاهرة عامة فى شعر العباسيين لرغبتهم فى الغوص على المعانى ، فلم يكن يعرض لأحدهم معنى حتى يستوفيه ويأتى على ما استطاع فيه ، فرتب المسببات على الأسباب ، وجاء بالنتائج بعد المقدمات . ومن بناء أفكارهم على هذا التنسيق البديع لم يروا من المقبول فى الذوق أن يَطْفِر الشاعر من غرض إلى غرض دون أن يمهد له بصلة تجمع الغرضين فى ناحية من نواحى التفكير ، فكان من عنايتهم بذلك نشوء النوع المسمى بحسن التخلص ، ومن أمثلته قول أبى تمام فى عبد الله ابن طاهر :

تقولُ فى قُومَسٍ قومى وقد أخذت   منا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ[1]

أَمَطْلَعَ الشمس تَبْغِى أَنْ تَؤُمَّ بنا   فَقُلْتُ كلاَّ ولٰكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ

وقوله من قصيدته التى بدأها بوصف الربيع وأولها :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهْيَ تَمَرْمَرُ   وغَدَا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

فلما أراد التخلص إلى مدح المعتصم قال :

خُلُقٌ أَطَلَّ من الرَّبيعِ كأنَّهُ   خُلُقُ الإمامِ وَهَدْيُهُ المُتَنَشَّرُ

ومن ذلك أيضاً قول أبى نواس :

تقول التى من بيتها خَفَّ مَحْمِلِى   يَعِزُّ علينا أن نراكَ تَسيرُ

أما دون مِصْرٍ للغنى مُتَطَلَّبٌ   بَلَى إن أسبابَ الغِنَى لَكَثِيرُ

فقلت لها واستعجَلَتْهَا بَوَادِرٌ   جَرَتْ فجرى مِنْ جَرْيِهِنَّ غَدِيرُ

دَعِينِى أُكَثِّرْ حاسديك بِرِحْلَةٍ   إلى بَلَدٍ فيه الخَصِيبُ أميرُ

فتًى يَشْتَرِى حُسْنَ الثَّنَاءِ بمالِه   ويَعْلَمُ أن الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

وقول المتنبى فى سيف الدولة :

خَلِيلَيَّ إِنِّى لا أَرَى غيرَ شاعرٍ   فَلِمْ منهُمُ الدَّعْوى ومِنِّى القصائدُ[2]

فلا تعجبا إنَّ السيوفَ كثيرةٌ   ولٰكنَّ سيفَ الدَّوْلَةِ اليومَ واحدُ

وتعرف فضل العباسيين فى ذلك إذا قست عملهم فيه بما كان يفعله الجاهليون من الطفور من معنى إلى معنى بلا أنسة ولا تمهيد كقول النابغة وقد خرج من وصف الليل إلى المدح :

---

(١) قومس : بلدة بأصفهان . المهرية : الإبل تنسب إلى حىّ من العرب يسمى مهرة بن حيدان . القود : جمع أقود وهو الذلول .

(٢) قال أبو الفتح ابن جنى : لو قال فكم لكان أحسن .

تَقَاعَسَ حتى قُلْتُ ليس بمنقضٍ ... وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآيِبِ
عَلَىَّ لِعَمْرٍو نعمةٌ بعدَ نعمةٍ ... لوالده لَيْسَتْ بذاتِ عَقَارِبِ[1]

أو بربط هو بالقطع أشبه كقول زهير :

دَعْ ذا وَعَدِّ القولَ فى هَرِمٍ ... خَيْرِ البُدَاةِ وسَيِّدِ الحَضَرِ

⁂

ومما يدل على سلامة أذواقهم ولطف مداخلهم عنايتهم بمطالع القصائد وخواتيمها فجعلوا المطلع دالا على القصد مشيرا إلى موضوع القول واختاروا له اللفظ المناسب للمقام : المشجى فى مقام الحزن ، المطرب فى مقام السرور والارتياح ، ليكون أول ما يقرع السمع مساعدا على النشاط داعيا إلى حسن الإقبال . ومن محاسن الابتداآت قول أبى تمام فى مدح المعتصم بعد فتح عَمُّورِيَّة .

السيفُ أصدقُ أنْبَاءً من الكُتُبِ ... فى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
بيضُ الصَّفَائحِ لا سُودُ الصَّحَائفِ فى ... مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

وقوله فى أول مرثية :

أَصَمَّ بكَ الناعى وإن كان أسمعا ... وأصبح مَغْنَى الجودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا[2]

وقصيدته المشهورة فى رثاء محمد بن حُمَيْدٍ الطُّوسِىِّ :

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأمرُ ... فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

ومن خير ما يذكر فى هذا الباب ابتداء المتنبى وقد لقى كافورا بعد فراق سيف الدولة فإنه جمع المعنيين فى قوله فى بدء القصيدة :

فراقٌ ومن فارقتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ ... وأَمٌّ ومَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ

---

(١) العقارب : النمائم .

(٢) المغنى : المنزل الذى أقام به أهله ثم ظعنوا أو هو عام . البلقع : القفر .

ومثله وإن كان المقام أدق والجمع بين المعنيين أصعب قول ابن نَباتة المصرى يهنئ الملك الأفضل صاحب حماة . ويعزيه عن والده الملك المؤيد ، وهى من غرر قصائده :

هناءٌ محا ذاكَ العَزاءَ المُقَدَّمَا ... فما عَبَسَ المحزونُ حَتَّى تَبَسَّمَا

ثغورُ ابتسامٍ فى ثُغُورِ مدامعٍ ... شَبِيهانِ لا يَمْتازُ ذو السَّبْقِ منهما

تُرَدُّ مجارى الدمع والبِشْرُ واضحٌ ... كوابلِ غَيْثٍ فى ضحى الشَّمْسِ قد همى (١)

وأما الختام فقد احتفلوا فيه وقصدوا إلى أن يكون اللفظ مؤذنا بالفراغ شافيا للنفس من الحاجة إلى السماع . فراعوا فى ذلك ألا ينتهى الشاعر بمعنى لم يستوفه فإن بقاء النفوس طالبة وقد عزّ المطلب ، راغبة ولا تحقيق لرغبتها ، يعكر عليها سرورها بما مضى من القصيدة ، وينتهى بها إلى القلق وهو لا يَحْسُنُ أن يكون غاية . لذلك اختاروا للختام تلك المعانى التى تقر النفس عندها كالدعاء للممدوح فإنه غاية الغايات ، وكالحكم البالغة فإنها لاستقلالها بنفسها وجلال مكانها فى النفس تشغل السامعَ عن انتظار شىء فيتم مراد الشاعر من حسن المخرج .

ومن حسن الانتهاء قول أبى العلاء المعرى أو المتنبى (على أنه ليس فى ديوان أحدهما) :

بَقِيتَ بقاءَ الدَّهْرِ يا كَهْفَ أَهْلِهِ ... وهذا دعاءٌ للبَرِيَّةِ شامل

وقول أبى تمام فى ختام قصيدة يمدح بها أبا سعيد الطائى :

أَتَيْتُكَ لم أَفْزَعْ إلى غير مَفْزَعٍ ... ولم أَنْشُد الحاجات فى غَيْرِ مَنْشَدِ

ومَنْ يَرْجُ معروف البَعِيدِ فإنما ... يَدِى عَوَّلَتْ فى النائباتِ عَلَى يَدِى

❊

وإنهم حين دلوا على حسن ذوقهم باختيار المعانى الجليلة وسوقها فى معارضها المناسبة

---

(١) ترد مجارى الدمع : تكفكف .

والإبداع فى ترتيبها ، والإحكام فى ربطها ، لم يفتهم أن ينظروا إلى قالبها من الألفاظ فيختاروها أليق شىء بمدنيتهم ، وأول دليل على حضارتهم : لأنَ عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورقت شمائلهم فرقت عباراتهم ، وركبوا الفاره ، وأكلوا الطيب ، وذاقوا العذب وسمعوا المطرب ، فحكوا كل هذا فيما التمسوا من الكلام للدلالة على معانيهم الحضرية وأغراضهم السامية .

وإنّ فضل العباسيين على الأدب العربى لفضل واسع المدى غير مستطاع الشكر . فلو تصورنا أن الأدب ظلّ متوعر اللفظ خشن المجس فكم يكون مبلغ إقبالنا عليه ونظرنا فيه . فيد العباسيين على العربية عظيمة القدر . وإننا كما قلنا فى مقامات سابقة إنما نتقيل ظلهم ونطبع على غرارهم إذ كانت همتهم غاية الهمم وآثارهم مناط الآمال .

مساوىء المولدين فى الشعر

إذا تم شىء بدا نقصه ، وقد تم الحسن للشعر على يد المولدين فأبت سنة الله فى خلقه إلا أن يدخل عليه النقص مع الكمال من باب ، ويزوره فى إهاب . ذلك أن المعانى التى رفعت شعر العباسيين وجعلته حبيباً إلى النفوس بما فتح من أكمام الأفكار ، وجلا من عرائسها الأبكار ، تلك المعانى هى التى جنت على الشعر حين لج فيها الشعراء ، فما يزال أحدهم يدق ويمعن فى دقته حتى ينتهى إلى الاستغلاق ويحتاج قارئه إلى إعمال الفكر فى الغوص على مراده ، ومن ذلك قول بعضهم :

وعَلَّمْتَنِى كيفَ الهَوَى وجَهِلْتَهُ وعَلَّمَكُمْ صَبْرِى عَلَى ظُلْمِكم ظُلْمِى
فَأَعْلَمُ مالى عندكم فيَمِيلُ بى هَوَاىَ إلى جَهْلِى وأُعرِضُ عَنْ عِلْمِى (١)

---

(١) معنى البيتين : علمتنى بما فيك من جمال ودلّ كيف أحب ، وجهلت أنت حق الحب فلم ترحم شجوى . وقد كان صبرى على مايقع علىّ من ظلمكم سببا فى استمراركم فى هذا الظلم . وإنى لأعرف ماتنطوون عليه من إعراض عنى ولكن هواى لكم ومحبتى تجعلنى أستمر فى التعلق بكم متناسيا ما أعرفه من إعراضكم عنى وإغفالكم لشأنى .

وما زالوا يتتبعون العويص حتى انتهوا إلى الإلغاز فأكثروا منه وصار موضوع سمرهم ومجال مباراتهم قال بعضهم فى القلم :

ما غلام راكع ساجد   أخو نُحُولٍ دمعُه جارى
ملازم للخمس فى وقتها   مُعْتَكِفٌ فى خدمة البارى

وقال آخر فى الميزان :

وقاضى قُضاةٍ يفصل الحكم ساكتاً   وبالحق يقضى لا يبوح فينطقُ
قَضَى بلسانٍ لا يميل وإن يَمِلْ   على أحد الخصمين فهو مُصَدَّقُ

وقال السَّرِىُّ الرَّفَّاء فى شبكة الصياد :

وكثيرةِ الأحداقِ إلا أنها   عمياء مالم تَنْغَمِس فى ماء
وإذا هى انغمست أفادتْ رَبَّهَا   مالا ينال بأعينِ البُصَرَاءِ

وقال أبو العلاء المعرّى فى الملح :

وبيضاءَ من سِرِّ المِلاحِ مَلَكْتُهَا   فلما قَضَتْ إرْبِى حَبَوْت بها صَحْبِى
فباتوا بها مُسْتَمْتِعِينَ ولم تزل   تَحُثُّهُمُ بعد الطَّعَامِ على الشُّرْبِ

وقوله سر الملاح : السر الخالص ، والملاح جمع ملح . والإرب الحاجة .

وقول آخر فى النوم :

وحامل يحملنى   وماله شخص يرى
إذا حصلت فوقه   وهو لذيذ المتطى
سريت لا أدرى أفى   أرض سريت أم سما

وقال آخر فى الصدى :

وساكن يسكن فى الفلاة   ليس من الوحش ولاالنبات
ولا من الجنّ ولا الحيات   ولا الخيام الشعر والأبيات
ولا بذى جسم ولا حياة   كلا ولا يدرك بالصفات
بلى له صوت من الأصوات   يسمع فى الأحيان والأوقات

⁂

وكان التشبيه والاستعارة زين كلامهم لما يحملان من المعنى ويكشفان من غامضه ويقرّبان من بعيده ، فلما أمعنوا فيهما وكدوا الطبع بها أحالوا ، أو أتوا بالسخيف البارد : فمن ذلك قول أبي نواس :

بُحّ صوتُ المال مما مِنْكَ يَشْكو ويَصِيحُ

فأى شيء أبعد من جعل المال ذا صوت حتى يدّعى أنه قد بح من كثرة الشكوى والصياح .

وكذلك قول بشار يصف محبوبته وهجرها .

وجَذّتْ رِقابَ الوصل أسيافُ هَجْرِها وَقَدّتْ لِرِجْلِ البين نعلين من خَدّى

فانظر كيف جعل الوصل مقتولا والهجر سيفاً والبين ماشياً على رجلين منتعلا أديم الخدين .

وقال أبو تمام :

لا تَسْقِنِي ماءَ المَلاَمِ فَإِنّنِي صَبٌّ قد اسْتَعْذَبْتُ ماءَ بكائى

فأطلق الألسنة بعيبه حتى أرسل إليه ظريف من أصحابه قارورة ، وقال له : ابعث لنا شيئاً من ماء الملام ، وقد استثقل منه غاية الثقل ، واستبرد غاية البرد قوله :

كأنني حين جَرّدْتُ الرجاء له غَضًّا أخذت به سيفاً على الزمن

ولعل ذلك إنما جاءه من جعله الرجاء شيئاً غضا طريا كأنه فاكهة أو نحوها بعد قوله جردت ، وقد رواه صاحب الصناعتين ؟

* عَضْبٌ صببت به ماء على الزمن *

وقد حق له أن يقول بعد إيراد البيت : « ولا يكاد يرى تشبيه أبرد من هذا» .

⁂

وقد حسنت المبالغة منهم حين كانوا مقتصدين فيها ، فلما سباهم حسنها وغرهم ماتفيده من جلال وروعة تورطوا فى مقابحها فأتوا بالمحال كقول الخبز أرزى فى وصف نحوله :

ذبت من الشوق فلو زُجّ بى   فى مقلة النائم لم يَنْتَبِهْ
وكان لى فيما مضى خاتمٌ   فالآن لو شئت تَمَنْطَقْتُ بِهْ

ومنها قول المتنبى (وما أكثر مبالغاته) يمدح محمد بن زريق الطَّرَسُوسِيّ :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه   لما أتى الظلمات صرن شموسا[(١)]
أو كان صادف رأس عازَرَ سَيْفُهُ   فى يوم معركة لأعيا عيسى[(٢)]
أو كان لُجُّ البحر مثلَ يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى

و بعض هذا كفر و بعضه شبيه به . على أنك علمت من أمثلة مبالغتهم كثيرا فيما تقدم .

⁂

و بقية المحسنات البديعية التى أرقصت وأطربت منهم فى كثير من أقوالهم هى التى تجىء اليوم غامضة ممقوتة لأنهم تعمدوها وألحوا فى تعمدها ، وأكرهوا أبيها ولم يقصدوا إلى المعنى أو لم يحدُهم الغرض إلى إنشاء القول بل حدتهم الرغبة فى تحقيق مثال من هذه البديعيات ، فانظر إلى أىّ حد صار العرض جوهراً والطلاء أساسا . والغريب من أمرهم أنهم عوّلوا على الدقيق من هذه الأنواع فأكثروا من الاستخدام والتورية و بعد أن كان الاستخدام يقع بضمير واحد غالباً استطاع أن يجعله صلاح الدين الصفدى بثلاثة ضمائر فى قوله :

ورُبَّ غزالةٍ طلعت   بقلبى وهو يرعاها
نَصَبْتُ لها شِرَاكاً من   نضار ثم صدناها
وقالت لى وقد صرنا   إلى عين قصدناها
بذلت العين فاكحلها   بطلعتها ومجراها

---

(١) رأيه أى رأى الممدوح .

(٢) عازر (كهاجر) : الرجل الذى أحياه عيسى عليه السلام .

وقد اجتمع الاستخدام فى البيت الرابع ، فالعين: الفضة . والضمير فى أكحلها لها بمعنى الباصرة ، وفى طلعتها بمعنى الشمس ، وفى مجراها بمعنى معين الماء .

ومن الاستخدام قول ابن نَباتة المصرى من قصيدة فى مدح الرسول :

إذا لم تفض عينى العقيق فلا رأت   منازله بالقـــرب تبهى وتبهر

وإن لم تواصل عادة السفح مقلتى   فلا عادها عيش بمغناه أخضر

ومن التورية قول المعرى :

إذا صدق الجَدُّ افترى العم للفتى   مكارم لا تخفى وإن كَذَبَ الخالُ

وقول الحريرى فى الخمر :

يا قوم كم من عاتقٍ عانسٍ   ممدوحةِ الأوصافِ فى الأنْدِيَهْ

قَتَلْتَها لا أتَّــقِى وارثاً   يَطْلُبُ منى قَوَداً أو دِيَهْ

ومنها قول القاضى الفاضل فى محبوبه الذى نبت شاربه :

وكنتَ وكُنَّا والزمان مساعدٌ   فصرتَ وصِرْنا وهو غيرُ مساعدِ

وزاحمنى فى وِرْدِ ريقك شاربٌ   ونَفْسِىَ تأبى شِرْكَها فى المَوَارِدِ

وأما فضيلة السهولة التى ظهرت فى شعر الأوائل من شعراء هذه الدولة فقد صارت ركة وغثاثة فى شعر أواخرهم وفقدت الأساليب على أيديهم جلالها وفخامتها ، حتى اقد نظموا المعانى العامية فى الألفاظ المهلهلة . وقد سلم ذلك إلى حدٍّ ما فى شعر البهاء زهير المصرى ولكنه فى غيره دل بنفسه ، على سخفه .

ومن قول البهاء :

أنا من تسمع عنه وترى   لا تُكَذِّبْ فى غرامى خَبَرا

لى حبيب كملت أوصافـــه   لا أرى مثل حبيبى لا أرى

وقوله :

أيارسولى إلى من لا أبوح به   إن المهمات فيها يعرف الرجل

بلغ سلامى وبالغ فى الخطاب به وقبل الأرض عنى عند ما تصل

ويتصل بهذا ماذكروا من أن بعض الأدباء اطلع على ديوان صفىّ الدين الحلىّ ، فقال : لاعيب فيه إلا أنه خال من الألفاظ الغريبة فأرسل إليه صفى الدين بهذه الأبيات .

إنما الحَيْزَبُونُ والدَّرْدَبِيسُ والطَّخا والنُّقاخُ والعَطْلَبِيسُ(١)

والغَطَارِيسُ والشَّقَحْطَبُ والسَّقْـــبُ والحَرْبَصِيصُ والعَيْطَمُوسُ(٢)

والجراجيحُ والعَفَنْقَسُ والعَفْـــلَقُ والطِّرْفِسَانُ والعَسَّطُوسُ(٣)

لغة تنفِرُ المسامعُ منها حين تُرْوَى وتشمئزُّ النفوسُ

وقبيح أن يُسْلَكَ النافِرُ الوحـــشىُّ منها ويُتْرَكَ المأنوسُ

إن خير الألفاظ ماطَرِب السا معُ منه وطاب فيه الجَلِيسُ

إن قولى : هذا كَثيب ، قديم. ومقالى عَقَنْقَلٌ ، قُدْمُوس(٤)

لم نجد شاديا تَغَنَّى « قفا نبـــك» على العود إذتدار الكؤوس

أترانى إن قلت للحِبّ يا عِلْـــقُ دَرَى أنه العزيز النفيس

أو تراه يَدْرى إذا قلت خَبّ الـــعِير أنى أقول سار العيس

درست هذه اللغات وأضحى مذهبَ الناسِ ما يقول الرئيس

إنما هذه القلوب حـــديدٌ ولذيذُ الألفاظ مِغْنَاطِيسُ

وقد علمت من قول صفىّ الدين مقدار إزرائه بالألفاظ إذا لم تكن مما ارتضاه أهل

---

(١) الدردبيس : الداهية والشيخ والعجوز . الطخا (بالخاء) : المنبسط من الأرض . وبالخاء والمد : السحاب المرتفع . النقاخ : البارد العذب . العطلبيس : الأملس البراق .

(٢) الغطاريس : جمع غطريس وهو الظالم المتكبر . الشقحطب : الكبش له قرنان أو أربعة كل منها كأنه شق حطب . السقب : ولد الناقة ، أوساعة يولد ، أوخاص بالذكر . الحربصيص : الحلىّ . العيطموس : التامة الخلق من الإبل والنساء .

(٣) العفنقس : العسر الاخلاق . العفلق : الفرج الواسع الرخو ، والمرأة الحمقاء . الطرفسان : القطعة من الرمل . العسطوس : شجرة كالخيزران .

(٤) العقنقل : الوادى العظيم . القدموس : القديم .

زمنه على أن هذا الأديب الناقد ربما أراد ما أردناه من خلوّ أهل العصر من الجزالة وهى كما علمت لا تقتضى الوحشية .

وقد حط من قدر الشعر على أيدى العباسيين المتأخرين أنهم ابتذلوا مصون شرفه وتعدوا جليل مقامه ، فبعد أن كان عند الأولين مجال خيال ومستراد حكمة استعانوا بوزنه ونظام قافيته على ضبط مسائل العلوم من : فقه ونحو وطب وتقويم بلدان وتاريخ . وهذا وإن كان خدمة لتلك العلوم لأنه يسهل تحصيلها بهذا التقييد لكنه إزراء بقدر الشعر وتعدّ على قدسيته .

ومن أمثلة ذلك قول الحريرى فى كتابه (ملحة الإعراب وسنخة الآداب) فى علم النحو .

باب الشرط والجزاء

هذا وإنْ فى الشرط والجزاء ... تجزم فعلين بلا امتراء
وأختها أى ومن ومهما ... وحيثما أيضاً وما وإذ ما
وأين منهن وأنّى ومتى ... فاحفظ جميع الأدوات يافتى
وزاد قوم ما فقالوا إما ... وأينما كما تلوا أياما
تقول إنْ تخرج تصادف رشدا ... وأينما تذهب تلاق سعدا
ومن يَزُرْ أزره باتفاق ... وهكذا تصنع فى البواقى
فهذه جوازم الأفعال ... جلوتها منظومة اللآلى
فاحفظ وقيت الشر ما أمليتُ ... وقس على المذكور ما ألغيتُ

ومن ذلك أيضاً قول ابن سينا من أرجوزة له فى المنطق :

الحـــد

العلم منه ماهو التصور   ومنه تصديق لشىء يخبر
ويحصل التصديق بالقياس   وقد شرحناه بلا التباس
والحد منه يحصل التصور   والرسم أيضاً منه فيه أثر
إذا أردت أن تحد حدا   فرتب الجنس القريب جدا
فإنه يحصر كل ذاتى   يكون للمحدود فى الصفات
ثم اطلب الفصول فهى الحاده   من صورة أخذتها أو ماده

وقال فى مواد المقدمات :

لا يعرف المجهول بالمجهول   وإنما يعرف بالمعقول
وإن حكمنا أن كل ماعلم   قد كان مجهولا فهذا ينتظم
بغير حد وبلا نهايه   وليس عند أحد درايه
بل عندنا المقدمات أول   منها يحاز علم ما قد يجهل
فبعضها مقدمات الحس   كظلمة الليل وضوء الشمس
وبعضها توجبها الأوهام   فإن يكن موضوعها الأجسام
وكل ماتدركه الحواس   فليس فيما أوجبته باس

وقال أيضاً فى أرجوزة الطب :

ابلع من الصابون وزن درهم   تنجو من القُوْ لَنْج غير المُحْكَمِ
وهكذا الكمون والكراويا   تأكله محمصا تداويا
وطبقك الأضراس فى التثاؤب   مأمنة منه لذى التجارب

٭

مرارة الحية سم قاتل وهو لملسوع بها يقابل
إذا سقى المسموم منها حبه نجا من السم بتلك الشربه
وإن سقى الصحيح منها ماتا فى وقته وفارق الحياتا

طبقات الشعراء العباسيين

كثر الشعراء فى هذا العصر كثرة هائلة . حتى لا يكاد يحصيهم عدّ ، لما علمت من عظم شأن الشعر واحتفال الخلفاء والأمراء به ، وكانت كثرتهم هائلة فى المدتين الأولى والثانية . ولعلهم فى الثانية (وهى مدة حكم البويهيين) كانوا أكثر لتعدد أمصار المسلمين بتعدد الدول الحاكمة المتنافسة فى العناية بالأدب وترقية أهله . ولقد بلغ من كثرتهم أن الصاحب بن عباد بنى قصراً فهنأه خمسون شاعراً . وقالوا إنه اجتمع بباب سيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع بباب خليفة من الخلفاء .

وقد اتفق فى هذه المدة أن قامت الدولة الفاطمية بمصر أيضاً فازدهرت الآداب بها ونافست مصر بلاد المشرق، فكان للشعر شأن عظيم فى كل مكان .

وليس يهمنا حصر الشعراء فى هذا العصر الطويل المدى الذى دام خمسة قرون أو تزيد ، ولكننا نذكر طبقات الشعراء فيه . والطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين فى الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا فى المنزع أو يدخلوا فى مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك .

والطبقة الأولى من شعراء هذه الدولة هم مخضرمو الدولتين الذين أدركوا شطرا

من عصر بنى أمية ثم أظلتهم الدولة العباسية . ومن هؤلاء إبراهيم بن هَرْمة ، و بشار ابن بُرْد سنة ١٦٧ ، والحسين بن مُطَيْر ، وأبو حية النّميرى ، وابن الخياط المكىّ ، وسَديف بن مَيْمون ، وأبو الهندى ، وحماد عَجْرَد سنة ١٦٨ ، ومُطيع بن إياس سنة ١٦٩ ، وصالح بن عبد القُدّوس سنة ١٦٧ ، وأبو دُلامَة سنة ١٦١ ، والسّيد الحِمْيَرىّ سنة ١٧٣ ، ومروان بن أبى حَفْصة سنة ١٨١ ، ومن رُجّاز هذه الطبقة أبو نُخَيلة السّعْدى ، ورؤبة بن العَجّاج سنة ١٤٥ .

والطبقة الثانية نشأت فى صدر الدولة ، ومن رجالها والبة بن الحُباب وأبو العتاهية سنة ٢١١ ، وأبو نُوَاس سنة ١٩٨ ، ومسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، والحَكَم بن قَنْبر (وكان بينهما مهاجاة) وسَلْم بن عمرو الخاسر سنة ١٨٦ ، والعباس بن الأحنف سنة ١٩٢ ، وأبو الشِّيص سنة ١٩٦ ، وأشجع السُّلَمِىّ ، والفضل بن عبد الصمد الرّقاشى سنة ٢٠٠ ، وكلثوم بن عمرو العَتّابىّ سنة ٢٢٠ ، ومنصور النَّمَرىّ وربيعة الرّقّىّ ، وأَبان بن عبد الحميد ، والعَكَوّك (على بن جَبَلة) سنة ٢١٣ ، وعَوْف ابن مُحَلِّم الخُزَاعىّ ، ومحمد بن بَشِير الرِّياشىّ وبَكْر بن النَّطّاح .

والطبقة الثالثة طبقة أبى تمام سنة ٢٣١ ، وديك الجِنّ الحِمْصِىّ سنة ٢٣٥ ومحمود بن الحسين الوَرّاق ، وعبد الصمد بن المُعَذّل وأخوه أحمد ، والحَمْدُونىّ إسماعيل ابن إبراهيم بن حَمْدَوَيْهِ البصرى ، وأبو العَمَيْثَل كاتب آل طاهر سنة ٢٤٠ ، ودِعْبِل بن على الخُزَاعِىّ سنة ٢٤٦ ، والعَطَوِىّ (نسبة إلى جده عَطِيّة) والحسين ابن الضّحّاك سنة ٢٥٠ .

والطبقة الرابعة طبقة بن الرومى سنة ٢٨٣ ، والبحترى سنة ٢٨٤ ، وابن المعتز سنة ٢٩٦ ، ومحمد بن اسحٰق الصيْمَرِىّ ، وعلى بن يحيى سنة ٢٧٥ وقد نادم المتوكل ثم المعتمد بعده ، وأبو العباس الأنبارىّ سنة ٢٩٣ ، والبَسّامىّ سنة ٣٠٢ ، والخُبْزَأُرْزِىّ سنة ٣١٧ ، ومن رجازها العَمّانىّ مادح الرشيد وعُمارَة بن عَقِيل .

ومن شواعر هذه المدة والتي قبلها : علية بنت المهدى وأخت الرشيد ، وعِنَان جارية النَّاطفيّ وصديقة أبي نواس . ومحبوبة ، و بَنَان ، وفَضْل ، جوارى المتوكل .

⁂

وفى عهد بنى بويه ومن بعدهم ينقسم الشعراء قسمين : المشارقة وهم شعراء بغداد ومدن العراق ؛ ثم شعراء مصر والشام .

فأما المشارقة فقد اشتهر منهم : أبو الحسن محمد بن عبد الله السَّلاَمىّ سنة ٣٣٩ ، وابن نُباتة السَّعْدىّ سنة ٤٠٥ ، والشريف الرضى سنة ٤٠٦ ، ومِهْيار الدَّيْلمىّ تلميذه الذى أسلم على يديه سنة ٤٢٨ ، وابن الهَبَّارِيّة سنة ٥٠٤ وهؤلاء جميعاً عاشوا ببغداد .

ومن شعراء الأمصار الأخرى فى العراق : أبو طالب المأمونى سنة ٣٨٣ ، وأبو الفتح البُسْتىّ سنة ٤٠٠ ، وصَرَّدُرّ سنة ٤٦٥ ، والباخَرْزى سنة ٤٦٧ والطُّغْرَائىّ سنة ٥١٣ ، والغَزّى سنة ٥٢٤ ، وابن التعاويذى سنة ٥٣٨ والقاضى أبو بكر الأَرَّجانىّ سنة ٥٤٤ ، وصلاح الدين أبو المظفر الأَبِيوَرْدِىّ سنة ٥٥٧ ،

أما شعراء الشام ومصر فهم أكثر عددا وأرقى شعرا من المشارقة وسبب ذلك ما يقوله أبو منصور الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر . قال :

والسبب فى تبريز القوم (يعنى شعراء الشام وما يقاربها) قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز و بعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم) .

وشيخ الشعراء فى هذه الأيام إلى نهاية الدولة العباسية هو أبو الطيب المتنبى سنة ٣٥٤ ؛ ومن المعدودين أبو فراس الحمدانى سنة ٣٥٧ ، وكُشاجِم سنة ٣٦٠

والسَّرِيّ الرَّفّاء سنة ٣٦٣ ، وأبو الفرج محمد بن أحمد الملقب بالوأْواء الدمشقى حوالى سنة ٣٩٠ ، وأبو الفرج البَبَّغاء سنة ٣٩٨ ، وأبو العباس النَّامِى سنة ٣٩٩ والخالديّان (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد) الأول سنة ٣٨٠ والثانى سنة ٤٠٠ تقريبا . وخاتم المجيدين أبو العَلاء المَعَرّى الفيلسوف الذى أحدث فى الشعر الكلام فى الاجتماع ونقد الحكام والرثاء للبائسين سنة ٤٤٧ .

ويجىء بعد هؤلاء من أهل الشام : ابن سِنان الخَفَاجِىّ سنة ٤٦٦ ، وأبو الفتيان محمد بن حَيُّوس سنة ٤٧٣ ، وابن الخَيّاط الدمشقى سنة ٥١٧ ، وابن مُنِير الطَّرابُلُسى سنة ٥٤٨ ، وابن الساعاتى ولد بالشام وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٤ .

ومن شعراء مصر القاضى أبو الفتح نصر الله المعروف بابن قَلَاقِس الإسكندرى سنة ٥٣٢ ، والقاضى أبو الحسن المعروف بابن الزُّبير الغَسّانى الاسوانى المقتول سنة ٥٦٣ ، والقاضى السعيد هبة الله المعروف بابن سَناء المُلْك سنة ٦٠٨ ، وكمال الدين بن النَّبِيه سنة ٦١٩ ، وعمر بن الفارض سنة ٦٣٢ وجمال الدين ابن مطروح سنة ٦٤٩ ، وبهاء الدين زهير سنة ٦٥٦ .

بشار بن برد

بشار واحد من شعراء قلائل كان لفنهم سلطان عليهم فى جميع مظاهر حياتهم فخضعت له كل تصرفاتهم . واصطبغت به علاقاتهم بالناس ؛ فقد كان من امتزاج الشاعرية بدمه أن أسرع ظهورها فيه حتى قال الشعر ولم يبلغ العاشرة من سنه ، وقد تمثلت هذه الشاعرية فى اتخاذه آنية داره فإنه لم يعجبه رسم جام طلب من مصوّر أن ينقشه له فقد ذكر المصور أنه صور طيوراً تطير فغضب بشار وقال : كان ينبغى أن تجعل فوقها جارحاً يحوم لصيدها ، ثم كان له من بيته مجالس : مجلس للغداة ، وآخر للعشى ، ويسمى الأول البردان والآخر الرقيق ، وكذلك كان شاعراً فى تنادره ، شاعراً فى كل تصوراته

يغرم بالفن ويعرف قدره ويحرص على ما أحدثه منه ، حتى لقد غضب على تلميذه سلم الخاسر حين أغار على بيته :

من راقب الناس لم يَظْفَر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهِجُ[1]

فقد أخذه سلم فقال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسورُ

قال بشار أتأخذ معانى التى قد عنيت بها وتعبت فى استنباطها فتكسوها ألفاظاً أخف من لفظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى ، لا أرضى عنك أبداً .

وبكى حين رأى حماداً قد اهتدى إلى معنى فى هجائه كان بشار قد عرفه فى نفسه ولم يشأ أن يبوح به حتى لا يتخذ سلاحاً يقاتل به وذلك قول حماد :

ويا أقبحَ من قِرْدٍ إذ ما عَمِىَ القِرْدُ

ثم هو شاعر يجعل الشعر صورة ما فى نفسه من حب و بغض وإعجاب ومقت ، فهو يمدح ويهجو ويتغزل مندفعاً إلى ذلك بجنون الفن الذى لا حذر معه ولا روية تنهنه من غربه فى هجاء ذى سلطان أو إفحاش فى غزل بعد ان هدد من أجل ذلك . كل هذا كان فى بشار فكان شاعراً لا كهؤلاء الذين قالوا الشعر من أجل الجائزة ، ثم هم بعد لا أثر للشعر فى مظهر من مظاهر حياتهم ولا غور له فى نفوسهم .

⁂

بشار بن برد بن يَرْجُوخ ، وقد عدّ له أبو الفرج الأصبهانى ستة وعشرين جدا أسماؤهم كلها أعجمية ، وذكر أن يرجوخ أقرب أجداده كان من طُخَارِسْتان من سبى المهلب بن أبى صُفْرة وأن أباه برداً كان من عبيد خِيرَة القُشَيْرِيّة امرأة المهلب ، وكان مقيماً لها فى ضيعتها بالبصرة فزوجته من امرأة من بنى عُقَيل يقال لها أم الظباء كانت

---

(١) اللهج : المغرم بالشىء ، من قولهم لهج بكذا : إذا أغرى به .

متصلة بها ثم وهبته لها فولدت منه بشاراً وهو فى ملكها فأعتقته العقيلية فنشأ بشار فى ولاء بنى عُقَيل . وعلى هذه الرواية يكون رق بشار من ناحية أبيه فتكون كذلك عجمته من هذه الناحية . ولكن بعضاً من الرواة يحدث أن بشاراً وأمه كانا لرجل من الأزد ، فتزوج امرأة من بنى عقيل فساق إليها بشاراً وأمه فى صداقها ثم كانا أن أعتقت العقيلية بشاراً لأنه كان مكفوفاً ، وعلى هذه الرواية تكون عجمته من ناحية أمه فإذا كان قد انضم إليها عجمته من ناحية أبيه يكون بشاراً معماً مخولا فى العجمة ولا يكون له فى العربية عرق . ويؤيد هذا الظن إلى حد ما أنه قال : دخلت على المهدى فسألنى فيمن تعتدّ يابشار ، فقلت: أما اللسان والزىّ فعربيان وأما الأصل فعجمى كما قد قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونُبِّئتُ قوما بهم جِنَّـةٌ ... يقولون من ذا وكنت العَلَمْ

ألا أيها السائلى جاهـداً ... ليعرفنى أنا أَنْفُ الكَرَمْ

نَمَتْ فى الكرام بنى عامر ... فروعى وأَصْلِى قريشُ العَجَمْ

وأظن أنه لو كانت أمه عربية لما استطاع أن يدعى العجمة المطلقة ، فإنهم فرقوا بين من هو عربى الأب أعجمى الأم ، ومن هو على العكس ومن كان أعجمى الأبوين ، فسموا الأول هجينا ، والثانى مقرفا ، والثالث أعجميا وما كان بشار يجهل هذه التفرقة حتى يحمل كلامه على التوسع .

☆☆☆

ومن كان مثل بشار له ولاء فى قبيلة عربية يفخر بذلك الولاء ويملأ شدقيه بالنسبة إليها ، ولكن بشارا صادف زمانا قد شغب فيه العجم على العرب وأحسوا لأنفسهم بوجود فأكثروا من ثلب العرب والزراية بهم وذلك مذهب إنما جد من احتقار العرب للأعاجم وسومهم الخسف فتولد الحقد فى نفوس هؤلاء عليهم ، ولما

وجدوا من الدولة الأموية ضعفا ثم من العباسيين ممالأة واعتدادا بحسن أثرهم أعلنوا ذلك فى حوارهم مع العرب وسجلوه فى أشعارهم ، وكان بشار أحد هؤلاء الشعوبيين فكان من قوله الدال على الزراية بشأن العرب :

أصبحتُ مولى ذى الجلال وبَعْضُهُمْ   مولى العُرَيْب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرمُ من تميم كلها   أهل الفَعَال ومن قريش المَشْعَرِ[1]
فارجع إلى مولاك غيرَ مُدافَعٍ   سبحان مولاك الأجلّ الأكبر

خلقه وخلقه

كان من صفة بشار الكمه وجحوظ الحدقتين مع تغشيهما بلحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظرا مع الطول المفرط وضخم الجثة وتشويه الوجه بالجدرىّ وأدمة البشرة .

أما صفاته النفسية فقد كان له منها محاسن ومساوئ ، فكان من محاسنه توقد الذكاء وصدق الحس . فقد ذكروا أنه مر به رجل وهو جالس على بابه وليس معه أحد وبيده مخصرة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح وأُتْرُجّ[2] فتاقت نفس الرجل إلى سرقة مابين يديه فأقبل قليلا قليلا حتى إذا أهوى بيده ليتناول ما فى الطبق ضربه بشار بالقضيب على يده حتى كاد يكسرها فقال له الرجل أنت الآن أعمى ! ! قال فأين الحس ؟ .

وجاءه من يسأل عن منزل رجل يعرفه بشار فجعل يفهمه ولا يفهم فأخذ بيده يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم   قد ضَلّ من كانت العُمْيان تَهْديهِ

---

(١) المشعر : النسك، والمراد به مكة .

(٢) الأترج : ثمر شجر بستانى من جنس الليمون ناعم الحطب والورق .

وقد أدرك بشار علة ذكائه وعرف أن العمى هو الذى وفر له هذا الذكاء فإن المعروف أن القوى والحواس يزيد بعضها بنقصان بعض وقد قال فى ذلك :

عَميتُ جنيناً والذكاء من العمى فجئتُ عَجيبَ الظَّنِّ للعِلْمِ مَوْئِلاَ
وغاض ضياء العَيْنِ للعِلْمِ رافدا لقلبٍ إذا ما ضيَّعَ الناسُ حَصَّلاَ

ولعله لم تكن له منقبة بعد الذكاء إلا صلة الرحم والكرم كان له أخوان يقال لأحدهما بشر وللآخر بشير وكانا قصابين وكانا بشار بارًّا بهما على ضيق صدره وتبرمه بالناس فكان أخواه يستعيران ثيابه فيوسخانها وينتنان رائحتها ، فإذا دعا بشار بثوب فلبسه فأنكر رائحته يقول : (أينما أوَجّهْ ألق سعداً[1]) ، وكان يخرج للناس فى تلك الثياب التى ابتذلها أخواه ، فإذا قيل له ما هذا يا أبا معاذ قال : (هذه ثمرة صلة الرحم) .

وكان كريمًا حتى لقد جعل لأبى الشَّمَقْمَق الشاعر الرقيق الحال مائتى درهم فى كل عام فجاءه فى بعض السنين فقال له هلمّ الجزية يا أبا معاذ ، قال ويحك أهى جزية ؟ قال هو ما تسمع ، ثم امتد بينهما المزح حتى قال أبو الشمقمق يهجو بشاراً :

إنى إذا ما شاعر هجانيه ولجّ فى القول له لسانيه
أدخلته فى است أمه علانيه بشار يا بشار يا بن . . . .

وأراد أن يقول يا بن الزانية فقام بشار فأمسك فاه ودفع إليه مائتى الدرهم .

وأنشد بشار جعفر بن سليمان :

أقلى فإنا لا حقون وإنما يؤخرنا أنا يعد لنا عدا
وما كنت إلا كالأغرّ بن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا[2]

---

(١) سبب هذا المثل أن الأضبط بن قريع كان سيد قومه، فلقى منهم سوء معاملة فرحل عنهم الى غيرهم فوجدهم يعاملون سادتهم كذلك فقال هذا القول . ويظهر أن سعدا هذا هو الذى كان يناوئه فى قومه وهو سعد بن زيد ، وقد روى المثل رواية أخرى : فى كل واد سعد بن زيد .

(٢) يقصد عبد الله بن جعفر كريم المدينة المشهور . وقد قيل عنه إن أهل المدينة كانوا يدانون إلى أن يأتى عطاء عبد الله فيردوا ديونهم .

فقال له جعفر بن سليمان من ابن جعفر ؟ فقال الطيار فى الجنة ، فقال لقد ساميت غير مسامى ، فقال والله ما يقعدنى عن شأوه بعد النسب ولكن قلة النشب . وإنى لأجود بالقليل ، وإن لم يكن عندى الكثير ، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور .

أما غير ذلك من صفاته ، فقد كان شرا كله . كان متبرما بالناس شديد الكراهة لوجوده بينهم، فكان يقول : (اللهم إنى تبرمت بالناس و بنفسى فأرحنى منهم و يقول: الحمد لله الذى أذهب بصرى لئلا أرى من أبغض) ونشأ عن ذلك إقذاعه فى الهجاء ، وكان كثير الاستهتار بشعائر الدين غير مبال بالوقيعة فيه ، فقد حدّث بعض أصحابه قال : كنا نكون عنده ، فإذا حضرت الصلاة قمنا إليها ، ونجعل على ثيابه ترابًا حتى ننظر هل يقوم ليصلى فنعود والتراب بحاله وما صلى . وحدث آخر قال أتينا بشارا فأذن لنا والمائدة بين يديه فلم يدعنا إلى طعامه ، فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوءته وبال فيه ثم حضرت الظهر والعصر فلم يصلّ فدنا منه أحدهم وقال دخلنا عليك والطعام بين يديك فلم تدعنا إليه فقال إنما أذنت لكم أن تأكلوا ، وقال ودعوت بطست ونحن حضور فبلت ونحن نراك فقال أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم المأمورون بغض الأبصار ، قال وحضرت الظهر والعصر فلم تصل فقال إن الذى يقبلها تفاريق يقبلها جملة .

وسمع مغنية تغنى فى قوله :

إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئًا أبيته
ومُخَضَّبٍ رَخْصِ البنَا ... نِ بكى علىّ وما بكَيْتُهْ
يا منظرا حسنا رأيـ ... ـت بوجه جارية فديته
بعثتْ إلىّ تسومنى ... ثوب الشباب وقد طَوَيْتُهُ

فطرب بشار وقال هذا والله أحسن من سورة الحشر .

وتلاحى عبد الله بن مسعود الباهلى وأبو النضير أمام بشار فى شىء ، فقال عبد الله

يابن اللخناء أتكلمنى ولو اشتريت عبداً بمائتى درهم وأعتقته لـكان خيراً منك فقال أبو النضير والله لو كنت ابن زنى لـكنت خيراً من باهلة كلها فغضب الباهلى فقال بشار أنت منذ ساعة تزنى أمه ولا يغضب فلما كلمك كلمة واحدة لحقك هذا كله ! فقال وأمه مثل أمى يا أبا معاذ ؟ فضحك بشار وقال : والله لو كانت أمك أم الـكتاب ما كان بينكما من المصارمة كل هذا .

ويكفى فى الدلالة على فجوره أن واصل بن عطاء خاصمه من أجل معتقداته وخطب الناس فى أمره وكان ألثغ بالراء فـكان لبلاغته يتجنبها فى كلامه فقال فى شأنه .

(أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المـكنى بأبى معاذ من يقتله أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه فى جوف منزله ، أوفى حفله ثم كان لا يتولى ذلك إلا عُقَيْلى أو سَدُوسى) فقال أبا معاذ ولم يقل بشارا ، وقال المشنف ولم يقل المرعث (وتلك كنية بشار لأنه كان يلبس الرعاث فى أذنه) وقال من سجايا الغالية ولم يقل الرافضة وقال فى منزله ولم يقل فى داره وقال يبعج ولم يقل يبقر كل ذلك ليتجنب الراء حتى لا يظهر عيب لثغته .

وكذلك أنـكر عليه سوار بن عبد الله الأكبر ، ومالك بن دينار ماهو متورط فيه من هجاء الناس ، والتشبيب بالنساء ، وقال فيه : ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة (البصرة) إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وقال واصل أيضاً : إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لـكلمات هذا الأعمى الملحد ، وقد قصده مالك بن دينار فى داره وقال : أتشتم أعراض المسلمين ، وتشبب بنسائهم ؟! فجبن بشار ، وقال له : لا أعود ، ولـكنه لم يكن إلا كاذبا جباناً يتخلص من الموقف ، ثم عاد إلى ما كان فيه من غزل مغر وهجاء مقذع ، حتى إنه لم يستطع أن يقلع بعد أن تسامع المهدى بمـا كان من إفساده للنساء والشبان فى البصرة ونهاه وحرمه من الجائزة ، فلم يكن ذلك رادعا له

كما لم يكتف بهجاء النساء حتى هجا الخليفة ووزيره يعقوب بن داود ، فجعل كل ذلك مع تهمة الزندقة ذريعة لقتله ، فاستراح الناس من شره .

⁂

ومن مساوئه : المجون ، وهو فى المرء خليط من اطراح الحشمة ، والتنكب عن حسن السمت ، وخبث فى النفس يدعوها إلى إبراز ما تكنّ من زراية وامتهان لما تريد الزراية عليه ، والامتهان له فى صورة الهزء والسخرية ، فهو جماع لشرور كثيرة فى المرء ، وقد كان لبشار منه نصيب كبير .

ذكروا أنه سمع قاصا يقول فى قصصه . من صام رجباً ، وشعبان ، ورمضان بنى له قصر فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره ، عشرة فراسخ فى مثلها ، فقال بشار : لمن معه : بئست والله هذه الدار فى كانون الثانى[1] .

ومر برجل قد رمحته بغلته وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال له : استزد يزدك ، ومر على قوم يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال : ما لهم مسرعين أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم ، ورفع إليه غلامه فى حساب نفقته عشرة دراهم جليت بها مرآة ، فصاح به بشار وقال : ما فى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم ، والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم فى ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم .

وكان ينشد المهدى ، ويزيد بن منصور عنده ، فلما فرغ من إنشاده أقبل عليه يزيد (وكانت فيه غفلة) وقال له يا شيخ ما صناعتك ؟ فقال : أثقب اللؤلؤ ، فضحك

---

(١) كانون الأول والثانى شهران يقعان فى قلب الشتاء .

المهدى ، وقال لبشار : أتتنادر على خالى ، قال : وما أصنع به ، يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعرا ، ويسأله عن صناعته .

وكان بشار جالساً فى دار المهدى والناس ينتظرون الاذن ، فقال بعض موالى المهدى لمن حضر : ما عندكم فى قول الله عزّ وجل : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ . . . .) فقال بشار النحل التى يعرفها الناس قال : هيهات ، النحل بنو هاشم . وقوله : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) يعنى العلم ، فقال له بشار : أرانى الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غثاثة ، فغضب وشتم بشاراً و بلغ المهدى الخبر فضحك حتى أمسك بطنه ، وقال للرجل جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فإنك غث بارد .

آراؤه ومعتقداته

كانت الآراء الفلسفية قد بدأت تشيع بين العرب وكان يسرع إلى التعلق بها كل من كان واهى العقيدة كبشار ، لذلك تراه قد اعتنق من هذه الآراء القول بالرجعة إلى الدنيا ، وتكفير جميع الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها حادت عن الدين . قيل له: ما تقول فى الصحابة ؟ قال كفروا ، قيل فما تقول فى على كرم الله وجهه ؟ فتمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو   بصاحبك الذى لا تَصْبَحِينا

وكان يفضل النار على الطين والنور على الظلمة و يصوب رأى إبليس فى عدم سجوده لآدم وقد ذكر ذلك فى شعره ، فقال:

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مُشْرِقةٌ   والنار معبودةٌ مذ كانت النارُ

ويقولون إنه كان أحد أصحاب الكلام الستة بالبصرة ، وهم : عمرو بن عبيد ، وواصل ابن عطاء ، وبشار ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، ورجل من الأزد كانوا يجتمعون فى داره ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فقد صارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فقد صححا التوبة، وأما الأزدى فقد مال إلى قول السُّمَنِيّة(١) وهو مذهب من مذاهب الهند ، وأما بشار فقد بقى مترددا متحيرا مخلطا .

والذى نراه أن بشارا كان منافقا يظهر لجمهور الناس بأنه على طريقتهم ويضمر ازدراءه لمذهبهم . وكان يعلم ضرر الظهور بالإلحاد بين شعب متدين فاتخذ ذلك سلاحا فى هجاء حماد عجرد فكان يتهمه بالزندقة فيقول له :

يابن نِهْبَى رأس علىّ ثقيل ... واحتمال الرأسين خَطْبٌ جليل
ادْعُ غيرى إلى عبادة الاثـ ... ـنين فإنى بواحد مشغول
يابن نُهْبَى برئت منك إلى اللـ ... ـه جهارا وذاك منى قليل

وليس بعيداً على شاعر يقول بفيه ماليس فى قلبه أن يكون منافقاً فقد ألف ذلك فى جميع مظاهر حياته . وهكذا كان بشار زنديقا مع الزنادقة ملازما للجماعة بين جمهور الناس حتى يأمن الشر على نفسه . فليس من أصحاب الآراء الذين يفنون فى معتقداتهم ولا يبالون مايجره عليهم تمسكهم بآرائهم . وهكذا كأن فى شعوبيته يحتقر العرب ويتملق أمراءهم لأخذ الجوائز والاستحواذ على العطايا . وبعد فهو شاعر أصدق أوصافه أنه كاذب .

شاعرية بشار

كان لنشأة بشار فى بنى عقيل أكبر أثر فى شاعريته، فإنه لما تمت له ملكة اللغة بهذه النشأة وانضم إليها ماله من فطرة فى الشعر وخيال واسع لايستعصى معه معنى ولا

---

(١) قوم من الهنود يعبدون صنما يسمى سومنات ، وعندهم أن العلم والمعرفة لايحصلان إلا من طريق الحواس فهم لايؤمنون إلا بما كان محسوسا . قال عنهم فى القاموس المحيط : قوم بالهند دهريون قائلون بالتناسخ .

يفوت غرض ، صار بشار ذلك الشاعر الذى كثر قوله كثرة لم تعهد لغيره من الشعراء فى قديم ولا حديث فإننا إذا صدقناه فيما ادعى من أن له اثنى عشر ألف قصيدة لا يكون فى الشعراء من خلّف خمس هذا الشعر أو عشره . والعجب أن يقول بشار هذا القول ولا يرد عليه دعواه أهل عصره ثم لا نرى من شعره إلا نصيباً هو أقل من القليل .

ولعل السبب فى موت شعر بشار هو إقذاعه فى الهجاء و إفحاشه فى الغزل ، وأنه كان السابق إلى هذا فى زمن كان أقرب إلى الورع وفى بلدة (البصرة) هى موطن التابعين وتابعيهم : أمثال الحسن البصرى وابن سيرين وسوار بن عبد الله ومالك ابن دينار وواصل بن عطاء وغيرهم فكل ذلك جعل لشعر بشار أقبح أثر فى النفوس، ولعل ماجنى الناس من شر هذا الشعر على فتياتهم هو الذى دعاهم إلى ستره وطول الإغفال له بعد موت بشار حتى لاتفوح رائحته . وهذا لعمرى هو الذى جعلنا لانروى كثيراً من الشعر لوالبة بن الحباب ومطيع بن إياس وحماد عجرد وغيرهم من كل فاجر فاتك بشعره .

ولو أن الزمن تأخر قليلاً ببشار فعاش فى بغداد أو صادفها وقد تمكنت منها الحضارة وألف الناس هذا الفسوق فى الشعر لبقى لنا شعره سليماً كاملاً وكنا نطلع على هذا الشعر الذى يعدل تقريباً نصف الباقى لنا من شعر العرب كلهم .

ولكن الذى لا ينبغى أن ننساه أن بشاراً كان مطبوعًا على قول الشعر يقوله بلا كلفة ويناديه فيلبى النداء سريعاً لا حبسة فى لسانه ، ولا عقم فى خياله . فلم يكن ينحت من صخر وإنما كان يغرف من بحر، وقد شبهه الأصمعى فى كثرة فنونه وسعة تصرفه وأنه لا يتكلف شيئاً متعذراً ولا يقول البيت يحككه أياما ، شبهه بالأعشى والنابغة ، وشبه مروان بن أبى حفصة بزهير والحطيئة .

ودليل انطباعه : أنه قال الشعر وعمره عشر سنين ، فلم يبلغ الحلم حتى كان مخشيًّا

معرة لسانه . وقد هاجى جريراً فأعرض عنه واستصغره فقال لو هاجانى لكنت أشعر الناس . وكان الناس يشكونه إلى أبيه إذا هجاهم فيضربه أبوه فلامته أمه يوماً وقالت له كم تضرب هذا الصبى الضرير أما ترحمه ؟ فيقول لها بل والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ فسمعه بشار فقال له يا أبت إن هذا الذى يشكونه منى هو الشعر وإنى إن ألمت عليه أغنيتك وسائر أهلى فإذا عادوا إليك فقل لهم أليس الله يقول (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ) فلما عاودوه قال لهم ذلك فانصرفوا يقولون فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار :

ومن انطباعه على قول الشعر أنه كان يرتجله فى المعنى الضيق والقافية العسرة فيأتى بما يستحق عليه المثوبة . فقد ذكروا أن المنصور ركب هجينا فى وقت الهاجرة فجعلت الشمس تلمع بين عينيه ، فقال لمن حوله : إنى قائل بيتا فمن أجازه فله جبتى هذه وقال :

وهاجرة نصبت لها جبينى   يقطع ظهرها ظهر العِظَايَهْ(١)

فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمعى   على خَدِّى وأقصر واعظايه

فنزع المنصور الجبة وهو راكب ودفعها إليه فباعها بأربعمائة دينار . ودخل مع أبى الشمقمق على عقبة بن مسلم فشفع له عنده ليناله بشىء من خيره فأمر عقبة لأبى الشمقمق بخمسمائة درهم فقال بشار على الفور :

يا واحد العرب الذى   أمسى وليس له نظيرْ

لو كان مثلك آخر   ما كان فى الدنيا فقيرْ

فأمر لبشار بألفى درهم .

وذكروا أن الزوار كانوا يسمون فى قديم الدهر السؤال حتى قال خالد بن برمك

---

(١) العظاية : دويبة صغيرة ملساء تشبه سام أبرص .

هذا والله اسم أستثقله لطلاب الخير وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤملين لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبًا ولكننا نسميهم الزوار؛ فقال بشار في الساعة التي تكلم فيها خالد بهذا الكلام :

حذا خالدٌ في فعله حَذْوَ بَرْمَكٍ   فمجدٌ له مُسْتَطْرَفٌ وأصيلُ

وكان ذَوُو الآمال يُدْعَوْنَ قبله   بلفظ على الإعدام فيه دَليلُ

يُسَمَّوْنَ بالسُّؤّال في كل موطنٍ   وإن كان فيهم نابهٌ وجليلُ

فسمّاهُمُ الزُّوّارَ سَتْراً عليهم   فأستاره للمجتدين سُدُولُ

فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم .

ودخل بشار على عقبة بن مسلم فأنشده بعض مدائحه وعنده عقبة بن رؤبة ابن العجاج الراجز ينشده رجزاً مدحه به فسمعه بشار فجعل يستحسن ما قاله إلى أن فرغ فقال له ابن رؤبة هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال بشار ألي يقال هذا؟ إني والله لأرجز منك ومن أبيك وجدك ، فقال عقبة إنا والله قد فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز والله إني لخليق أن أسده عليهم وتلاحيا فعاد بشار من غده إلى عقبة وعنده ابن رؤبة الراجز فأنشده أرجوزة يمدحه بها ، ولعل بشارا كان منصرفا عن الرجز يتركه لمثل عقبة ولكنه حين حاوله أتى فيه بالعجب . وهذه هي أرجوزته :

يا طَلَلَ الحَيِّ بذات الصَّمْدِ   بالله خَبِّرْ كيف كُنْتَ بَعْدِي (١)

أَوْحَشْتَ من دَعْدٍ وتِرْبِ دَعْدِ   سَقْياً لأسماءَ ابنةِ الأَشَدِّ

قامتْ تَراءَى إذْ رأتْني وَحْدِي   كالشمس تحت الزِّبْرِجِ المُنْقَدِّ (٢)

صدَّتْ بخَدٍّ وجَلَتْ عن خَدِّ   ثم انْثَنَتْ كالنَّفَسِ المُرْتَدِّ

عهدي بها سَقْياً له من عَهْدِ   تُخْلِفُ وَعْداً وَتَفِي بوَعْدِ

---

(١) ذات الصمد : اسم مكان في ديار بني يربوع .

(٢) الزبرج : السحاب الرقيق . المنقدّ : المنشق .

فنحن من جَهْد الهوى فى جَهْدِ ... وزاهرٍ من سَبِطٍ وجَعْدِ[١]

أَهْدَى له الدهرُ ولم يَسْتَهْدِ ... أفوافَ نَوْرِ الحِبَرِ المُجَدِّ[٢]

يَلْقَى الضُّحَى رَيْحَانَه بسَجْدِ ... بُدِّلْتُ من ذاك بُكًا لا يُجْدِى[٣]

وَافَقَ حَظًّا مَنْ سَعَى بِجَدِّ ... ما ضَرَّ أَهْلَ النَّوْكِ ضَعْفُ الجِدِّ[٤]

الحرُّ يلْحَى والعَصَا لِلْعَبْدِ ... وليس للمُلْحِف مثلُ الرَّدِّ

والنَّصْفُ يَكْفِيكَ مِنَ التَّعَدِّى ... وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ

حَمَلْتُه فى رُقْعَةٍ من جِلْدِى ... أَرْقُبُ منه مثْلَ يَوْمِ الوِرْدِ[٥]

حتى مضى غَيْرَ فَقِيدِ الْفَقْدِ ... وما دَرَى ما رغبتى من زُهْدِى[٦]

إِسْلَمْ وحُيِّيتَ أَبا المُلِدِّ ... مفتاحَ باب الحَدَثِ المُنْسَدِّ[٧]

مُشْتَرَكَ النَّيْلِ وَرِىَّ الزَّنْدِ ... أغرَّ لَبَّاسَ ثِيَابِ الحمد

ما كان منى لك غير الوُدِّ ... ثم ثناء مِثْلُ رِيحِ الوَرْدِ

ونكتنى منها بهذا . فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته ، وقام ابن رؤبة بخزى ، وهرب من تحت ليلته فلم يعد إليه .

⁂

ومن انطباعه على الشعر أنَ ترى له الشعر فى كل معرض حتى فى الهزل ومحاقر الأشياء ،

---

(١) زاهر : يريد به شعره الأبيض . السبط : المرسل . الجعد : المثنى .

(٢) أفواف : جمع فوف ، وهو من برود اليمن تشبه به الأزهار . الحبر : جمع حبرة (كعنبة) : ضرب من برود اليمن منمر . المجد : الذى قطعه الحائك حديثا فهو جديد لم يبل بعد .

(٣) شبه الشعر بالريحان . السجد : السجود . والمعنى أن النهار إذا طلع قابل هذا الشعر بالسجود لشدة بياضه .

(٤) من كان له حظ نال المراد ولو بغير اجتهاد .

(٥) الورد : الحمى .

(٦) أى ذهب وفقدته كأنى لم أفقده .

(٧) أبو الملدّ : كنية عقبة بن سلم .

فهو لم يجعل الشعر صورة لنفسه المنمقة المزوّقة ، ولكنه جعله صورة طبيعية وفيها السمين والغثّ ، والقويّ والفاتر ، والجليل والحقير .

وقد دخل العياب على بشار من هذا الباب ، فقد قال له بعض أصحابه : يا أبا معاذ من الذى يقول :

أحبّ الخاتم الأحمـــــر من حب مَوَالِيَّهْ

فأعرض عنه ثم صاح به ، فقال : يا أبامعاذ من الذى يقول :

إن سلمى خُلِقَتْ من قَصَبٍ قصب السكر لا عَظْمِ الجَمَلْ

وإذا أَدْنَيْتُ منها بَصَــلاً غَلَبَ المِسْكُ على رِيحِ البَصَلْ

فغضب وصاح : من الذى يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها فى الحداثة فهو يعيرنا بها ، وكان إسحٰق الموصلى يطعن على شعر بشار ويضع منه ، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشـــبه بعضه بعضاً .

وقيل لبشار : إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت ، فبينا تقول شعراً تثير به النقع وتخلع القلوب مثل قولك :

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تَمْطِرَ الدما

إذا ما أَعَرْنَا ســـــيِّداً من قبيلة ذُرَا مِنْبَرٍ صلّى علينا وسَـــــلما

تقول :

رَبَابَةُ رَبَّةُ البيتِ تَصُبُّ الخَلَّ فى الزَّيْتِ

لهـا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكلّ وجه وموضع ، فالقول الأول جدّ ، وهـــذا قلته فى ربابة جاريتى ، فأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لهـا عشر دجاجات فهى تجمع لى البيض ، فهذا عندها خير من : (قفا نبك) عندك .

الأغراض فى شعره

ولما كان بشار مطبوعاً على قول الشعر لم يكن ليستعصى عليه غرض من الأغراض ، فقد مدح وهجا ، وتغزل ورثى ، ووصف ما أحسّ ولم يحسّ ، وأتى بالحكمة والمثل ، فما قصر فى غرض من الأغراض ، وإن اثنتى عشرة ألف قصيدة يقولها لابدّ أن يعيد فيها ويبدى فى جميع أغراض الشعر ومعانيه . ثم إن بشاراً هو هو قوّة عارضة وتمام قريحة ، حتى لقد عدت له معان كثيرة اخترعها ولم يسبق إليها ، مثل قوله (وينسبان لابن الخياط) :

لَمَسْتُ بكَفِّى كَفَّهُ أَبْتَغِى الغنى ... ولم أَدْرِ أنَّ الجُودَ من كفه يُعْدِى

فلا أنا منه ما أَفَادَ ذَوُو الغِنَى ... أَفَدْتُ وأَعْدَانى فأَتْلَفْتُ ماعندى

ولكنه مع ذلك كله غلبت عليه أغراض ، فكثر المروى لنا منها بنسبة غيره مما روى من شعره . وهذه الأغراض ، هى: المدح ، والهجاء ، والتشبيب بالنساء .

☆☆☆

فأما المدح فقد اتصل بكثير من الأمراء ، فنال جوائزهم السنية أمثال : خالد ابن برمك ، وعقبة بن سلم ، ونافع ابنه بعده ، وعمر بن العلاء ، والهيثم بن معاوية ، وسليمان بن هشام ، وعمر بن هبيرة ؛ وكان فوق ذلك أن اتصل بالخلفاء فمدح أبا جعفر المنصور ثم المهدى بعده ، فهو من هذه الناحية شاعر نابه لم تقصر شهرته عن الوصول إلى ساحات الخلفاء ، ولم يستغن عن تقريظه أمير من الأمراء ، وقد استحقّ على شعره الجوائز الكثيرة ، ولكنه كان كما علمت متلافا كريماً ، فلم يبق له مدخر من كلّ هذا .

وقد كان بشار يبذل من مدحه على قدر مايحوز من الصلة ، حتى لقد قيل له يوماً : إن مدائحك فى عقبة بن سلم فوق مدائحك فى كلّ أحد غيره ، فقال : إن عطاياه كانت

فوق كلّ عطاء ، دخلت عليه يومًا فأنشدته :

حَرَّمَ اللهُ أن ترى كابن سلم عُقْبَةِ الخيرِ مُطْعِمِ الفقراءِ
ليس يُعْطِيك للرجاءِ ولا الخو فِ ولكنْ يَلَذُّ طَعْمَ العطاء
يسقط الطير حيث ينتثر الحَبْـبُ وتُغْشَى منازل الكرماء

فأمر لى بثلاثة آلاف دينار . وهأنا قد مدحت المهدى وأبا عبيد الله وزيره ، وأقمت بأبوابهما حولا فلم يعطيانى شيئاً فألام على هذا ؟

مدح خالد بن برمك وهو على فارس فقال :

أخالدُ لم أَخْبط إليك بذِمَّةٍ سوى أنني عافٍ وأنت جَوَادُ[1]
أخالدُ بين الأَجْرِ والحمدِ حاجتى فأيّهما تأتى فأنت عِمَادُ
فإنْ تُعْطِنِى أُفْرِغْ عليك مَدَائِحِى وإن تَأْبَ لم يُضْرَبْ علىّ سِدَادُ[2]
رِكابى على حَرْفٍ وقلبى مُشَيَّعٌ ومَالِى بأرض الباخلين بلادُ[3]
إذا أنكرَتْنِى بلدةٌ أوْ نَكِرْتُها خَرَجْتُ مع البَازِى علىّ سَوادُ[4]

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار فى أربعة أكياس ، فوضع واحداً عن يمينه ، وواحداً عن شماله ، وآخر بين يديه ، وآخر خلفه ، وقال يا أبا معاذ : هل استقلّ العماد ، فلمس الأكياس ، ثم قال : استقل والله أيها الأمير .

مدحه بقوله :

لعمرى لقد أَجْدَى علىّ ابنُ بَرْمَكٍ وما كلُّ من كان الغنى عنده يُجْدِى
حَلَبْتُ بشعرى راحتيه فدرّتا سمَاحا كما دَرّ السحابُ مع الرّعْدِ

---

(١) الخبط : السير على غير هدى . والمراد هنا مطلق السير العنيف . يقول : أقصدك وليس لى بك آصرة ، أو بينى وبينك عهد إلا أنى سائل وأنت كريم . وهذه أعظم آصرة تربط بك طالبى إحسانك .

(٢) السداد : إما مفرد وهو مايسد به الشىء كالثلمة ونحوها . وإما جمع سدّ بمعنى الحاجز . والمعنى إن لم تعطنى اليوم فانى لا أيأس من عطائك فى غد .

(٣) الحرف : الناقة الضامرة . المشيع : الشجاع .

(٤) أى خرجت مبكراً لأن البازى يخرج فى ظلام الليل قبل تبلج الفجر .

إذا جئتَه للمدحِ أشرقَ وجهُه . إليك وأعطاك الكرامة بالحمد
له نِعَمٌ فى القوم لا يستثيبها جزاء وكَيْلَ التاجر المُدَّ بالمُدِّ (١)
مُفيدٌ ومتلافٌ ، سبيلُ تراته إذا ما غدا أو راح كالجَزْرِ والمَدِّ (٢)
أخالد إن الحمد يَبْقى لأهله جمالا ولا تَبْقَى الكنوز على الكَدِّ
فأطْعِمْ وكُلْ من عارةٍ مستردَّةٍ ولا تُبْقِهَا إن العَوَارِىَ للرَّدِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه فى كلّ وفادة خمسة آلاف . وأمر خالد أن يكتب البيتان الأخيران فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه . وقال ابنه يحيى : آخر ما أوصانى به أبى أن أعمل بهذين البيتين .

ووفد على عمر بن هبيرة ، فمدحه بقصيدة يقول فيها :

لألِق بنى عَيْلانَ إنَّ فعالهم يزيد على كلِّ الفعال مراتِبُهْ
أولاك الأولى شقوا العَمَى لسيوفهم عن العين حتى أبصر الحقَّ طالبُهْ

ومنها يصف الجيش :

وجيشٍ كَجُنْحِ الليل يَزْحَفُ بالحصَى وبالشوك والخَطِّىِّ حُمْرٌ ثعالبُهْ (٣)
غدونا له والشمس فى خِدْرِ أمها تطالعنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذائبُهْ
بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طَعْمَهُ وتُدْرِكُ من نَجَّى الفرارُ مثالبُهْ
كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رءوسنا وأسيافَنَا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ
بعثنا لهم موت الفُجَاءَةِ إننا بنو الموت خَفَّاقٌ علينا سبائبُهْ (٤)

---

(١) يقول : إنه ينعم ، ولا ينتظر الجزاء على قدر إحسانه كما يفعل التاجر الذى يعطى مدا فى نظير مد . (المد : مكيال ، وهو عند أهل العراق رطلان ، وعند أهل الحجاز رطل وثلث) .

(٢) التراث : ما يخلفه المرء لورثته . يقول: إن هذا الرجل كسوب ولكنه لا يستبق كسبه بل يجود به فماله فى زيادة ونقص . وجعل ماله تراثا لأنه من شأنه أن يورث عنه ويرى بعض أن الكلمة محرفة عن ثرائه .

(٣) جنح الليل (بالكسر أو الضم) : الطائفة منه . الحصى : العدد الكثير . الشوك : جمع شوكة وهى السلاح. الخطى : الرمح، نسبة إلى الخط ، وهو مرفأ بالبحرين تباع فيه الرماح . الثعالب : جمع ثعلب ، وهو طرف الرمح ، يقول: إن اطراف الرماح احمرت من دماء الأعداء .

(٤) السبائب : جمع سبيبة وهى الشقة من الثوب . والمراد بها هنا الأعلام (الرايات) .

فراحوا فريق فى الإسارِ ومثـــلُه . قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُهْ
إذا الملكُ الجبَّار صَعَّرَ خَــدَّه مَشَيْنا إليه بالســيوف نُعاتبُهْ

فوصله بعشرة آلاف درهم ، فكانت أوّل عطية سنية أعطيها بشار ورفعت من ذكره .

☆☆☆

وأما هجاء بشار فقد كان مقذعا ، وقد علمت أن الحامل له عليه أوّلا ما يضمره للناس من ضغينة وما ينطوى عليه لهم من نفور ، فهو من أجل هذا يجد فى نفسه الدافع إلى هجائهم لا يتكلف ذلك ، ولا يغالبه طبعه فيه ، إذ كان الشر مركباً فى ذلك الطبع والحقد يملأ هذا الصدر . فلذلك كان يهجو لأهون الأسباب بل لغير سبب ، إلا أن القافية احتاجت إلى اسم فهو يضعه فيها غير مبال بما يصيب صاحبه الوادع من وخزه ، وما يجرّه ذلك عليه من تسجيل عار وهو لم يجن ذنباً .

وقد سئل عن سبب ميله للهجاء ، فقال : إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المدح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرّم فى دهر اللئام على المديح فليستعدّ للفقر وإلا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى .

ذكروا أن حماراً نهق ذات يوم بقرب بشار ، فخطر بباله بيت ، فقال :

ما قام . . . حمار فامتلا شَــبَقاً إلا تَحَرَّكَ عِرْقٌ فى است تَسْنِيمِ

ولم يكن يريد تسنيما بالهجاء ، ولكنه حين وصل إلى القافية كان قد مرّ به تسنيم ، فسلم ، فضحك بشار وقال فى است تسنيم ، فلما علم تسنيم بالحادث قال : أما عنــــدك فرق بين صديقك وعدوّك ؟ ألا قلت فى است حماد الذى فضحك وأعياك ، وليست قافيتك على الميم فأعذرك ؟ فقال بشار : صدقت فى هذا كله ، ولكن الذى جرّ عليك هذا تسليمك علىّ حين طلبى للقافية ، فقال تسنيم : إذا كان هذا فلا سلم الله عليك ، ولا على حين سلمت عليك فجعل بشار يصفق وتسنيم يشتمه .

وكان يهجو لأهون الأسباب ، فقد قدم صديق له يسمى كردى بن عامر من مكة ، فلم يهد لبشار شيئاً فكتب إليه :

ما أنت يا كُرْدِيُّ بالهَشِّ ولا أُبَرِّيك من الغِشّ
لم تُهْدِنا نَعْلاً ولا خَاتَماً من أين أَقبلْتَ؟ مِنَ الحَشِّ؟[١]

وفى هذا ما فيه من استهانته بأمر الدين وجعله الكعبة حشاً .

وكان فتى بالبصرة قد اعتاد أن يرسل إلى بشار فى كلّ عام فى عيد الأضحى أضحية ، وكان أهل البصرة يسمنونها سنة أو أكثر حتى تباع بعشرة دنانير ، ففى عام من الأعوام كلف الفتى وكيله أن يشترى النعجة فاشتراها هزيلة ، وسرق باقى الثمن ، فكتب إليه بشار يتهكم بالهدية :

وهَبْتَ لنا يا فتى مِنْقَرٍ وعِجْلٍ وأكرمَهُمْ أوّلا
وأبْسَطَهم راحةً فى الندى وأرفَعَهُمْ ذِرْوةً فى العُلا
عجوزاً قد اوردها عُمْرُها وأسكنها الدهرُ دارَ البِلَى
سَلُوحاً تَوَهَّمْتُ أن الرِّعاءَ سَقَوْها لِيُسْهِلها الحَنْظَلا[٢]
وأَضْرَطَ من أُمِّ مبتاعها إن اقتمحت بُكْرَةً حَرْمَلا[٣]
فلو تأكل الزبد بالنِّرْسِيانِ وتَدَّمِجُ المِسْكَ والمَنْدَلا[٤]
لما طَيَّبَ الله أرواحها ولا بَلَّ من عظمها اذ أَقْحَلا[٥]

وقد هجا جاره لأنه بعث إليه يطلب ثيابا بنسيئة فلم يصادفها عنده ، فقال يهجوه :

---

(١) الحش (مثلثة) : المخرج (موضع قضاء الحاجة) لأنهم كانوا يقضون حاجتهم بعيدا عن البيوت .
(٢) السلح : هو للبهائم والطير ، كالتغوط للإنسان .
(٣) اقتمح البرّ أو الجوارش : استفها . الحرمل : نبات كالسمسم يعني آكله . ونلاحظ أن كلمة « اقتمحت » وردت فى الأغانى « انتحمت » ولم تفسر لأن معانى المادة لا تناسب المقام . فأدرنا الكلمة على عدة وجوه ثم انتهينا إلى أنها لابد أن تكون محرفة عن « انتمحت » .
(٤) النرسيان: تمر بالكوفة مشهور بجودته ، يقال الزبد بالنرسيان، يضرب مثلا لأجود مأكول . تدمج يريد تتلطخ بهما منغمسة فيهما من قولهم ادمج الشىء فى الشىء إذا دخل فيه واستتر .
(٥) الأقحل : الشديد اليبوسة .

ألا إن أبا زيد زنى فى ليلة القَدْر
ولم يَرْعَ تعالى الله ربى حُرْمَةَ الشَّهْرِ

واستمنح العباس بن محمد بن علىّ فلم يمنحه ، فقال يهجوه :

ظِلُّ اليسار على العباس ممدود وقلبُهُ أبداً بالبُخْلِ معقودُ
إنّ الكريم ليخفى عنك عُسْرَتَهُ حتى تراه غَنِيًّا وهو مجهود
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ زُرْقُ العُيونِ عليها أوجهٌ سُودُ(١)
إذا تكرَّهْتَ أن تُعْطِى القليلَ ولم تَقْدِرْ على سَعَةٍ لم يَظْهَرِ الجُودُ
أَوْرِقْ بخير تُرَجَّى للنوال فما تُرْجَى الثمارُ إذا لم يُورِقِ العُودُ
بُثَّ النوال ولا تمنعك قِلّتُه فكلُّ ما سَدَّ فقرا فهو محمود

ولما مدح المهدى فحرمه الجائزة هجاه بقوله :

خليفةٌ يَزْنِى بعمّاته يلعب بالدَّبُّوق والصَّوْلجَانْ(٢)
أبدلنا الله به غيره ودَسَّ موسى فى حِرِ الخَيْزُرَانْ

وأنشدهما فى حلقة يونس النحوى ، فسعى به إلى يعقوب بن داود ، وكان قد هجاه من قبل لما أخر دخوله على المهدى ، فقال :

بنى أمية هُبُّوا طال نومُكُمُ إنّ الخليفةَ يعقوبُ بن داوُد
ضاعت خلافتُكُمْ ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزِّقِّ والعُودِ

فدخل يعقوب على المهدى وتلطف حتى أبلغه هجاء بشار له ، فكاد ينشق غيظاً ، وعمد إلى الانحدار إلى البصرة للنظر فى أمرها وما وكده غير بشار ، فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً فى الضحى ، فإذا بشار يؤذن وهو سكران ، فأتى به وشهد الشهود عليه بالزندقة ، فضرب سبعين سوطاً مات فى أعقابها ، وكانت وفاته سنة ١٦٨ هـ ، وقد أوفى على السبعين أو التسعين .

---

(١) يقول إن البخيل يمتنع عن العطاء ويذكر عللا قبيحة غير مقبولة كما لايحسن فى الناس أن ترى عيونا زرقاء على وجوه سوداء .

(٢) الدبوق : لعبة للصبيان . الصولجان : المحجن ، وهو العصا المحقوفة (الملتوية) .

ولكنّ بشاراً مع هذه الجرأة فى الهجاء من ناحية كان جبانا يفرق من الهجاء إذا وجه إليه و يفتدى من ذلك بماله أو بمداراة من توهم أنه سيوجعه بميسمه . وفى عطائه لأبى الشمقمق رائحة الخوف إلى جانب الرحمة لرقة حاله ، فإنه لما تأخر عليه فى بعض السنين هدّده بالهجاء ، فأظهر بشار عدم الاكتراث ، فلما قال فيه :

إنى إذا ما شاعر هجانيه ... ولَجَّ فى العَذْلِ له اسانيه

أدخلته فى أست أمه علانيه ... بشار يا بشار . . . . .

فلما أراد أن يقول : يا ابن الزانية وثب بشار وأمسك بفمه ، ثم دفع إليه مائتى الدرهم التى كان يجريها عليه كلّ عام وقال : لا يسمع هذا منك صبيان البصرة .

وحديثه مع حمدان الخراط الذى طلب إليه أن يرسم له فى جام صور طيور تطير ، فلما حمل ذلك إليه قال له : كان ينبغى أن تجعل جارحا يحلق فوقها كأنه ينقضّ عليها ، فإنه كان أحسن ، ولكنك علمت أنى أعمى لا أبصر شيئاً وهدّده بالهجاء ، فقال له حمدان : لا تفعل فإنك تندم ، فقال : وما تفعل ؟ قال أصوّرك على باب دارى ، وأصوّر وراءك قرداً يفعل بك الفحشاء ، فقال بشار : اللهم اخزه ، أنا أمازحه ، وهو يأبى إلا الجد !!

⁂

أما الغزل فقد كان أظهر ما فى شعر بشار من الشناعة ، فإنه هو الذى جعل المتورّعين وأولياء الفتيات والفتيان يهتفون ببشار ، و يسعون به لدى الخليفة ، وقد حداهم ذلك أكثر مما حداهم الهجاء ، فإن الهجاء ليس ضرره واقعاً إلا على المقول فيه ، على أنه لا يقدح فى الشرف ، ولا ينال من الكرامة إلا من ناحية تناول السقاط من الناس له ، وهتفهم به وتعييرهم من قيل فيه ، فأما الغزل فجريرته على الأخلاق ، وجنايته على الشرف الحقيقى ، و إذاعته للفجور ، ومساعدته لطيش الشباب ، وجنون الصبا ، ضرر بالغ يزرى بقدر أمة لا قبيلة ، و يطأطئ رأس أسرة لا فرد ، وعاره باق ، ومسبته متوارثة . هذا هو خطر الغزل المغرى للفتاة والفتى وهو غزل بشار لذلك نرى أن المهدى

حين غضب عليه لم يغضب إلا من تشبيبه وحين نهاه لم ينهه إلا عن التشبيب .

وقد سأل بعضهم أبا عبيدة فقال : ما أحسب هذا (يريد بشاراً) أبلغ فى تلك المعانى (يريد التشبيب) من كثير وجميل ، وعروة بن حزام ، وقيس بن ذريح ، وتلك الطبقة ، فقال أبو عبيدة : ليس كلّ من يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منها ، وبشار يقارب النساء حتى لا يخفى عليهنّ ما يريد ، وأىّ حرّة حصان تسمع قول بشار ، فلا يؤثر فى قلبها فكيف بالمرأة الغزلة . وكأن أبا عبيدة إنما يريد أن يفرق بين شعر هؤلاء وشعر بشار ، بأن بشاراً يخالط النساء ويوضح لهنّ شعره . وليس هذا هو السرّ فى شناعة شعر بشار ، وليس شعر من سبقه غامضاً حتى يفوت الناس معناه حين يفوتهم لفظه ، وإنما السرّ فى ذلك هو ما تعرفه من قراءتك لشعر بشار فقد رققه أوّلا حتى حببه إلى النفوس ، فصار كلّ فتى وفتاة يرويه ، ولا يرى فى لفظه استعصاء ، بل هو ككلام الناس سهولة وليانا ، وهذا خبث من بشار عمد إلى غزله وهجائه ، فرققهما لهذه الغاية حتى يشيعا فى الناس ويقبل عليهما الجاهل والعالم ، وسبب آخر فى شيوع الفاحشة بشعر بشار هو أنه هوّن أمر الحبّ على المحبين ، وأطمع الطالب فيما يحاول من أمر النساء حين يقول :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخَبَّأَةٍ   قولٌ تُغَلِّظه وإن جَرَحا
عُسْرُ النساء إلى مُيَاسَرةٍ   والصعب يُمكِنُ بعد مَا جَمَحا

فانظر كيف كان لهذا القول من أثر فى نفس فتى من الفتيان عشق فتاة فكلمها ، فلم تلتفت إليه ، فهمّ يتركها يأساً ، فذكر قول بشار هذا ، فعاد إليها ولازمها حتى بلغ حاجته ، فحلف ليدفعنّ إلى صاحب الشعر مائتى دينار فجاء بها إلى بشار .

ثم انظر إلى قوله :

قد لامنى فى خليلتى عُمَرُ   واللَّوْمُ فى غير كُنْهِهِ ضَرَرُ
قال أفِقْ قلت لا فقال بلى   قد شاع فى الناس منكما الخبر
قلت وإذْ شاع ما اعتذارك مما   ليس لى فيه عندهم عُذُر

ماذا عليهم ومالهم (خَرِســـوا) لو أنهم فى عيوبهـــم نظروا
أعشَقُ وحدى ويُؤْخَذُون به كالترك تغزو فتؤخـــذ الخزَرُ[1]
يا عجباً للخـــلاف يا عجبا بنى الذى لام فى الهوى الحَجَـــرُ
حسبى وحَسْبُ الذى كَلِفْتُ به منى ومنه الحديثُ والنظرُ
أو قُبْـــلَةٌ فى خلال ذاك وما بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لى الأزُرُ
أو عَضَّـــةٌ فى ذراعها ولها فوق ذراعى من عَضِّها أثَرُ
أو لَمْسَةٌ دون مِرْطِها بيَدِى والبابُ قد حال دونه السُّـــتُرُ[2]
والســـــــاق برّاقَةٌ مُخَلْخَلُها أو مَصٌّ ريق وقد علا البُهُرُ[3]
واسترْخَت الــكَفُّ للعراك وقا لت إيه عنى والدمعُ ينحدر
إنهضْ فمـا أنت كالذى زعموا أنت وربى مُغـــازِلٌ أشِرُ[4]
قد غابت اليوم عنك حاضنتى واللهُ لى منك فيـــك ينْتَصِرُ
يا رَبِّ خُذْ لى فقد ترى ضَرَعِى من فاســـقٍ جاء ما به سَكَرَ
أهْوَى إلى معْضَـــدى فرضّضَهُ ذو قوّة ما يطاق مُقْتَدِر[5]
ألصق بِى لحيـــة له خَشُنَتْ ذات ســـــواد كأنها الإبَرُ
حتى علانى وأسْرَتى غَيَبٌ وَيْلِى عَلَيْهِمْ لَوْ أنّهُمْ حضروا[6]
أقسم بالله لا نجَوْتَ بهـــــا فاذهب فأَنت المُساوِرُ الظَّفِرُ
كيف بأمى إذا رأت شَـــفَتِى أم كيف إن شاع منك ذا الخبر

---

(١) الخزر : قوم من الترك . والمعنى أن الترك يغزون فيؤخذ الخزر بذنبهم (كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع) .

(٢) المرط : كساء من صوف أوخز يؤتزر به .

(٣) البهر (بالضم) تتابع النفس من الإعياء . وقد اتبعت هنا ضمة العين لضمة الفاء .

(٤) أشر : مرح .

(٥) العضد : دملج يلبس فى العضد ، والمراد هنا موضعه من العضد .

(٦) غيب (بالتحريك) : غائبون .

قد كنت أخشى الذى ابتليتُ به ... منك فماذا تقول يا عَبَرُ[1]

قلت لها عند ذاك ياسكني ... لا بأس إني مجرِّبٌ خَبِرُ

قولى لها بَقَّةٌ لها ظُفُرٌ ... إن كان فى البَقِّ ماله ظُفُرُ[2]

فكيف ترى لومه للأئمه وتخطئتهم فيما شغلوا به أنفسهم من أمر حبه . ثم إنه ينتقل إلى مايجرى بين الحبيبين من النظر والحديث ، ثم القبلة ، ثم حلّ الإزار ، وهذا عنده لا بأس به ، ثم يصف سائر أنواع التجميش ، ثم يصف انتباهة الفتاة من سكر صبوتها ، وأنها حارت فى أمره ، واضطربت لما خطر لها من مفاجأة أهلها وهى على هذا الحال . ثم هى تحاوره فى أمر العضة ، وما بان من أثرها فى شفتها ، فيستهتر ويستهين بهذا الميسم الباقى ويمزح ، فيقول لها : قولى لأمك إن بقة لها ظفر خدشتنى .

فتراه قد رسم فى هذه القصيدة سبيل الغواية من لدن شفيرها إلى مقرّ هاويتها . فماذا يكون شأن الفتاة أو الفتى إذا ترنما بهذا الشعر ، أو سمعاه من مغنية تتخنث فيه وترجع ألفاظه ، ألا يبقيان دائما على ذكر من وسائل الفجور وأسبابه ؟ أو ليس فى ذلك أكبر ضرر على الأخلاق حين يعمد شاعر كبشار إلى الشعر ، وهو أحبّ شيء إلى نفس العربى والعربية ، فيرققه حتى يجعله ماء جاريًا يسوغ مع الرّيق ، ثم يلهب العاطفة بمثل هذه المعانى الفاجرة . قاتله الله لقد كان شيطانًا ماردًا سلط على الأخلاق فأفسدها ، لولا أن تدارك الله الناس بحزم الخليفة ، فقضى عليه وعلى ضلالته .

ولم يكن بشار من صناع الغزل الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيبقى قولهم رسومًا على الأوراق وألفاظًا على الأفواه لا حرارة لها ، ولكنه عاشق غزل ، وفاتك جرىء ، يحبّ الغوانى وإن لم يرها ، ويفتح داره للنساء يومين فى كلّ أسبوع يجتمعن معه فيأخذن ما شئن من شعر يصنعه للغناء أو الرثاء ، وهو فى هذه المجالس مؤتنس بالحديث مستخلص لنفسه من يقع حبها فى قلبه فهى إما مطاوعة وإما كارهة ،

---

(١) العبر (مثلث الأول ساكن الثانى، أو تحرك الباء بحركة العين) : الجرىء .

(٢) البقة : البعوضة .

ووسائله كثيرة يجعل منها الهجاء للأبية حتى تسلس له ؟ وهكذا كان له من دينه المزّق عون على إجابة نزعته الخبيثة .

وأشهر من أحبهنّ عبدة التي يقول فيها :

يُزَهِّدُنِي فى حُبِّ عَبْدَةَ مَعْشَرٌ ... قلوبُهُمُ فيها مخالفةٌ قَلْبِي

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يُبْصِرُ ذو الحب

فما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الأُذْنان إلا من القَلْبْ

وما الحسنُ إلا كلُّ حسن دعا الصِّبا ... وألف بين العِشْق والعاشق الصَّبِّ

وقوله :

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أَنَمْ ... ونَفَى عنى الكرى طَيْفٌ أَلَمْ

وإذا قلت لها جُودِى لنا ... خَرَجَتْ بالصمتِ عن لا وَنَعَمْ

رفِّهى ياعَبْدَ عنِّى واعلمى ... أننى ياعبدَ من لَحْمٍ وَدَمْ

إنّ فى بُرْدَىَّ جسما ناحلا ... لو تَوَكَّأْتِ عليهِ لانهدمْ

الآراء فى بشار

يكاد الأدباء ورواة الشعر ونقدته فى زمن بشار ، و بعده يجمعون على فضله فى الشعر من حيث رقّ المعنى وحسن السبك والبلاغة . فيقول الأصمعى : بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم . وكان يقول : كان مطبوعا لا يكلف طبعه متعذراً ، لا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، و يقول أبو عبيدة : حكم بشار لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ، ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد ، وما أحسبهم برزوا فى مثلها ، وقال الجاحظ : كان بشار شاعراً خطيباً ، صاحب منثور ومزدوج ، وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المفتنين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه

وضروبه ، قال الشعر فى حياة جرير ، فعرض له . وحكى عنه أنه قال : هجوت جريراً فأعرض عنى ، ولو هاجانى لكنت أشعر الناس .

وقال علىّ بن المنجم : سمعت من لا أحصى كثرة من الرواة يقول : أحسن الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول :

أَلاَ عِمْ صباحا أيها الطلل البالى　　وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُر الخالى[1]

وحيث يقول :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفى الإسلام القطامى حيث يقول * إنا محيوك فاسلم أيها الطلل *

ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أَبَى طَلَلٌ بالجِزْعِ أن يتكلما　　وماذا عليه لو أجاب مُتَيَّماَ

وبالفُرْعِ آثارٌ بَقِينَ وباللِّوَى　　ملاعبُ لا يُعْرَفْنَ إلاّ تَوَهُّمَا[2]

ولم تخف على بشار منزلته ، بل كان يقول : لى اثنا عشر ألف قصيدة أما فى كل قصيدة منها بيت جيد ، وكان يقول أزرى بشعرى الأذان (يريد أنه إسلامى ولو تقدم به الزمن لكان من فحول الجاهليين) ، وقال له بعضهم : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وأنه ليس فى شعرك ما يشكّ فيه . قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطإ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت فمن أين يأتينى ؟ .

ولقى رجل أبا عمرو بن العلاء (وهو من تعرف زراية على الحديث ومقتاله) ، فقال له : يا أبا عمرو من أبدع الناس بيتاً ؟ قال الذى يقول :

---

(١) عم صباحا : تحية جاهلية كأنه محذوف من نعم ينعم (بكسر العين فيهما) . كما يقال كل من أكل يأكل . العصر : (بضمتين) لغة فى العصر (بالفتح). الخالى : الماضى .

(٢) الفرع (بالفتح أو الضم) : بلدة بينها وبين المدينة ثمانية أميال .

لم يطل ليلي ولـكن لم أنم ونفى عنى الـكرى طيف ألم
روّحي عنى قليلا واعلمي أنني ياعبدَ من لحم ودم

قال فمن أمدح الناس ؟ قال الذي يقول :

لست بكفي كفه أبتغي الغـنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

قال فمن أهجى الناس ؟ قال الذى يقول :

رأيت السُّهَيْلَيْنِ استوى الجود فيهما على بعد ذا من ذاك فى حكم حاكم
سهيـل بن عثمانٍ يجود بمـاله كما جاد بالوَجْعا سهيل بن سالم[1]

قال : وهذه الأبيات كلها لبشار .

ولقد كنا فى غنى عن هذه الشهادات لولا أننا لا نجد من شـعر بشار مادة كثيرة نستطيع أن نحكم بها عليه، لذلك احتجنا إلى أقوال هؤلاء الذين خالطوه ولابسوه ، فقولهم فى بشار حجة لمن لايرى فى آثاره ما يكفى للحكم عليه .

على أنه إذا استدلّ بالقليل على الـكثير فإن شـعر بشار مثال الرصانة والمتانة ، فهو بدوىّ لولا ما عليه من حلية الحضارة ، جاهلىّ لولا ما سرى فيه من روح الحـكمة وثقافة التعليم ، ثم هو مخترع لـكثير من المعانى ممـا جعله إمام المحدَثين ومقدمهم وأسبقهم إلى طرق:أبواب المجون والخلاعة ، والغزل الرقيق الحضرى،والهجاء المقذع. ثم إنه أوّل من تعاطى البديع ، فجمع بين جزالة العرب ورقة المحدثين .

حياة أبى العتاهية

[نسبه] : هو إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسان مولى عَنَزة ، وكنيته أبو إسحق ، وأمه أم زَيْدٍ بنت زيادٍ المحاربى مولى بنى زُهْرة .

(١) الوجعا : مقصور الوجعاء ، وهى الدبر .

وقد ذكر محمد بن أبي العتاهية أن جدهم كَيْسان كان من أهل عين التمر ، وهى بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة غزاها خالد بن الوليد أيام أبى بكر رضى الله عنه ، فجىء به صغيراً يتيما إلى أبى بكر ، وكان بحضرته عَبّاد بن رِفاعة العَنَزِىّ ، فلما عرف أنه من عَنَزة استوهبه من أبى بكر ، فوهبه له فأعتقه ، فصار ولاؤه فى عَنَزة منذ ذلك الحين .

ومن ذلك يتضح أن أبا العتاهية من أصل عربى ليست آباؤه أعلاجا ، وقد حدّث أن رجلا من أهل الكوفة سبّه يوما بأنه نبَطى ، فجرت بينهما مشاجرة سال فيها دم أبى العتاهية ، فأقبل على سيدى عَنَزة إذ ذاك وهما مَندل وأخوه حيان ، فشكا لهما ما يتهمه به هذا الرجل ، وقال لهما : إن كنت نبَطياً هربت على وجهى وإلا فخذا لى بحقى ، فقام معه مَنْدل وما تعلق نعله غضباً وقال : والله لو كان حقك على عيسى ابن موسى (والى الكوفة إذ ذاك) لأخذته لك منه ومرّ معه حتى أخذ حقه .

ولم تصحب أبا العتاهية هذه الكنية منذ نشأته ، ولكنها جدّت له بعد أن قال الشعر وعرف شأنه . فقد ذكروا أن المهدى قال له يوماً : أنت إنسان متحذلق معته . فاستوى له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه ، ويقال للرجل المتحذلق : عتاهية . وذكر صاحب لسان العرب أنه إنما لقب بذلك لأن المهدى قال له : أراك متخلطا متعتها ، وكان قد تعته بعُتْبة جارية المهدى. وقيل لقب بذلك لأنه كان طويلا مضطرباً.

وكان أبو العتاهية من أهل المذار ، وهى بلدة بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام . وإن أباه انتقل به إلى الكوفة . وكانت صناعة أبيه عمل الجرار فنشأ فيها أبو العتاهية.

وحديث اشتغاله بهذه الصناعة مضطرب مختلط ، فيقول بعضهم : إنه كان له ولأخيه زيد ، عبيد يعملون لهم الخزف فى أتون لهم ، فإذا اجتمع منه شىء ألقوه على أجير لهم يقال له أبو عباد ، فيبيعه على يديه ويردّ إليهم فضله ، وقيل : بل الذى كان يفعل ذلك أخوه زيد لاهو . وقد سئل عن ذلك أبوالعتاهية ، فقال : أنا جرار القوافى ، وأخى جرار التجارة . ويحدّث بعض أنه شاهد أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث

والمتأدبون فينشدهم أشعاره فيأخذون الخزف المتكسر ، ويكتبون فيه ما يسمعون منه .
ويحدّث آخر فيقول : إن أبا العتاهية كان يجتاز أسواق الكوفة وعلى ظهره قفص فيه فخار فيبيع منه ، وقد مرّ بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فسلم ووضع القفص عن ظهره وقال : يافتيان أقول شعراً ولكم إن أجزتموه عشرة دراهم ، وإن لم تفعلوا فعليكم مثلها ، ثم قالوا : قل ولك شرطك ، فقال :

ساكنى الأحداث أنتم . . . .

وجعل بينه وبينهم وقتا فلم يفتح عليهم بشىء ، فتممه هو وقال :

. . . . مثلنا بالأمس كنتم

ليت شعرى ما صنعتم أربحتم أم خسرتم

والذى نقوله : انه لا طائل تحت هذا الخلاف ، فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ، وليس بعجيب أن ينشأ أبو العتاهيـة فى عمل الجرار ، ويكون شابّا يبيعها ، ويدور بها فى الأسواق ، ثم هو بعد ذو موهبة شعرية شاء الله أن تظهر ، وأرادت عناية الخلفاء بالشعر واحتفالهم بشأنه أن يصبح أبو العتاهية جليسهم ونديمهم ، بل تصير له عليهم دالة فيشبب بجارية المهدىّ ولا يغير عليه ، ويشتدّ به العناد فيخالف رغبة الرشـيد ، ويمتنع عن قول الشعر ، ويهتمّ لذلك الرشيد ، ويقلق ويحتال لأن يعود أبو العتاهية إلى سيرته فى قول الشعر فيأبى أوّلا ، ثم يقول فى الزهد لاغير ، وكانت رغبة الرشـيد أن يعود إلى الغزل فلم يفعل .

فليس بعجيب أن ينبغ أبو العتاهية فى الشعر وليست له سابقة فى التعليم ، خصوصا إذا علمنا أنه عربىّ لايحتاج فى اللغة إلى تعلم ولامعاناة دراسة . فأماموهبة الخيال ، فهى سهلة المئونة ميسورة التحصيل .

ولم يرووا لأبى العتاهية شيئاً من شعر الصغر كما فعلوا بأبى نواس وبشار وغيرهما ، وهذا يرجح فى نظرنا أنه لم يقل الشعر إلا وقد تقدم فى السنّ . فعلى هـذا يكون أحد

الشعراء الذين استحقوا لقب النبوغ فى الشعر ، فيكون كالذبيانى والجعدى

أوصافه ومعتقده

ذكروا من أوصافه الجسمية: أنه كان طويلا، دقيق العظام، خفيف اللحم ، أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وفرة جعدة ، وهيئة حسنة . وكان مما يرى عليه فى حياته التقشف الزائد ، حتى كان أكثر حياته يلبس الكرابيس[1] أو خشن الشعر والصوف ، وربما غلا فلبس قَوْصَرَّتين[2] يثقب إحداهما فيخرج منها رأسه ويديه ، ويقيم الأخرى مقام السراويل ، ويجتزئ بخبز الشعير ، ويأتدم بالخل ، وإذا قرم اجتزأ بالرءوس ، وهذا منه تقشف مخلوط بالبخل ، لأن داعية التقشف هى الزهد فى الدنيا ، وترك مناعمها ، والصدوف عن محاسنها ، ولكنه جمع إلى التقشف الغرام بالمال ، وتعطيل الحقوق الواجبة فيه من زكاة وترفيه على الأهل والخدم .

وله فى البخل نوادر : ذكروا أنه أنشد يوما ثمامة بن أشرس قوله

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المال نفسه   تملّكه المالُ الذى هو مالكه

ألاَ إنّما مالى الذى أنا منفق   وليس لى المالُ الذى أنا تاركه

إذا كنتَ ذا مال فبادِرْ به الذى   يَحِقُّ وإلاّ استهلكته مهالكه

فقال له : من أين قضيت بهذا ؟ قال من قول رسول الله « إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأبقيت » فقال له : أو تؤمن بأن هذا قول رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بَدْرَة فى دارك ولا تأكل منها ولا تزكى ولا تقدمها ذخرا ليوم فقرك وفاقتك ؟ قال : والله إنّ ماقلت هو الحق ولكن أخاف الفقر ، فقال له : وهل تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص والجمع ، شحيح على نفسك لاتشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فقال له :

(١) الكرابيس : جمع كرباس ، وهو ثوب من القطن الأبيض .
(٢) القوصرّة : وعاء التمر .

والله لقد اشتريت يوم عاشوراء لحما وتوابله بخمسة دراهم، قال ثمامة: فأضحكني قوله حتى أذهلني عن إجابته وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

وحدّث ثمامة أيضاً الجاحظ ، فقال له : دخلت على أبي العتاهية يوما ، فإذا هو يأكل خبزا بلا شيء . فقال له: كأنك رأيته يأكل خبزًا وحده . قال : لا ، ولكني رأيته يأتدم بلا شيء . رأيت قدامه خبزًا يابساً وقدحا فيه لبن حليب ، فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها في اللبن ثم يخرجها ولم تتعلق منه بقليل ولا كثير .

وكان له جار يلتقط النوى ، ضعيف سيء الحال ولكنه متجمل في فقره ، فكان يمرّ بأبي العتاهية طرفي النهار فيقول أبو العتاهية : اللهم أعنه ، واصنع له ، وبارك فيه ، وبقي الرجل على ذلك نحوًا من عشرين سنة إلى أن مات ، وما إن تصدق عليه أبو العتاهية بدرهم ولا دانق . فقال لأبي العتاهية بعض أصدقائه يوما : إني أراك تكثر من الدعاء لهذا الشيخ وتزعم أنه مقلّ فلم لم تتصدّق عليه بشيء ؟ قال: أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن في الدعاء لخيراً كثيراً .

ووقف عليه يوما سائل من العيّارين[1] الظرفاء ، وكان أبو العتاهية في جماعة من جيرانه فسأله دونهم ، فقال له : صنع الله بك فأعاد عليه السؤال كثيراً ، وهو يردّ عليه بمثل ذلك ، فقال له السائل : ألست القائل :

كلُّ حيٍّ عند ميتَتِهِ حظُّهُ من ماله الكفَنُ

ثم قال له : هل تريد أن تجعل مالك كله للكفن ؟ قال : لا . قال : فبالله كم قدّرت لكفنك ؟ قال : خمسة دنانير . قال : فهي إذًا حظك من مالك ؟ قال : نعم . قال : فتصدّق عليّ من غير حظك بدرهم واحد . قال : لوتصدّقت عليك لكان حظي . قال: فاعمل على أن ديناراً من الخمسة وَضِيعَتُهُ[2] قيراط فادفع إليّ قيراطاً واحداً . وإلا فواحدة أخرى . قال : وما هي ؟ قال : القبور تحفر بثلاثة دراهم فأعطني درهما وأقيم لك

---

(١) العيار : الكثير الطواف ، والذى يتردد بلا عمل .

(٢) الوضيعة : الحطيطة .

كفيلا بأنى أحفر لك قبرك متى متّ وتربح درهمين فإن لم أحفر رددته على ورثتك ، أو ردّه وكيلى ، فخجل أبو العتاهية وقال : اعزب لعنك الله وغضب عليك ، فضحك جميع من حضر ومرّ السائل يضحك . فالتفت أبو العتاهية إلى جيرانه وقال : من أجل هـذا حرمت الصدقة ، فقالوا له : ومن حرمها ومتى حرمت ؟ فما رأينا أحداً ادعى ذلك قبلك ! !

وقيل له : هل تزكى مالك ؟ قال : والله ما أنفق على عيالى إلا من زكاة أموالى ، فقيل له : سبحان الله ! إنما ينبغى أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال : لو انقطعت عن عيالى زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم .

⁂

أما معتقده فأصدق مايوصف به أبو العتاهية : أنه كان مضطرب المزاج ، مبلبل الخاطر ، لا يميل إلى رأى إلا ريثما يتحوّل عنه إلى غيره ، وكان يعتقد المعتقد ، فإذا سمع طاعنا عليه ترك اعتقاده وأخذ بغيره ، ذكروا أنه كان يتشيع على مذهب الزَّيْدِيّة البَتَرِيّة (١) لا يتنقص أحـداً ، ولا يرى الخروج على السلطان ، وكان مُجْبَرًا (٢) مرّة ومعتزلياً أخرى .

وكان اضطرابه فى معتقداته صورة من اضطرابه فى حياته ، وذلك نتيجة تركيب خاصّ فى مزاجه ، فإن من غلبت عليه السوداء تنقل من أحواله بين الأضداد وبالغ فيما يأتيه أتمّ مبالغة ، فهو مثلا: إما نشيط إلى درجة الجنون ، وإما كسلان إلى قريب من الجمود أو الموت . وهكذا كان أبو العتاهية ، فقد كان ماجنا مفككا حتى كان يحمل

---

(١) الزيدية: فرقة نسبت إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب تقصر الامامة على أولاد فاطمة ولا تجيزها فى غيرهم . والبترية : طائفة منهم أصحاب (كثير النوى) الأبتر ، توقفوا فى أمر عثمان أهو مؤمن أم كافر ، وفضلوا عليا على جميع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أجبرته : نسبته إلى الجبر ، وهو القول بأن العباد مجبورون على أفعالهم .

زاملة[1] المخنثين بالكوفة ويتبعهم ، ثم صار عاشقاً مدلها ، ثم انتهى إلى النسك الذى حرّم معه قول الشعر جملة ، ثم عاد منه إلى الزّهد تاركاً الغزل والهجاء .

والذى يظهر أيضاً أن لجهل أبى العتاهية أثراً فى تردّده بين المذاهب حتى كان أقل طعن فى المذهب الذى يدين به يدعوه إلى هجرانه والبحث عن غيره ، وهذا شأن المقلد الذى لا يرجع إلى عقيدة راسخة ورأى يدعمه بالبرهان ، ويستخلصه بمحض فكرته .

هـــذا ومما يؤيد رأينا الذى قلناه من أنه نبغ فى الشعر بعد أن نشأ فى العامية ، ولقد عرف معاصروه عنه هذا الجهل ، فقد قال له أحد جيرانه مرّة : لاتصلّ خلف فلان فإنه مشبه ، فقال : كلا ، إنه قرأ بنا البارحة : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » . قال صاحبه : فعرفت أنه أجهل الناس حين ظنّ أن المشبه لا يقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » .

وكان أبو العتاهيـــة كثيراً ما يعارض ثمامة بن أشرس ، فقال له يوما بين يدى المأمون أسألك عن مسألة ، فقال له المأمون : عليك بشعرك ، فقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى مساءلته ويأمره بإجابتى ، فقال : أجبه يا أشرس ، فقال أبو العتاهية ، (وهو فى هذا يعبر عن رأيه فى الجبر) : إن كلّ ما يفعله العباد من خير وشرّ فهو من الله وأنت تأبى ذلك ، فمن حرك يدى هذه وجعل يحرك يده ؟ فقال له ثمامة : حركها من أمه زانية . قال : شتمنى والله يا أمير المؤمنين ، فقال ثمامة ناقض قوله ! ! فضحك المأمون وقال : ألم أقل لك أن تشتغل بشعرك وتدع ما ليس من عملك .

علاقته بالخلفاء وغيرهم

نشأ أبو العتاهية بالكوفة كما علمت ، وما زال حتى اشتهر بالشعر فقصد بغداد ، وهى كعبة كلّ نابغ فى أىّ ناحية من نواحى النبوغ ، وفيها اتصل بالمهدى وزادت علاقته به ، حتى صار يخرج معه فى نزهاته للصيد وغيره ، وبلغ من أنس المهدى أنه طالبه

(١) المزملة : جرة يبرّد فيها الماء ، ولعل الزاملة محرفة عنها ، أو هى عاميتها عند أهل الكوفة .

بأن يهجوه لأن غرامه بالصيد عرضه للهلاك مرّة ، وكان معه أبو العتاهية فأضافهما ملاح ، وكاد المهدى يموت برداً ، فامتنع أبو العتاهية حتى ألحّ عليه المهدى . فقال :

يالَابسَ الوَشْيِ على ثَوْبِهِ   ماأقبحَ الأَشْيَبَ فى الرَّاحِ

فقال : زدنى بحياتى ، فقال :

لو شئتَ أيضاً جُلْتَ فى خامة   وفى وِشاحَيْنِ وأَوْضاحِ[1]

فقال : ويحك ! هذا معنى سوء يرويه عنك الناس . زدنى ، فقال : أخاف أن تغضب فقال : لا ، فقال :

كم من عظيم القدر فى نفسه   قد نام فى جُبَّـــة مَلَّاحِ

وبلغ من منزلته فى بيت المهدى أن المنصور بن المهدى خطب إليه ابنته المسماة «لله» ، وكان له بنتان هذه ، وأخرى اسمها « بالله » ، فلم يقبل أن يزوّجه وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبى العتاهيـــة وكأنى بها قد ملها ، فلم يكن لى إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوّجها إلا بائع جرار ، ولكنى أختاره لها موسراً .

كما بلغ من دالته على المهدى أن أحبّ عتبة جارية الخيزران ، وأكثر من ذكرها فى شعره ، فلما همّ المهدى باستنزال سيدتها عنها ليهبها له ، استغاثت السيدة والجارية بالمهدىّ فألهاه عنها بالمال ، ولكنه لم يفتر عن ذكرها .

وكان الهادى والرشيد يتنافسان فى تقريبه أيام أبيهما ، وكان صغو أبى العتاهية مع الرشيد ، فكان الهادى عاتباً عليه ، فلما ولى الخلافة لم يكن أسرع من رضاه عنه بعد أن مدحه بقوله :

يضطرب الخوف والرجاء إذا   حَرَّكَ موسى القضيبَ أو فَكَّرْ
ما أبين الفضـــل فى مغيب ما   أَوْرَدَ من رأيه وما أَصْـــدَرْ
فكم ترى عَزَّ عنـــد ذلك من   مَعْشَرٍ قوم وذَلَّ مِن مَعْشَرْ
يُثْمِرُ من مَسِّـــه القضيبُ ولو   يمســـه غيره لما أثمر

---

(١) الخامة : ثوب من قطن لم يغسل . الأوضاح : حلىّ من فضة ، أو الخلاخيل .

مَنْ مثلُ موسى ومثلُ والده الـمهدى أو جَـدِّه أبى جعفر

ولما ولى الرشيد الخلافة كان له مع أبى العتاهية حديث طويل . فقد بلغ من ملازمته له أنه لم يكن يفارقه فى سفر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يجرى عليه كلّ سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعاون . وقد بلغ من إعجاب الرشيد به أن حرم جميع الشعراء مرة ، ولم يعط إلا أبا العتاهية حين أنشده :

يا من تُبَغِّى زمنا صالحاً صلاح هٰرون صلاح الزمن

كلُّ لسان هو فى ملكه بالشكر فى إحسانه مُرْتَهَنْ

وكان لهٰرون ابن يسمى القاسم ، وكان من أتيه الناس ، فمرّ يوما فى موكب عظيم بأبى العتاهيـة ، فقام له إعظاماً ، فلم يزل قائمـا حتى جاز ، فلما لم يلتفت إليه . قال أبو العتاهية فيه :

يَتيـه ابنُ آدم من جهله كأنّ رَحَى الموت لا تَطْحَنُهْ

فلما بلغ ذلك القاسم أحضره وضربه مائة مقرعة وحبسه فى داره ، فلما ضاق عليه الحبس أرسل إلى زبيدة ، وكانت توجب له حقه ، هذه الأبيات :

حتى متى ذو التِّيه فى تِيهِهِ أصلحـه اللّٰهُ وعافاه

يتيه أهل التيه من جَهْلِهِمْ وهم يموتون وإن تاهوا

من طلب العزّ ليبقى به فإن عزّ المرء تقواه

لم يعتصم بالله من خلقه من ليس يرجوه ويخشاه

ووصف لهـا ضيق حبسه ، فرقت له وأخبرت الرشيد بأمره ، فأحضره وكساه ووصله ، ولم يرض عن القاسم حتى برّه واعتذر إليه .

وفى أيام الرشيد عرضت لأبى العتاهية حال تزهد بعدها . وذلك أنه طلب من مخارق المغنى أن ينقطع إليه يومًا ليغنيه فى شعره ، فمـا زال يغنيه حتى صارت العتمة ، ثم أمر أبو العتاهية ابنه وغلامه ، فكسرا آنية الشراب وآلة الغناء ، ثم أمر بإخراج ماعنده من النبيذ وصبه وصار يبكى حتى لم يبق من ذلك شىء ، ثم غسل ثيابه واغتسل

ولبس ثيابًا من صوف أبيض وأعلن تنسكه ، وامتنع عن قول الشعر وحضور المنادمة ، فشقّ ذلك على الرشيد ، ولما لم يفلح فى ردّه عن هذه الحال أمر بضربه ستين عصا وسجنه ، وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول الشعر فى الغزل ، فلما رفعت المقارع عن أبى العتاهية قال : كلّ مملوك له حرّ ، وامرأته طالق إن تكلم سنة إلا بالقرآن ، أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، فكأن الرشيد تحزن مما فعله ، فأمر أن يحبس فى دار ويوسع عليه ، ولا يمنع من دخول من يريد إليه فأقام السنة لايَحْنَثُ فى حِلْفَتِه ، وكان أوّل كلامه بعدها قوله فى امرأته :

من لقلبٍ مُتَيَّمٍ مشتاق ... شَفَّه شوقُه وطولُ الفراق
طال شوقى إلى قعيدة بيتى ... ليت شعرى فهل لنا من تَلاقِ
هِىَ حَظِّى قد اقتصرت عليها ... من ذوات العقود والأطْوَاق
جمع الله عاجلا بكِ شَمْلى ... عن قريب وفَكَّنى من وَثاقى

فلما سمع الرشيد الشعر قال لمسرور الخادم : كم ضربنا أبا العتاهية ؟ قال : ستين عصا ، فأمر له بستين ألف درهم وخلع عليه . وكان فى أيام حبسه لا يفتر عن ذكره ويشعر بالحاجة إليه فى مقامات لا يغنى فيها غيره ، فقد كان مرّة يسمع الغناء من جارية ومعه جعفر بن يحيى ، وكان الغناء فى بيت واحد ، فقال الرشيد : ما أحوجه إلى ثان ليطول فيه الغناء فنستمتع مدة ، فقال جعفر : قد أصبته . قال : من أين ؟ قال : تبعث إلى أبى العتاهية فيلحق لك به غيره لقدرته على الشعر ؛ فقال : هو أنكد من ذلك لايجيبنا وهو محبوس ونحن فى نعيم وطرب ، ثم كتب إليه بالقصة ، فكان ردّ أبى العتاهية :

ولقد كلفت أمراً عجباً ... أسأل التفريج من بيت الحزن

فلما وصلت الرشيد قال : قد عرفت أنه لا يفعل ، فقال له جعفر : تخرجه حتى يفعل . قال : لا حتى يَشْعُرَ فقد حلفت ، ثم رضى أبو العتاهية بالعودة إلى قول الشعر تاركا الغزل والهجاء ، واستمرّ على حاله هذه مدّة الأمين وشطراً من أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ هـ ، وكانت ولادته بالكوفة سنة ١٣٠ هـ ، فيكون عمره إحدى وثمانين سنة ، ولكنه يقول فى شعره إنه عاش تسعين حجة كما سيأتى .

وقد بلغ من شأن شاعر كأبى العتاهية أعجب به الخلفاء وأعلوا منزلته أن يتنافس الناس فى الحرص على أن يكون لهم نصيب من شعره ، فمدح الفضل بن الربيع ، وكان قبل ذلك قد مدح الرشيد فأمر له بعشرين ألف درهم ، فلما مدح الفضل ثانى يوم بقوله :

إذا ما كنت متخذا خليلا   فمثلَ الفضل فاتَّخِذِ الخليلا

يرى الشكر القليل له عظيما   ويعطى من مَوَاهبه الجزيلا

أرانى حيثما يمّمتُ طَرفى   وجدت على مكارمه دليلا

فقال له : لولا أن أساوى أمير المؤمنين لأعطيتك مثلها ، ولكن سأوصلها إليك فى دفعات ، وأعطاه فى ذلك اليوم خمسة آلاف درهم .

وكان الفضل بن الربيع من أميل الناس إليه حتى سمعه يتحدث عن البرامكة فتغير عليه ولم ير منه خيراً بعد ذلك . وكانت له منزلة عند عبد الله بن الحسن بن سهل ، وكان يقول : لئن ضرّك عند ابن الربيع ذكر البرامكة لقد نفعك عندنا ، وأجرى له فى كلّ شهر ثلاثة آلاف درهم .

وممن مدحهم يزيد بن مَزْيَد ، ومما قال فيه :

كأنك فى صدرى إذا جئتُ زائراً   تُقدِّر فيه حاجتى بابتدائكا

وإن أمير المؤمنين وغيره   ليعلم فى الهيجاء فضل غنائكا

كأنك عند الكرّ فى الحرب إنما   تَفِرُّ من السلم الذى من ورائكا

فما آفة الأملاك غَيْرُك فى الوغى   ولا آفة الأموال غيرُ حِبائكا

فأعطاه عشرة آلاف درهم ودابة بسرجها ولجامها .

واتصل بعمر بن العلاء ممدوح بشار . ومما قال فيه :

إن المطايا تشتكيك لأنها   قطعتْ إليك سَبَاسِباً ورمالا

فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ خفائفاً   وإذا صَدَرْن بنا صَدَرْن ثِقالا

وكان يزيد بن منصور خال المهدى يحبه ويقربه ويتعصب له ، فلما مات رثاه بقوله :

أَنْعَى يزيد بن منصور إلى البشر   أَنْعَى يزيد لأهل البدو والحَضَرِ

يا ساكنَ الحفرةِ المهجورِ ساكنُها　　بعد المقاصر والأبوابِ والحجرِ

وجدتُ فقدَكَ فى مالى وفى نَشَبى　　وجدت فقدك فى شعرى وفى نَثَرى[1]

فلستُ أدرى جزاكَ اللهُ صالحةً　　أمنظرى اليوم أسْوَا فيك أم خَبَرى

وكان منقطعاً إلى خالد المسكين ابن أبى جعفر المنصور قال : فاستفدت من ناحيته مائة ألف درهم ، وكان لى فى مجلسه مرتبة لا يجلس فيها أحد غيرى .

وقد اتصل بعبد الله بن معن بن زائدة فمدحه وذمه ، وكان سبب ذمه : أن أبا العتاهية كان يهوى امرأة نائحة لها حسن ودماثة ، وكان ممن يهواها أيضاً عبد الله ابن معن . ومما قاله أبو العتاهية فى ذمه بعد أن ضربه عبد الله ومثل به عبيده قوله :

جَلَدَتْنى بكفها　　بنتُ معن بن زائدَهْ

جلدتنى بكفها　　بأبى تلك جَالِدَهْ

وتراها مع الخَصِىْ　　ىِ على الباب قاعده

تَتَكَنَّى كُنَى الرجا　　ل لعَمْدٍ مُكَايدَهْ

جلدتنى وبالغت　　إنما أنتِ والده

وقال فى هذا المعنى أيضاً :

قال ابن معن وَجَلاَ نفسه　　على من الجلوة يا أهلى

أنا فتاةُ الحىِّ من وائل　　فى الشرف الشامخ والنُّبل

ما فى بنى شيبان أهل الحجا　　جاريةٌ واحدةٌ مثلى

ويلى ويالهفى على أمْرَدٍ　　يلصق منى القُرْط بالحِجْلِ

صافحته يوما على خَلْوةٍ　　فقال دع كفى وخذ رجلى

(١) النشب . المال الأصيل من الصامت والناطق . النثر . محركة (للشعر) هو النثر (خلاف الشعر)

شعر أبى العتاهية

سنتناول من شعره أمرين : الأسلوب ، والأغراض .

فأما الأسلوب فهو ذلك السهل اللين الذى بلغ الغاية من اللين والسهولة ، حتى كادت ألفاظه تدقّ عن مخارج الحروف ، فلا تتحرّك بها أعضاء الفم انسياغا وذلاقة ، وتلطف فى الأذن حتى كأنها لا وقع لها عليها .

ولم يأته ذلك الفضل من ناحية الخلوّ من الغريب ، وتوخى الكلمات الخفيفة فحسب ، ولكنه جاءه كذلك من ناحية الملكة الصّناع الحاذقة فى إبراز المعنى فى أشفّ الألفاظ وأقرب الدلالات ، فالحكمة التى لا يستطيع غيره إبرازها إلا فى أسلوب يَكُدُّ له خاطره وخاطر السامع حتى يقرّ معناها فى نفسه ، ويوصل حقيقتها إلى وجدانه ، تراه قد عمد إليها من أيسر نواحيها ، والتمس لها أقرب طرق الأداء ، فاستغنى معناها العظيم بأقلّ لفظ وتراءى فى أسهل تعبير ، ويكاد ينهى إليك المعانى مستقلة بنفسها ، عارية عن ثوب اللفظ ، لو صحّ أن يتماسك ماء بلا إناء ، وإن شئت فقل : إن معناه يجتمع له الوضوح والنصوح ، ويتمّ للفظه الشفوف والصفاء ، فكأنما معنى ولا لفظ كما يرقّ الزجاج وتروق الخمر ، فكأنما خمر ولا قدح ، أو قدح ولا خمر .

وهذه السهولة من السحر الذى كان يرقى به أبو العتاهية جميع الناظرين فى شعره أو السامعين له ، فتراهم وقد ملكهم من الحسن شىء لم يألفوا أن يكون له عليهم سلطان ، فإنما المألوف أن يكون السلطان للفظ الفخم فى الأداء ، البادى الرواء ، الذى عولج بأصباغ البديع ، فبدا عذبًا فى الفم ، حلوًا فى السمع ، فأما اللفظ العطل من الرواء، المؤدّى بلا عناء ، فذلك ما لم تألف النفوس الإعجاب به قبل مذهب أبى العتاهية ، والتماسه الجمال فى البساطة ، والروعة فى السذاجة .

وإذا كان للانطباع على قول الشعر مقياس وجب أن يستولى أبو العتاهية على

غايته ، ويصل إلى نهايته على حين يقف أغلب الشعراء المطبوعين عند نصف الشوط ، لأن الانطباع فى أبى العتاهية جعله بحيث يتحدث عن نفسه ، فيقول لمن سأله : كيف تقول الشعر ؟ ما أردته قطّ إلا مثّل لى فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . ويقول فى معرض آخر : لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت .

وإذا كان من السهولة سهولة متكلفة ، أو من الرقة رقة مصطنعة ، فإن سهولة أبى العتاهية ورقته هما ذلك النوع البرىء الذى لايتعلق به عيب ، ولايوجه إليه نقد .

وقد عابه قوم بهذا المذهب فى القول (وهو أظهر فضائله) فاتهم رجل شعره بالضعف فى مجلس ابن الأعرابى ، فقال له : الضعيف والله عقلك لاشعر أبى العتاهية ، أَلِأَبى العتاهية تقول هـذا ؟ فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت ، منه . وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر ، ثم أنشد له :

قطعت منـك حبائل الآمال ... وحططت عن ظهر المطىّ رحالى

ووجدت برد اليأس بين جوانحى ... فأَرِحْتُ من حَلّ ومن ترحال

يأيها البطر الذى هو من غـد ... فى قـبره متمزّق الأوصال

حذف المنى عنه المُشَمِّرُ فى الهدى ... وأرى مناك طويـلة الأذيال

حِيَلُ ابنِ آدم فى الأمور كثيرة ... والموت يقطع حيـلة المحتال

قستُ السؤال فكان أعظم قيمة ... من كلّ عارفة جرت بسـؤال

فإذا ابتليتَ ببذل وجهك سائلا ... فابذُله للمتكرم المفضـال

وإذا خشيت تعـذراً فى بلدة ... فاشدد يديك بعاجل الترحال

واصبر على غِـيَرِ الزمان فإنما ... فرج الشدائد مثل حَلّ عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا القول ؟ فقال الرجل : إن الزهد مذهب أبى العتاهية وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد ، فقال : أو ليس هو الذى يقول فى المديح ؟ :

وهارونُ ماءُ المُزْنِ يُشْفَى به الصَّدَى　　إذا ما الصَّدِى بالريق غَصَّتْ حناجره

وأوسط بيت فى قريش لبيته　　وأوّل عزّ فى قريش وآخره[1]

وزَحْفٍ له تحكى البروق سيوفُه　　وتحكى الرُّعودَ القاصفات حوافره

إذا حَمِيَتْ شمسُ النهار تضاحكت　　إلى الشمس فيه بَيْضُه ومغافره[2]

ومن ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ　　كذا لم يفت هرون ضدٌّ ينافره

فلم يجد الرجل مخلصا من ابن الأعرابى إلا أن يقول له: القول ماقلت، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ولا كتبتهما عنه .

وقد اجتمع أبو العتاهية ومسلم بن الوليد فى بعض المجالس ، فجرى بينهما كلام ، فقال له مسلم : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمـــد والنعمة لك　　والملك لا شريك لك

* لبيك إن الملك لك *

لقلت فى اليوم عشرة آلاف بيت ولكنى أقول :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ　　كأنه أجَلٌ يســـعى إلى أمل

ينال بالرِّفْقِ ما يَعْيَا الرجالُ به　　كالموت مُسْتَعْجِلاً يأتى على مَهَل

يكسو السيوفَ نفوسَ الناكثين به　　ويجعل الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُلِ

لله من هاشم فى أرضـــه جبلٌ　　وأنت وابنك رُكْنا ذلك الجبل

فقال أبو العتاهيـــة قل مثل قولى : « الحمد والنعمة لك » أقل مثل قولك : « كأنه أجل يسعى إلى أمل » .

وتذاكر الناس يوماً شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته

---

(١) أوسط . أرفع وأشرف .

(٢) البيض : جمع بيضة ، وهى الخوذة من الحديد تلبس على الرأس . المغافر: جمع مغفر . وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يجعل تحت القلنسوة .

المزدوجة التى سماها « ذات الأمثال » ، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى روائح الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ، ثم قال انظروا إلى قوله : «روائح الجنة فى الشباب» ، فإن له معنى كمعنى الطرب الذى لايقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة، إلا بعد التطويل ، وإدامة الفكر . وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

وكان مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ، فقيل له بما استحق عندك ذلك ؟ قال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ طوالٍ أىّ آمالِ

وأقبلت على الدنيا مُلِحًّا أى إقبال

أيا هذا تجهز لفراق الأهلِ والمال

فلا بُدَّ من الموت على حال من الحالِ

قال مصعب : فهذا كلام سهل حقّ لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقرّ به الجاهل .

واستنشد بعضهم سَلْما الخاسر شيئاً من شعره ، فقال : لا ، ولكنى أنشدك لأشعر الجن والإنس .

ثم أنشده :

سَكَنٌ يبقى له سكن ما بهذا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ[1]

---

(١) السكن : الأولى بمعنى المسكن والمنزل . والثانية بمعنى السكان، وهى فى الأصل السكن (بالفتح) وقد حركت هنا للشعر، أوتكون بالتحريك على أصلها بمعنى تعمير الدار ويكون ذلك بسكناها : والمعنى لا يبقى لدار عمار بسكانها .

نحن في دار يُخَبِّرُنا ... ببلاها ناطقٌ لَسِنُ
دار سَوْء لم يدم فَرَحٌ ... لامرئ فيها ولا حَزَنُ
في سبيل الله أنفُسُنا ... كلُّنا بالموت مُرْتَهَنُ
كلُّ نَفْسٍ عند مِيتَتِها ... حظُّها من مالها الكَفَنُ
إنَّ مالَ المرءِ ليس له ... منه إلاَّ ذِكْرُهُ الحَسَنُ

أما الأغراض التي تناولها أبو العتاهية في شعره، فهي جميع أغراض الشعر: من مدح، وهجاء، ورثاء، وغزل. وزهد. تجلى فيها جميعاً طبعه السهل ومعناه القريب.

ومدحه هو الذي أدرّ عليه ذلك الرزق الواسع والغنى العريض، حتى كان له من وفره يوما ما سبع وعشرون بدرة، والبدرة: عشرة آلاف درهم، ولم يصل إلينا خبر الثروة التي مات عنها، ولابدّ أن تكون عظيمة لما علمت من شحه وكثرة مايصل إليه من الخلفاء وغيرهم.

ومن مدحه الذي لم يمرّ بك قوله لما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة: الأمين، والمأمون، والمؤتمن:

وراعٍ يُرَاعِي الليلَ في حفظ أُمَّةٍ ... يدافع عنها الشرَّ غَيْرَ رَقُود
بألويةٍ جبريلُ يَقْدُمُ أهْلَها ... ورايات نَصْرٍ حولَه وجُنودُ
تجافَى عن الدنيا وأيقَنَ أنها ... مُفَارَقَةٌ ليستْ بدار خُلُودِ
وشَدَّ عرَى الإسلامِ منه بفِتْيَةٍ ... ثلاثةِ أمْلاكٍ وُلاةِ عُهُودِ
همو خير أولادٍ لهم خير والدٍ ... له خير آباء مضتْ وجدودِ
بنو المصطفى هرُونَ حولَ سريره ... فخيرُ قيامٍ حوله وقعودِ
تُقَلِّبُ ألحاظَ المهابةِ بينهم ... عيونُ ظباء في قلوب أسودِ
جدودهمو شَمْسٌ أتت في أهِلَّةٍ ... تبدَّتْ لراء في نجوم سُعُودِ

فوصله الرشيد بصلة ماوصل مثلها شاعرًا قطّ .

وولد للهادى ولد فى أوّل يوم ولى الخلافة ، فدخل أبو العتاهية وأنشده :

أَكْثَرَ موسى غَيْظَ حُسَّادِهْ ... وزَيَّنَ الأرضَ بأولاده

وجاءنا من صلبه سـيد ... أصيد فى تقطيع أجـداده

فاكتستِ الأرضُ به بهجة ... واستبشر المُلْكُ بميلادِهْ

وابتسم المنبر عن فَرْحَةٍ ... عَلَتْ به ذِرْوَةُ أعواده

كأننى بعد قليـلٍ به ... بين مواليـه وقوّادِه

فى مَحْفِـلٍ تخْفِقُ راياته ... قد طَبَّقَ الأرضَ بأجناده

فأمر له موسى بألف دينار وطيب كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضى عنه .

أما هجاؤه ، فقد كان ممضا يشتدّ معناه فى لين ألفاظه ، فيكون آلم المهجوّ وأسير على الألسنة . وقد مرّ بك هجاؤه لعبد الله بن معن ، فانظر كيف تراه قد جاءه من ناحية لم ينتبه إليها غيره فى الهجاء ؟ وتلك هى ادعاء أنه أنثى ، ولا يليق بها إلا أن تجلى على البعل ، وقد استقصى هذا المعنى فكان أمضّ شىء وأوجعه .

ومما قال فيه فى معنى قِصَرِ باعه وقعوده عن المجد :

أَلاَ قلْ لابن مَعْنٍ ذا الْـلَذِى فى الودِّ قد حالا

لقـد بُلِّغْتُ ما قَالَ فما بَالَيْتُ ما قالا[1]

ولو كان من الأُسْـدِ لما صـال ولا هالا

فصُغْ ما كنت حَلَّيْتَ به سـيفك خلخالا

وما تصنع بالسـيف إذا لم تَـكُ قَتَّالا

ولو مَـدَّ إلى أذنيـه كَفَّيْه لما نالا

(١) تهدد عبد الله بن معن أبا العتاهية وخوفه ونهاه أن يتعرض لمولاته سعدى ، فهذا مايشير إليه أبو العتاهية بقوله : لقد بلغت . . .

قصــيرُ الطُّول والطِّيلـــــة لا شبّ ولا طالا[1]
أرى قومــك أبطالا وقد أصبحتَ بَطَّالا

⁂

وفى رثائه رنة الأسف ، وقد أجاد فيه لقربه من المذهب الذى اختصّ به ، وكان فيه علماً مرفوعاً ، وناراً مشبوبة ، وهو مذهب الزهد والزراية بشأن الدنيا ونعيمها .

ومن رثائه ما قاله فى صديقه علىّ بن ثابت فقد حضر وهو يجود بنفسه ، وما زال ملتزما له حتى فاضت روحه ، فبكى طويلا وقال :

أشريكى فى الخــير قرَّبك الله فنعم الشريكُ فى الخــير كنتا
قد لعمرى حَكَيْتَ لى غُصَص المو ت فحرَّكتنى لها وسَكَنْتَا

ولما دفن وقف على قبره ، فبكى طويلا ، ثم جعل يردّد هذه الأبيات :

ألا من لى بأنســـك يا أُخَيَّا ومن لى أن أُبثَّك مالديّا
طَوَتْك خطوبُ دهرك بعد نشرٍ كذاك خطوبُه نشرًا وطَيّا
فلو نشرت قواك لى المنـــايا شكوتُ إليك ما صنعتْ إليّا
بكيتُك يا علىُّ بدمع عيــــنى فما أغنى البكاء عليك شيّا
وكانت فى حياتك لى عظاتٌ وأنت اليومَ أوعظُ منك حَيّا

أما الغزل فى شعره فمجال واسع أعاد فيه وأبدى . وكان من خفة وقعه ، وحلاوة مذاقه ، وصفاء ديباجته أن كان المهدى يسمعه منه فى جاريته عتبة فيقبله ويجيزه عليه ، ولقد رثى لحاله فى عشقها حتى رجا سيدتها فى النزول عنها،فاستغاثت به السيدة والجارية ألا يفعل ، فترضاه عنها بالمال الكثير ولكنه استمرّ ينسب بها .

---

(١) الطيلة : العمر .

ولما تنسك وكان من مقتضى نسكه أن يحرم على نفسه الغزل شقّ ذلك على الرشيد كلّ مشقة حتى ضربه وحبسه ، فلولا أنّ فى غزل أبى العتاهية ناحية من الحسن وضربا من اللذة لم يجدها الرشيد فى غزل غيره ماجزع كلّ هذا الجزع ، ولا ارتكب معه كلّ هذا العنف فى حمله على تلك الخطة .

ونستطيع أن ندلّ على سبب هذا التأثير العجيب فى غزله بأن نقول : إن نشأة أبى العتاهية فى المجون والتفكك ، وملازمة المخنثين وحمله زاملتهم فى طرق الكوفة رقق من طبعه ، ونحى فى غزله جزءا من رجولته ، فصار كزير النساء ، وهو أرقّ الناس خطابًا لهنّ ، وأعرفهم بما يعلق بقلوبهنّ و يدور بخلدهن ، كذلك لين طبعه فى القول وسهولة لفظه جعلا لغزله رقة لم تكن لغيره ، وهى أوّل ما يراعى فى الغزل حتى لنرى الشاعر إذا كان غايظ القول جاسيه ، أغنى فى مقام الفخر ووصف الحروب ، وقصر فى هذا الباب لما يحتاج إليه من بيان و إسجاح .

وسبب ثالث ، وهو ما عرفت من غلبة السوداء على أبى العتاهية ، فيكون شأنه المبالغة فى كلّ ما يتناوله والإلحاح فى جميع ما يعرض له ، لأن غلبة السوداء شعبة من الجنون ، والحبّ إذا خالطه شيء من هذا اشتعلت ناره ، واشتدّ أواره . وهكذا كان حبّ أبى العتاهية ليس فيه هوادة ، ولالجموحه ضابط ، وفى التعبير عن مثل هذا الحبّ حرارة لا تجدها فى غزل منبعث عن نفس فاترة وغرام هادئ .

ومن قوله فى عتبة :

أحمدٌ قال لى ولم يَدْرِ ما بى ... أتُحِبُّ الغداةَ عُتْبَةَ حَقًّا

فتنفَّسْتُ ثم قلتُ نعم حُبْـ ... ـباً جرى فى العروق عرقا فعرقا

لو تَجُسِّين يا عتيبة قلبى ... لوجدتِ الفؤادَ قَرْحا تَفَقَّا

قد لعمرى ملَّ الطبيب وملَّ الْـ ... أهل منى مما أقاسى وألقى

ليتنى مِتُّ فاسترحت فإنى ... أبدا ماحَيِيتُ منها مُلَقَّى

ومن قوله فيها :

يا عُتْبَ سيدتي أما لك دين حتى متى قلبي لديك رهين

وأنا الذلولُ لكلّ ما حَمَّلتِنِي وأنا الشقيُّ البائسُ المسكينُ

وأنا الغداةَ لكلّ باكٍ مُسْعِدٌ ولكلّ صَبٍّ صاحبٌ وخَدينُ

لا بأس إنَّ لذاك عندي راحةً للصَّبِّ أنْ يلقى الحزين حزينُ

يا عُتْبَ أين أفِرُّ منك أميرتي وعليَّ حصن من هواك حصينُ

وكتب مرة إلى المهدى يعرض بطلبها منه :

نفسي بشيء من الدنيا معلَّقةٌ اللهُ والقائم المهديُّ يكفيها

إني لأيأس منها ثم يُطْمِعُنِي فيها احتقارُك للدنيا وما فيها

ومن قوله فيها أيضاً :

ألا ما لسيِّدتي مالها أَدَلًّا فأَحْمِلَ إدلالها ؟

وإلا ففيم تجنَّتْ وما جَنَيْتُ سَقَى اللهُ أطلالَها

ألا إنَّ جاريةً للإما مِ قد أُسْكِنَ الحبُّ سربالها

مشت بين حُورٍ قصارِ الخطا تُجاذِبُ في المشي أكفالها

وقد أتعب اللهُ نفسي بها وأَتْعَبَ باللوم عُذّالها

ومن قوله فيها :

عيني على عُتْبَةَ مُنْهَلَه بدمعها المنسكب السائلْ

يا من رأى قبلي قتيلا بكى من شِدَّةِ الوَجْدِ على القاتلْ

بسطت كفِّي نحوكم سائلا ماذا تَرُدُّونَ على السائلْ

إنْ لم تنيلوه فقولوا له قَوْلاً جميلا بَدَلَ النائلْ

أوْ كنتمُ العامَ على عُسْرَةٍ منه فَمَنُّوه إلى قابِلْ

⁂

وأما الزهد ، فقد كان المذهب الذى غلب على أبى العتاهية حتى عرف به وقصر عليه قوله فى آخر أيامه ، فكان يذمّ الدنيا ويزهد فى نعيمها ، ويعيب على من يغرّه رونقها ، ويطغيه زبرجها ، ويذكر الموت وهوله ، والقبر وبلى الأجسام فيه ، ويكثر من ذلك جدًّا حتى انتبه قوم إلى أنه إنما يذكر الموت والفناء دون النشور والبعث ، وإن ذلك يرجع منه إلى رأى فلسفى يعتقده ، وقد خاطبه فى ذلك بعض أصحابه ، فقال : ما دينى إلا التوحيد ، ثم أنشد :

أَلَا إِنَّنَا كُلَّنَا بائدُ وأىُّ بنى آدمٍ خالدُ
وبَدْؤُهُمُ كان من ربهم وكلٌّ إلى ربه عائد
فيا عجبًا كيف يَعْصِى الإلـــه أم كيف يَجْحَدُه الجاحدُ
وفى كلّ شىء له آية تَدُلُّ على أنه واحــدُ

ولعلّ أبا العتاهية إنما كان يقصد بقوله فى الزهد حمل الناس على الخير ، ومنعهم من التكالب على الدنيا ، فكان لايذكرهم ولا يعظهم إلا بما قرب منهم وهو الموت والبلى كأنهم لغلظ قلوبهم صاروا لايتأثرون إلا بما يقع تحت حسهم ، وما شىء يداخلهم ويرونه كلّ يوم ماثلا أمامهم إلا الموت ، وصيرورة المرء إلى القبر وتعرضه فيه للبلى .

وقد تبعَ كلامه فى الزهد أن جرت على لسانه حكمة تضرب إلى هذه الناحية ، فهى حكمة التخذيل عن الدنيا والتحقير لشأنها ، وكذلك كانت أمثاله التى ضربها من هذا الوادى ، فيصحّ أن نقول: إن حكمته وأمثاله كلها كانت من لباب الزهد الذى أراد أن يكون فارس حلبته . وقد كان .

وأعظم مذكور له فى هذا الباب مزدوجته التى حوت أربعة آلاف مثل ، وقد مرّ بك فى باب الشعر كثير منها . ومن غيرها قوله فى الموت :

لِدُوا للموتِ وابْنُوا للخرابِ ... فكلُّكُمُ يَصيرُ إلَى تَبَابِ
أَلَا يا موتُ لَمْ أَرَ مِنْكَ بُدًّا ... أَتَيْتَ وما تَحِيفُ وما تُحابِي
كأنَّكَ قد هَجَمْتَ على مشيبي ... كما هَجَمَ المشيبُ على شبابي

وقال له المأمون أنشدنى أحسن ماقلت فى الموت فأنشده :

أنْساكَ مَحْيَاكَ المَمَاتَا ... فطلَبْتَ فى الدنيا الثَّباتَا
أَوَثِقْتَ بالدنيا وأنـ ... ـت ترى جماعتها شَتَاتَا
وعَزَمْتَ منك على الحيا ... ة وطولها عزما بتَاتَا
يا من رأى أبويه فيـ ... ـمن قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عِبْرَةٌ ... أم قُلْتَ إن لك انفلاتا
ومن الذى طلب التَّفَلُّـ ... ـتَ من مَنِيَّتِهِ ففاتا
كلٌّ تُصَبِّحُه المنِيَّـ ... ـةُ أو تُبَيِّتُه بَيَاتا

وإذا كان عيب فى شعر أبى العتاهية فهو ما كان يناقضه من حرصه على المال ، وتجاوزه الحدّ فى جمعه ، وقد عابه بذلك الجماز ، فقال :

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يُزَهِّدُ الناس ولا يَزْهَدُ
لو كان فى تزهيده صادقا ... أضحى وأمسى بيتُه المسجدُ
يخاف أن تَنْفَدَ أرزاقـه ... والرزقُ عند الله لا يَنْفَدُ
والرزقُ مقسومٌ على من ترى ... يَنَاله الأبيضُ والأسود

وكان آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وقد أدرك فيه خطأه فى الحرص على الدنيا قوله :

إلٰهى لا تُعَذِّبْنِى فإنى ... مُقِرٌّ بالذى قد كان مِنِّى
فما لى حيلةٌ إلا رجائى ... لعفوكَ إنْ عَفَوْتَ وحُسْنُ ظنى
وكم من زَلَّةٍ لى فى الخطايا ... وأنت علىَّ ذو فضل ومَنِّ
إذا فكرت فى نَدَمِى عليها ... عَضَضْتُ أناملى وقَرَعْتُ سِنِّى

أُجَنُّ بزَهْرَةِ الدنيا جُنُوناً   وأَقْطَعُ طُولَ عُمْرِى بالتمنّى
ولو أنى صَدَقْتُ الزهدَ عنها   قَلَبْتُ لأهلها ظهر المِجَنِّ
يظن الناسُ بى خيراً وإنى   لشرُّ الخلقِ إن لم تَعْفُ عنى

وأوصى بأن يكتب على قبره :

أُذْنَ حَيٍّ تسمعى   إسمعى ثم عى وعى
أَنَا رَهْنٌ بمضجعى   فاحذرى مثل مَصْرَعى
عِشْتُ تسعين حِجَّةً   فى ديار التزعزع
ليس زادٌ سوى التقى   فخذى منه أو دعى

ولسنا بحاجة أن نعقد فصلا لبيان منزلة أبى العتاهية عند الأدباء وغيرهم ، فقد تفرّق من ذلك فى الترجمة كثير .

وقد مرّ بك فى باب أوزان الشعر أنه كان أحد الذين كسروا قيود الأوزان القديمة ، فلما خوطب فى ذلك قال : أنا أكبر من العروض .

وديوان شعره فى جزأين كبيرين : أولهما فى الزهد ، والثانى فى الأغراض الأخرى، مطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٧ هـ ، والذى يجب أن تعرفه أن ما فى الديوان ليس كلّ شعره ، لأن أبا العتاهية كان أحد ثلاثة لم تمكن الإحاطة بشعرهم لكثرته ، وهم : بشار ، والسيد الحميرى ، وأبو العتاهية ، ولا شكّ أنه فى هذا أكثرهم .

حياة أبى تمام

[نسبه] : يختلف الرواة فى نسب أبى تمام ، فبعضهم يجعله عربيًّا صحيحاً من طيئ فيقولون : إنه حبيب بن أوس بن الحرث بن قيس بن الأشجّ بن يحيى بن مروان ابن مُرّ بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عَدِىّ بن عمرو بن الغَوْث بن طَيِّئ .

والذين يدّعون أنه نصرانيّ من أهل قرية جَاسِمٍ من قرى الجَيْدُور من أعمال دمشق يقولون : إن اسم أبيه ليس أوساً ولكنه تدوس العطار فغير إلى أوس وأدخل فى هذا النسب المفتعل ، وعلى هذا يقول شاعر يهجو أبا تمام :

لو أنّ عبد مَنَافٍ فى أُرُومَتِهِمْ تَقَبّلوك لما ضرّوا ولا نفعوا
مِرْباع قومك ناقوس وشَمْلَةٌ فاذكر مرابعهم فيها إذا ارتبعوا

ولاشكّ أن أبا تمام كان يعجبه النسب الأول لأن الانتماء إلى العرب كان شرفا كبيراً خصوصاً إلى قبيلة مشهورة كطيئ ، وهذا ما يرجح فى نظرنا أن يكون فى اصطناع هذا النسب يد لأبى تمام ، فقد كان يفاخر به ويسامى الرؤساء كما فعل فى مدحه لأحمد ابن أبى دؤاد .

أضحتْ إيادٌ فى مَعَدٍّ كلِّها وهم أيادى بنائها الممدود
تَنْميك فى قُلَلِ المكارم والعُلا زُهُرٌ لِزُهْرٍ أبوّة وجدود
إن كنتم عادىّ ذاك النبع إن نسبوا وفِلْقة ذلك الجلمود
وتركتموهم دوننا فَلأنتم شركاؤنا من دونهم فى الجود
كَعْبٌ وحاتم اللذان تقاسما خُطَط العلا من طارف وتليد

نشأته وتصرفه

فى تاريخ أبى تمام كثير من الغموض ، أوّل ما فيه من ذلك تاريخ ميلاده ، فإن المؤرّخين لم يتفقوا على رأى فى عام ولادته . فبعض يذكر أنه ولد سنة ١٨٠ هـ ، وآخر يقول سنة ١٨٨ هـ ، وثالث يروى سنة ١٩٢ هـ ، وبعض يروى عن أبى تمام نفسه أنه ولد سنة ١٩٠ هـ ، وكما اختلفوا فى ولادته اختلفوا فى وفاته ، فقيل سنة ٢٢٨ هـ ، وقيل سنة ٢٣١ هـ ، وقيل سنة ٢٣٢ هـ ، فيكون مات شابّا

فى حدود الأربعين ، أو مجاوزاً لها بقليل . ودفن بالموصل ، ورفاته الآن فى حديقة البلدية هناك فى ضريح فخم .

ثم يذكرون أنه نشأ بالشام بالقرية التى ذكرناها ، وهى جاسم ؛ وصاحب الأغانى يذكر أنه نشأ بمنبج أو فى قرية من قراها . وغيره يزعم أنه نشأ فى قرية من قرى دمشق، ثم يذكرون أنه نشأ فقيراً ، وأنه انتقل إلى مصر ، ولكننا لا نظفر بمعرفة مقدار عمره حين انتقل إلى مصر ، ولا مقدار ما حصله من علم قبل ذلك بالشام . وقصيدته التى ذكر فيها مجيئه إلى مصر تدلّ على أنه قدمها وقد عقل ، وأنه حضرها وحده لا فى حياطة أسرته ، كما تدلّ على أنه لم يظفر فيها بما أمل من سعة عيش ، ورفاهة حال قام فيها مدّة فى أنكد عيش يسقى الماء بالجرّة فى جامع عمرو بالفسطاط ، فكان لا ختلاطه بالعلماء أثر فى نفسه ومادة فى علمه ، وتدل القصيدة أيضاً على أنه أقام بمصر خمس سنين ، ولكنه كان قد نضج فى الشعر فقاله وعرف بالجودة فيه ، وحسد فضله من شعراء مصر يوسف بن السراج ، فاتصل بينهما التهاجى . وكان من ذيوع فضله أنه سمع بخبره المعتصم فاستقدمه إليه ، وفى هـذه القصيدة يقول :

بنفسىَ أرضُ الشام لا أَيْمَنُ الحِمَى ... ولا أَيْسَرُ الدهنا ولا أوسطُ الرمل
عَدَتْنِىَ عنكم مُكْرَهاً غُرْبَةُ النوى ... لها وَطَرٌ فى أن تمرَّ ولا تُحْلِى
أخمسة أعوام مضت لمغيبه ... وشهران بل يومان ثُكْلٌ على ثُكْلِ
نأيتُ فلا مالاً حَوَيْتُ ولم أقم ... فأُمْتَعَ إذ فُجِّعْتُ بالمال والأهل

ولعلّ هذه القصيدة لم تكن آخر عهده ، فيكون قد أقام بها أكثر من ذلك .

دخل بغداد فكان شأنه غير شأن سائر الشعراء، لأن الواحد منهم كان إذا قدر الله له نجاحاً يكون الخليفة آخر من يسمع به ، ويكون قبل ذلك قد اتصل بمياسير الناس ورؤسائهم ، ثم حاشية الخليفة وأمراء بيته ، ثم ينتهى به الشرف ، ويتسامى الحظّ ، فيذكر اسمه للخليفة ، فيأذن له بالإنشاد بين يديه ، ولكنّ أبا تمام كان فى شهرته كما

كان فى نبوغه وثّابًا ، فهو إنما قدم بغداد بدعوة من المعتصم ، فلما سمع منه ورضى عنه تسابق الأمراء والوزراء ، ورجال الدولة عامة من حاضر فى بغداد وناء عنها ، فى أن يشرفهم أبو تمام بمدحه ، ولذلك لا نراه قد قبع فى بغداد كغيره من الشعراء الذين لا تتجاوز شهرتهم الأفق الذى يعيشون فيه . وما بغداد بالهينة الشأن ، أو الضيقة الرقعة لولم تتعدها شهرة أبى تمام ، ولكن نبوغه كان أكبر من أن تسعه بغداد ، فلذلك رأيناه يشرّق و يغرّب ، فصدق عليه قوله :

وغَرَّبْتُ حتى لم أجد ذكر مَشْرِقٍ وشَرَّقْتُ حتى قد نَسِيتُ المغاربا

وقد اتصل أبو تمام بالخليفة ، ووزيره محمد بن عبد الملك الزّيات ، ورجال الدولة : الحسن ابن وهب ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى دؤاد ، ومحمد بن حميد الطوسى ، والأفشين وأبى دلف العجلى ، وعبد الله بن طاهر ، وخالد بن يزيد بن مزيد وغيرهم من كبار الناس وأصحاب البيوتات فى الدولة ، وقد كان له من هؤلاء جود واسع ، وكرم زائد ، وقد اعترف بعضهم بأن عطاءهم دون ما يستحقه شعره . ذكروا أنه لما مدح محمد بن عبد الملك الزيات بالقصيدة التى فيها :

دِيمَةٌ سَمْحَةُ القِيادِ سَكُوبُ مُسْتَغِيثٌ بها الثَّرَى المَكْرُوبُ

لو سَعَتْ بقْعَةٌ لإِعظام أخرى لسعى نحوها المكَانُ الجَدِيبُ

قال له : يا أبا تمام ، إنك لتحلى شعرك من جواهر لفظك ، و بديع معناك ما يزيد به حسناً على بهىّ الجواهر فى جياد الحسان ، وما يدخر لك شىء من جزيل العطاء إلا و يقصر عن شعرك فى الموازاة .

وهذه الثروة التى استفادها أبو تمام أنفقها فى لذّاته ، وكان غرامه بالأسفار وولعه بالرحل هو الذى استنفد هذه الثروة الطائلة التى لو حرص عليها كما حرص غيره لرأينا له تراثاً لم يخلفه شاعر ، فإن المعروف أن أبا تمام أخمل فى حياته كلّ شعراء زمانه ،

وقطع عنهم أرزاقهم ، فلما مات تنفســوا الصعداء ، وعادت عطاياه تقسم بينهم ، فانتعشت حالهم .

حدّث أحمد بن يزيد المهلبي قال : ما كان أحد من الشعراء يأخذ درهما بالشعر فى حياة أبى تمام ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه .

صفات أبى تمام ومزاياه

كان أسمر طويلا فصيحا ، حلو الكلام مع تمتمة يسيرة فيه ، ولعلّ هذه الصفات ليس منها مايتعلق بموضــوعنا ، وهو شاعرية أبى تمـام ، اللهم إلا ما كان من فصاحة منطقه وحلاوة كلامه . فأما الصفات التى يصحّ أن تكون ذات أثر فى شـــعره ، أو فى حالات نفسه التى ينشأ عنها الشعر ، فتلك هى ما كان فيه من ميل إلى اللهو والبذخ فى المعيشة ، ومن مجون ، واستباحة للشراب ، وتهاون بأمر الدّين ، فهذه صفات يتورّط فيها الشعراء إلا قليلا جرت بذلك سنتهم خصوصاً فى عصور الترف والنعيم ، ولــكن الذى نتساءل عنـــه ، لِمَ لَمْ تتجه الأنظار إلى أبى تمام فى مسلكه كما اتجهت إلى بشار وأبى نواس ؟ ولعلّ السبب أن زمن أبى تمام كان زمناً ألفت فيه هذه الأنواع من الفجور ، وشاع الفسق ، وهدأت فى نفوس الخلفاء ثائرة الاتهام بالزندقة ، فلم يكن مايأتيه أبو تمـام بدعاً ولا مستغربا .

كان أبو تمـام يشرب الخمر ، وفيها يقول :

أفيكم فتًى حُرٌّ فيُخْبِرَنى عَنّى ... بمـا شَرِبَتْ مشروبةُ الراحِ من ذِهْنِى

غَدَتْ وهى أَوْلَى من فؤادى بعَزْمَتِى ... ورُحْتُ بمـا فى الدَّنِّ أولى من الدَّنِّ

لقـــد تَرَكَتْنى كأسُها وحَقِيقَتِى ... مَجازٌ وصُبْحٌ من يقينى كالظَّنِّ

وقد قصد خالد بن يزيد بن مزيد بأرمينية ، فمدحه فأعطاه عشرة آلاف ، فلما انصرف

من عنده طابت له الإقامة فى أرباض مدينته ، فخرج خالد يوماً يصطاد ، فإذا أبو تمام تحت شجرة يشرب ، وغلامه يغنيه بالطنبور ، فقال له : ما فعل المال ؟ قال :

علّمنى جُودُكَ السماحَ فما أبْقَيْتُ شيئاً لَدَىَّ من صلتك

ما مَرَّ شهرٌ حتى سَمَحْتُ به كأنَّ لى قُدْرَةً كمقدرتك

تُنْفِقُ فى اليوم بالهِبَاتِ وفى الساعة ما تَجْتَنيهِ فى سَنَتِك

فلستُ أدرِى من أين تُنْفِقُ لو لا أنَّ ربى يَمُدُّ فى هبتك

فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

وكان له غلام خزرىّ ، وللحسن بن وهب غلام رومىّ ، فرآه أبو تمام يوما يعبث بغلامه ، فقال له : لئن أعنقت إلى الروم لنركضنّ إلى الخزر . وذكروا أيضاً أنه كان بفارس عند الحسن بن رجاء ، فنمى إليه خبر تركه الصلاة ، فعاتبه فى ذلك ، فقال له : « لم أنشط للشخوص إليك من مدينة السلام ، وأتجشم هذه الطرقات الشاقة ، وأكسل عن ركعات لا مئونة فيها علىّ . لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثواباً وعلى من تركها عقاباً » ، فتركه بعد هذا الكفر الصريح ، والتمس له العذر فى قوله :

وأحقّ الأنام أن يقضى الديـنَ امرؤ كان للإله غريما

وكانت فيه فضائل إلى جانب ذلك منها عزّة نفسه . ولعلها إنما جاءته من طفوره إلى الشهرة ، وسرعة اتصاله بالخلفاء . وقد ذكروا من حديث هذه العفة والعزّة أنه لما قدم خراسان مادحا عبد الله بن طاهر بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

* هنّ عوادى يوسف وصواحبه *

بلغ من إعجاب عبد الله بن طاهر أن نثر عليه ألف دينار فلم يتحرّك لها أبو تمام والتقطها الغلمان ، فحقد عليه عبد الله حينا ثم رضى عنه ، وأضعف له العطية .

أما ذكاؤه ، وتوقد قريحته ، وصدق حسه ، وسريع حفظه ، فقدكان فى كلّ

ذلك علماً مشهورًا . قالوا : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غـــير القصائد والمقطعات .

ولمـا أنشد محمد بن عبد الملك الزيات قصيدته التى أوّلهـا :

دِيمَةٌ سَمْحَةُ القياد سَـــكُوبُ مُسْتَغِيثٌ بها الثرى المَـكْرُوبُ

لو سَعَتْ بقعة لإعظامِ أُخْرَى لسعى نَحْوَها المكانُ الجديب

كان بحضرته فيلسوف، فقال : إن هذا الفتى يموت شابًّا ، فقيل له : ومن أين حكمت بذلك ؟ قال : رأيت فيه من الحدَّة والذكاء ، والفطنة مع لطافة الحسّ ، وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل من جسمه كما يأكل المهند من غمده .

ولمـا أنشده أحمد بن المعتصم قصيدته التى أوّلهـا :

ما فى وقوفك ساعةً من باس تَقْضِى حقوق الأربع الأَدْرَاسِ

وانتهى إلى قوله فيها :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له الفيلسوف أبو يوسف الـكندى يعقوب بن الصباح وكان حاضراً : الأمير فوق من وصفت ، فأطرق أبو تمام قليلا ، ثم رفع رأسه وقال :

لا تُنْـكِروا ضربى له من دونه مَثَلاً شَرُودًا فى الندى والباس

فاللهُ قد ضَرَبَ الأَقَلَّ لنُورِهِ مثلا من المِشْـكَاةِ والنِّبْرَاسِ

فلما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين ، فدهشوا لسرعة خاطره ، فقال أبو يوسف هذا الفتى يموت قريباً :

ومن حضور جوابه وسرعة بديهته أنه لمـا أنشد أبا العميثل :

* هنّ عوادى يوسف وصواحبه *

قال له : لم لا تقول ما يفهم ؟ قال أبو تمـام وأنت لم لا تفهم ما يقال ؟ فعدوا ذلك من بدائهه البليغة .

⁂

وقد وضع الرؤساء أبا تمام فى منزلة عالية ، وجعلوا له بينهم قدرًا معروفا دونه أقدار الشعراء مهما أجادوا القول ، وبالغوا فى الإطراء . وإنما ذلك لأن أبا تمام زاد على الشعراء بصفات النبوغ والكمال العقلى والنفسى ، وهذه إذا تمت فى امرئ استحقّ التجلة والإكبار ، لأن الذكاء والخلق الفاضل محترمان ، وصاحبهما مرموق بعين الإعظام مهما انحطّ به الفقر ، أو تدنت به فى الناس المنزلة ، ولقد انضمّ إلى ذلك كله فى أبى تمام علم غزير ، واطلاع واسع ، وإحاطة بأخبار العرب ، ووعى لكل ما عرف لهم من قول كذلك لا بدّ أن يكون قد تثقف بالثقافة الحديثة فى عصره (ثقافة العلوم المترجمة التى كان رواجها ، واشتداد الطلب لها فى أيام أبى تمام) ، فاجتمعت فى نفسه ثقافة عربية إلى أخرى فارسية ويونانية وهندية إلى الذكاء الذى يحسن هضم كل هذا والانتفاع به .

لذلك نرى أبا تمام قد نظر إليه الرؤساء فى زمانه نظرة إعجاب ، وسما فى تقديرهم عن زملائه الشعراء الذين يكون منتهى أملهم ، وغاية مطمعهم عطاء يكثر أو يقلّ على حسب منزلتهم فى الشعر . فأما أبو تمام فقد استحقّ من العطاء أوفره ، ثم كان ذلك دون قدره ، فولاه الحسن بن وهب بريد الموصل . ولعله لو عمر لترقى فى الولايات حتى انتهى إلى الوزارة ، فيكون أوّل شاعر أهله الشعر لأسمى مراتب الحكم بعد الخلافة .

نعم كان أكبر همّ الشاعر عطاء يوازى مقدرته على الإطراء ، وبلاءه فى رفعة قدر الممدوح ، فإذا سمت همته إلى أكثر من ذلك ، وكان له طبع ظريف ، وشمائل مستملحة استحقّ أن يكون نديمًا لهؤلاء الممدوحين ، وهو فى كل هذه المراتب لا يطمع فى مساماتهم ، ولا يجرؤ على أن يخاطبهم خطاب الزملاء ، اللهم إلا شعراء أفذاذ أمثال أبى تمام ، والمتنبى ،

والشريف الرضى ، فهؤلاء كان لهم إلى جانب الشعر نفوس عالية ، وأقدار كبيرة ترفعوا بها عن أقدار المداح والندماء .

ومما يدلك على منزلة أبى تمام بين رؤساء زمانه أن مالك بن طوق كان قد غضب على قومه بنى تغلب لإفسادهم فى الأرض وقطعهم الطريق ، فلما خافوا سطوة غضبه لجئوا إلى أبى تمام ، فاستعطفه لهم بقوله :

وَمَضَتْ كهولُهُمُ ودَبَّرَ أَمْرَهُمْ ... أحداثهم تَدْبِيرَ غَيْرِ صَوابِ

لا رِقَّةُ الحَضَرِ اللَّطيفِ غَذَتْهُمُ ... وتَباعَدُوا عَنْ فِطْنَةِ الأَعْرَابِ

فإذا كشفتَهُمُ وَجَدْتَ لَدَيْهِمُ ... كَرَمَ النفوسِ وَقِلَّةَ الآدابِ

لك فى رسول الله أعظمُ أُسْوَةٍ ... وَأَجَلُّهَا فى سُنَّةٍ وكتابِ

أَعْطَى المؤَلَّفَةَ القلوب رِضَاهُمُ ... كَرَمًا وَرَدَّ أَخَائِذَ الأَحْزابِ

فوقعت القصيدة من مالك أجلّ وقع وقبل شفاعة أبى تمام .

وأبو تمام هو الذى اشتكى إليه البحترى ضيق الحال ، فحمله بطاقة إلى أهل معرّة النعمان ، فأغدقوا عليه الخير ، ورتبوا له أربعة آلاف درهم قال البحترى : كان ذلك أول مال أصبته

وانظر إلى أبى تمام يشفع للواثق عند أبيه فى ولاية العهد ، فيقول :

فاشْدُدْ بهرُون الخلافة إنه ... سَكَنٌ لوحشتها ودَارُ قرار

ولقدعلمتُ بأن ذلك مِعْصَمٌ ... ما كنتَ تتركه بدون سوار

والفرق بين موقف أبى تمام من المعتصم وموقف مسكين الدارمى من معاوية فى تولية يزيد العهد ، فرق عظيم . فمعاوية كان يحتاج إلى أن يتكلم الشعراء فى ولاية ابنه للعهد لأنها كانت حدثا جديداً يريد معاوية أن يهيئ له أذهان الناس بمثل قول مسكين .

أما الحال أيام المعتصم فلم تكن بهذه المثابة إذ أن ولاية العهد كانت رسما من رسوم الدولة لا نكير عليه ، ولا حاجة فيه إلى ألسنة الشعراء ، فموقف أبى تمام من المعتصم

موقف شفاعة حقة ، ولكنّ مسكينا مأجور على إذاعة رأى الخليفة فى شعره حتى يهيء النفوس لقبوله .

شعر أبى تمــام

اجتمعت فى شعر أبى تمام صفات هى :

١ — المعانى الدقيقة ، والتصوّرات العميقة ، والخيال البعيد ، يحدوه إلى ذلك ذكاؤه الحادّ الذى عرفت شأنه. فقد كان من أجل هذا لايقنع بتناول المعانى من أطرافها ، وقد يكون من هذه المعانى مالم يسبق إليه سابق ولا حام حوله حائم ، وهذا كثير عند أبى تمام

٢ — التماس اللفظ الجزل يتزيد به على الناس ، ويدلّ به على واسع علمه باللغة و إحاطته بكلام العرب .

٣ — القصد إلى تحسين الكلام بأنواع البديع ، ولم يكن أبو تمام صاحب هذا المذهب بل سبقه مسلم بن الوليد وطبقته ، ثم أبو نواس و طبقته ، وهؤلاء لم يحدثوا هذا من عدم ، ولكنهم أطالوا تعمده ، وأداموا انتحاء طريقته ، ولم يكن قبلهم من أبدى هذا الغرام ولا التزمه هذا التزام ، بل كان يأتى من الشعراء والكتاب عفو الخاطر بلا قصد ولا تعمد ، وهو واقع فى القرآن ، وكلام الجاهليين والإسلاميين على النحو الذى ذكرناه لك .

وفرق مابين مسلم وطبقته ومن جاء بعده و بين أبى تمام، أن هؤلاء لم يكلفوا بهذا المذهب كلفه . ولا تعمدوه تعمده ، فكان كلامهم حسنا لاعيب فيه وجمالا لا يغضّ منه الإكثار ، ولكنه عند أبى تمام يستولى على أسلوبه استيلاء ظاهراً ، ويكاد يحاول تحقيقه فى كلّ جملة ، و يظهره و إن أبى الظهور فى كلّ فقرة . لذلك كان من

السابقين حسناً دائما ، لأنه مع تعمده قريب إلى الطبع ما دام لا يلتزم التزاما ، ولا يكره إكراها . فأما فى كلام أبى تمام ، فقد كان فيه جانبا الحسن والقبح ، وسمتا الانطباع والتخلّف ، وعلامتا اليسر والعسر .

هذه الصفات الثلاثة هى أعمدة القول فى شعر أبى تمام ، وعليها ينبنى الحكم له بالإجادة أو التقصير ، والسلامة أو العيب . فإذا اتفق له المعنى الشريف الذى لم يبتذله الشعراء والخيال البديع الغريب المَنْزَع ، واستقام له اللفظ الجزل الرنان الفخم الذى لم يُعْرِق فى البداوة فيَجْسُوَ ويغلظ ، ولم تهلهله الحضارة فيفقد روحه ورصانته ، ثم زخرف هذا القول بعد بالبديع الذى لا يَغُضّ منه ، فجاء حاكيا للطبع ، فى حسن الوضع ، ودقة الصنع ، كان الكلام الجامع لهذه المزايا هو غاية كلّ أديب ، وأمنية كلّ قائل .

ولأبى تمام قصائد سلمت له فيها هذه المقاصد على ما وصفنا ، فكانت برودا يمانية ، أو ديباجا خُسْرَوانيا ، فاستحقت التقدّم على كلّ شعر عربىّ عرف بالجودة فى قديم وحديث .

وقد ينعكس الحال فى هذه المقاصد ، فإذا المعنى الذى يريده أبو تمام شريفاً مصونا يأتى عويصاً ، أو مستحيلا ، أو فكرة فِجّة غير واضحة المرمى ، ولا ظاهرة الغرض ، وإذا باللفظ الذى طلب له الجزالة والرصانة يخرج بدويّا متعجرفا ، وإذا الزينة التى طلبها للجمال قد أكثر منها ، فغضت من الحسن وقضت بالاستهجان ، فانظر (وقاك الله السوء) إذا اجتمعت هذه المقابح فى كلام (وقد تجتمع فى كلام أبى تمام) كيف يكون وقعها فى السمع وبعدها عن الفصاحة ؟ !

ومن هنا رأيناهم يحكمون على أبى تمام حكما يكاد يكون متناقضا . قال صاحب الأغانى : « والسليم من شعره النادر شىء لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة ، وأخرى رديئة رذلة جداً » .

وما ذكرناه لك سابقاً هو السبب فى أن يكون له الجيد الذى لا يتعلق به أحد والمتوسط المقبول ، والردىء الرذل البالغ الغاية فى ذلك .

ونستطيع أن ندلك على مواضع من الحسن فى كلامه بما نسوقه لك من أخبار فى طيها شعر نال إعجاب جهابذة الكلام ونقاد المعانى والألفاظ .

ذكروا أن ابن الزيات كان يقول : أشعر الناس طرًّا الذى يقول :

وما أبالى وخـــير القول أصدقه   حَقَنْتَ لى ماء وجهى أو حَقَنْتَ دَمى

وكان إبراهيم بن العباس الصُّولىّ يقول : أشعر أهل زماننا الذى يقول :

مَطَرٌ أبوك أبو أهِلّةِ وائل   ملأ البسيطة عُدَّةً وعديدا

نسَبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى   نورًا ومن فلَق الصباح عَمُودَا

ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا   جمعوا جدودا فى العلى وجدودا(١)

وقدم عُمَارة بن عَقِيل بغداد ، فاجتمع الناس إليه ، وكتبوا شعره وشعر أبيه ، وعرضوا عليه الأشعار ، فقال بعضهم : إن هاهنا شاعرًا يزعم بعض أنه أشـــعر الناس ، ويزعم آخرون غير ذلك ، فقال أنشدونى من قوله ، فأنشدوه :

غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدمعَ خَوْفَ نَوَى غَدِ   وعاد قَتادًا عنــدها كلُّ مَرْقَدِ(٢)

وأنقذها من غَمْرة الموتِ أنَّهُ   صُدود فِرَاقٍ لا صدودُ تَعَمُّدِ

فأجرى لهـا الإشفاقُ دَمْعًا مُوَرَّدًا   من الدم يجرى فوق خَـدٍّ مُوَرَّدِ

هى البـــدر يُغْنِيها تَوَدُّدُ وجهها   إلى كُلِّ من لاَقَتْ وإن لم تَوَدَّدِ

ثم قطع المنشد إنشاده ، فقال له عُمَارَة : زدنى من هذا ، فوصل الإنشاد ، وقال :

---

(١) جدود الأولى : جمع جد ، وهو أب الأب . والثانية جمعه : بمعنى الحظ .

(٢) النوى : البعد ، وهو مؤنث . القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر .

ولـكنَّنِي لم أَحْوِ جمعا مُوَفَّرًا ... ففُزْتُ به إلا بشَمْلٍ مُبَدَّدِ (١)

ولم تُعْطِنِي الأيامُ نَوْمًا مُسَكَّنًا ... أَلَذُّ به إلاَّ بِنَوْمٍ مُشَرَّدِ .

فقال عُمارة : لله درّه ، لقد تقدّم فى هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول فيه حتى لقد حبب إلىَّ الاغتراب . هيه ، فأنشده :

وطول مُقامِ المرءِ فى الحىِّ مُخْلِقٌ ... لديباجتيـــه فاغترب تتجدَّدِ (٢)

فإنِّى رأيتُ الشمسَ زيدتْ محبةً ... إلى الناس أَنْ لَيْسَتْ عليهم بسَرْمَدِ

فقال عُمارة : والله لئن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن المعانى ، واطراد المراد ، واتساق الكلام ، فإن صاحبكم هذا أشعر الناس .

وحدث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : لما قدم أبو تمام خراسان اجتمع الشعراء إليه وسألوه أن ينشدهم ، فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غداً وستسمعوننى ، فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عوَادِى يُوسُفٍ وصواحبُه ... فعَزْمًا فقِدْمًا أدرك النُجْحَ طالِبُهْ (٣)

فلما بلغ إلى قوله :

وقَلْقَلَ نَأْىٌ من خُرَاسانَ جأشها ... فقُلْتُ اطمئنى أَنْضَرُ الرَّوْضِ عازِبُهْ (٤)

---

(١) جمع : مجموع ، والمراد به المال المكتسب . موفر : كثير .

(٢) أخلق اللابس الثوب : أبلاه وذهب بجدته . الديباجتان : الخدان .

(٣) يروى البيت بلا همز فيكون قد دخله الخرم ، وهو عيب شعرى كما يروى به فيخلو من العيب . ولذلك آثرنا روايته بالهمز . عوادى : جمع عادية ، من عداه عن كذا : بمعنى صرفه . والاستفهام فى البيت للتقرير . والمعنى لا شك أن النساء هن اللاتى حاولن صرف يوسف عن تقاه ، وإذا كان ذلك فاعزم عزما أكيدا على مخالفتهن حتى تدرك النجح فإنما سبيل إدراك النجاح هو تصميم العزم وإمضاء النية (من تعليقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

(٤) ويروى نأيى . الجأش : القلب أو الصدر . وقولهم فلان رابط الجأش من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله : أى أن الشجاع لثباته كأنه يربط قلبه يمنعه من الطيران ، أومن إضافته إلى فاعله : أى أن قلبه يربطه فتثبت قدمه فلا يفر (من تعليقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

وَرَكْبٍ كأطرافِ الأسِنَّةِ عَرَّسُوا عَلَى مِثْلِهَا والليلُ تسطو غَيَاهِبُهْ[١]
لأمْرٍ عليهمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ وليس عليهم أن تَتِمَّ عَوَاقِبُهْ[٢]

صاح الشعراء ما يستحقّ مثل هذا الشعر غير الأمير أعزّه الله ، وقال شاعر منهم يعرف بالرياحى : لى عند الأمير جائزة وعدنى بها ، وقد جعلتها لهذا الشاعر جزاء إحسانه ، فقال له عبد الله : بل نضعفها لك ونقوم بما يجب علينا له ، فلما فرغ من الإنشاد نثر عليه ألف دينار فتركها ، فالتقطها الغلمان .

وأنشد أبو تمام يومًا أبا دلف العجلى قصيدته :

على مِثْلِها من أربُعٍ وملاعِبِ أُذِيلَتْ مَصُونَاتُ الدموعِ السواكبِ[٣]

فلما بلغ إلى قوله :

إذا افتخرتْ يومًا تميمٌ بِقَوْسِهَا وزادت على ما وَطَّدَتْ من مناقِبِ[٤]
فأنتم بذى قارٍ أمالت سيوفكم عروشَ الذين اسْتُرْهِنُوا قوسَ حاجبِ[٥]
محاسنُ من مَجْدٍ متى تَقْرِنُوا بها مَحَاسِنَ أقوامٍ تَكُنْ كالمعايبِ

فقال أبو دُلَفٍ : يامعشر ربيعة ، مامدحتم بمثل هذا الشعر فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها إليه ، فقال أبو دلف : قد قبلها وأعاركم لبسها ، وسأنوب عنكم فى ثوابه ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ما هى بإزاء استحقاقك وقدرك

---

(١) التعريس : نزول آخر الليل ، شبه الراكبين بأطراف الأسنة فى النفاذ ، والمضاء فى العزم ، وشبه الإبل بأطراف الأسنة فى دقتها وقلق الراكب عليها وتأذيه بركوبها من نحولها وتألمه بمباشرة عظامها .

(٢) يعتقدون صواب مايرونه ولا يفكرون فيما تأتى به الأقدار .

(٣) أذال الشىء : امتهنه وابتذله ولم يرع حقه .

(٤) يشير بهذا البيت إلى حادث حاجب بن زرارة مع كسرى حين قدم عليه فى سنة جدبة وطلب إليه حمل ألف بعير برا على أن يعيد إليه قيمتها إذا أيسر ، فقال كسرى وما ترهننى على ذلك ؟ قال قوسى هذه ، فاستعظم كسرى همته وقبل منه الرهن . ومات حاجب فأحضر بنوه المال إلى كسرى وطلبوا قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك (كتاب هبة الأيام) .

(٥) يقول لبنى عجل قوم أبى دلف : إذا كان لتميم هذه المفخرة فإن لكم الغلبة على كسرى فى يوم ذى قار . وهو من أعظم أيام العرب مع الفرس (كتاب هبة الأيام) .

فاعذرنا، فشكره وقام ليقبل يده فحلف ألاّ يفعل، ثم قال له: أنشدنى قولك فى رثاء محمد ابن حميد الطوسىّ، فأنشده :

وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه ... من الضَّرْب واعتلَّتْ عليه القَنَا السُّمْرُ[1]

وقد كان فَوْتُ الموت سهلا فردَّهُ ... إليـه الحفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ[2]

فأثبت فى مُسْتَنْقَعِ الموت رِجْلَهُ ... وقال لها من تَحْتِ أَخْمَصِك الحَشْرُ[3]

غـدا غُدْوَةً والحمدُ نَسْجُ ردائه ... فلم يَنْصَرِفْ إلاَّ وأكفانه الأَجْرُ

كأن بَنِى نَبْهَانَ يَوْمَ وَفاتِهِ ... نجومُ سماءٍ خَرَّ من بَيْنِها البَدْرُ

يُعَزَّوْنَ عن ثَاوٍ تُعَزَّى به العُـلاَ ... ويبكى عليه البأسُ والجودُ والشعرُ

وأنَّى لهم صَبْرٌ عليـه وقد مضى ... إلى الموت حتى اسْتُشْهِدَا هو والصبرُ

فتى كان عَذْبَ الرُّوحِ لا من غَضَاضَةٍ ... ولكنَّ كِبْرًا أن يُقَال به كِبْرُ[4]

فَتًى سلَبَتْهُ الخيلُ وهو حِمًى لها ... وبَزَّتْهُ نارُ الحَرْبِ وهو لها جَمْرُ

---

(١) استعار أبو تمام موت حد السيف لانثلامه، والوجه فيها انعدام الأثر وبطلان العمل . أما اعتلال القنا، فاما أن يكون معناه أنها جنت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى عصيانه والخلاف عليه وما ذنبه عندها إلا كثرة تكليفها الطعن . وإما أن يكون معناه إصابتها بالعلة (وعلتها تثلم نصالها وتكسر كعوبها) فأصبحت لا تستطيع العمل معه . وهذا المعنى يناسب ماتقدم من موت حد السيف (من تعليقنا على كتاب هبة الأيام) .

(٢) الحفاظ : حماية الحقيقة (مايجب الدفاع عنه) ووصفه بالمرارة لأن فى سبيله يتكلف المرء شدة هى بمثابة الطعم المر .

(٣) الأخمص : ما لا تمسه الأرض من باطن الرجل.

(٤) الغضاضة : الذل . والمعنى أنه كان رقيق الشمائل لين الجانب، وليس ذلك منه هوانا وصغر شأن ، ولكنه ترفع منه عن أن يتهم بالكبر. ويرى بعض الشراح للبيت أن لكنّ نصبت كبرا على أنه اسمها وخبرها محذوف ، والتقدير ولكن كبرا عن أن يقال إنه متكبر ، جعله عذب الروح . وقيل إن اسم لكن محذوف والخبر جملة فعلية ناب عنها المصدر ، والتقدير ولكنه يتكبر كبرا عن أن يقال به كبر . ورأيى أن لكن أهملت مع عدم تخفيفها فهى عاطفة لتمييز على تمييز كأنه قال هو عذب الروح لامن جهة الغضاضة والمذلة ولكن من جهة الكبر عن التهمة بالكبر (ملخص من تعليقاتنا على كتاب «هبة الأيام») .

وقد كانت البيضُ المآثيرُ في الوَغَى ... بَوَاتِرَ فَهْيَ الآنَ من بَعْدِه بُتْرُ[1]

أمِنْ بعد طَيِّ الحادثات مُحَمَّدًا ... يكون لأثوابِ النَّدَى أبداً نَشْرُ

إذا شجراتُ العُرْفِ جُذَّتْ أُصولُها ... فَفِي أيِّ فَرْعٍ يُوجَدُ الوَرَقُ النَّضْرُ

مضى طاهرَ الأثوابِ لم تَبْقَ رَوْضَةٌ ... غداةَ غَدَا إلا اشْتَهَتْ أنها قَبْرُ

ثَوَى في الثَّرَى من كان يَحْيَا به الثرى ... ويَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نائلُه الغَمْرُ

عليك سلامُ اللهِ وَقْفاً فإنني ... رأيتُ الكريمَ الحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

فلما أتمّ إنشادها قال أبو دلف : والله لوددت أنها فيّ ، فقال أبو تمام : بل أفدى الأمير بنفسي وأهلي وأكون أنا المقدم دونه ، فقال له : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر أو مثله .

ولما قدم على الحسن بن رجاء ، فأنشده قصيدته اللامية ، فوصل إلى قوله :

لاتُنْكِرِي عَطَلَ الكريمِ من الغنى ... فالسيلُ حَرْبٌ للمكان العالى[2]

وتَنَظَّرِي خَبَبَ الرِّكابِ يَنُصُّهَا ... مُحْيِي القَرِيضِ إلى مُمِيتِ المَالِ[3]

قام الحسن على رجليه وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه ، وأتمها بقوله :

لما بَلَغْنَا ساحَةَ الحسن انقضى ... عنا تَمَلُّكُ دَوْلَةِ الإِمْحَالِ

بَسَطَ الرَّجَاءَ لنا بِرَغْمِ نوائبٍ ... كَثُرَتْ بهنّ مَصَارِعُ الآمالِ

أَغْلَى عَذَارَى الشِّعْرِ أنَّ مُهُورَها ... عِنْدَ الكِرامِ وإن رَخُصْنَ غَوَالِ

تَرِدُ الظُّنونُ بنا على تصديقها ... ويُحَكِّمُ الآمالَ في الأموال

---

(١) يروى البواتر ، وهي جمع باتر : بمعنى قاطع ، والمباتير : جمع مبتار ، وهي صيغة مبالغة من البتر . والمآثير : جمع مأثور ، وهو السيف الذي شفرته حديد ذكر ، أو الذي عملته الجن (وهذا من أوهام العرب) أو الذي توارثه الناس لنفاسته . بتر : جمع أبتر ، وهو في الأصل المقطوع الذنب ، والمراد هنا قليل النفع .

(٢) العطل (بالتحريك) : التجرد من الحلي . الحرب : العدو وان لم يكن محاربا ، وهو وصف بالمصدر يستوى فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث .

(٣) الخبب نوع من السير . نص دابته : حملها على بذل أقصى ما عندها من السير .

أَضْحَى سَمِيُّ أبيك فيك مُصَدَّقًا بأجلّ فائدةٍ وأصْدَقِ فالِ[1]
ورَأَيْتَنِي فسألتَ نَفْسَك سَيْبَها لِيَ ثم جُدْتَ وما انتظرتَ سُؤَالِي
كالغيثِ ليسَ له أُرِيدَ نواله أو لم يُرَدْ بُدٌّ من التَّهطَالِ

فتعانقا وجلسا ، وقال له الحسن : ما أحسن ما جلوت هـذه العروس ، فقال : والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . قال محمد بن سعيد وأقام عند الحسن شهرين ، فأخذ على يدىّ عشرة آلاف درهم وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به على بخل كان فى الحسن بن رجاء .

العيوب فى شعر أبى تمام

لأبى تمام استعارات خرج بها عن الجادة والتمس فيها أوجه شبه يجتذبها اجتذاباً ويعقد بها صلة نافرة ، فمن ذلك قوله :

جَذَبْتُ نداه غُدْوَةَ السبتِ جَذْبَةً فخر صَرِيعاً بين أيدى القصائد

وقوله :

أَنْزَلَتْهُ الأيامُ عن ظهـرها من بعد إثباتِ رِجْلِهِ فى الرِّكَابِ

وقوله :

كُلُوا الصَّبْرَ مُرًّا واشربوه فإنَّكُمْ أَثَرْتُمْ بَعِيرَ الظُّلْمِ والظُّلْمُ بَارِكُ

وقوله :

يَدُ الشَّكْوَى أَتَتْكَ على البَرِيدِ تُمَدُّ بها القصائدُ بالنشيدِ
تُقَلِّبُ بينها أَمَلاً جـديداً تَدَرَّعَ حُلَّتَيْ طَمَعٍ جَـدِيدِ
شَكَوْتُ إلى الزمان نُحُولَ حالى فأَرْشَدَنِى إلى عَبْدِ الحميد

---

١) يريد بسمى أبيه : الرجاء .

فجئتُك راكبا أَمَـلَ القوافى على ثِقَةٍ من البلد البعيـد

وقوله :

لا تسـقنى ماء الملام فإننى صب قد استعذبتُ ماء بكائى[1]

وقوله :

هوًى كان خَلْساً إن من أحسن الهوى هَوًى جُلْتَ فى أفنائه وهو خامل[2]

وقوله :

استنبَتَ القلبُ من لوعاته شجراً من الْهُمُومِ فأَجْنَتْها الوساويسا

وقوله :

لا يَأْسَفُون إذا همو سَمِنَتْ لَهُمْ أحسابهم أَنْ تُهْزَل الأَعْمَـارُ

وقوله :

ترى حَبْلَه عُرْيَانَ من كُلِّ غَدْرَةٍ إذا نُصِبَتْ تَحْتَ الحِبَالِ الحَبَائِلُ

وأنت غنىّ عن أن نفسر لك وجه التكلف فى هذه الاستعارات ، و بعضها إنما دفع إليه حبه للجناس أو غيره من أنواع البديع ، ففى البيت الأخير لم يجعل الحبل عريان من الغدر إلا ليتمم كلامه بالحبال التى تحتها حبائل فيجتمع له الجناس الذى أراده .

---

(١) أورد صاحب كتاب الكشكول هذا البيت وقال إن السكاكى يستهجه لأن الاستعارة التخييلية منفكة عن المكنية، وصاحب الايضاح يمنع الانفكاك مستندا إلى أنه يجوز أن يكون شبه الملام بظرف شراب مكروه فيكون استعارة بالكناية وإضافة الماء تخييلية، أوأنه تشبيه من قبيل لجين الماء قال ووجه الشبه أن اللوم يسكن حرارة الغرام كما أن الماء يسكن غليل الأوام، ونقل ابن الأثير أن بعض الظرفاء من أصحاب أبى تمام لما بلغه البيت المذكور أرسل إليه قارورة وقال ابعث لنا شيئا من ماء الملام فأرسل إليه أبو تمام وقال إذا بعثت إلىّ ريشة من جناح الذل بعثت إليك. قال العاملى إن للبيت محملا آخر كنت أظن أنى لم أسبق اليه حتى رأيته فى التبيان وهو أن يكون ماء الملام من قبيل المشاكلة ولا تظن أن تأخر ذكر ماء البكاء يمنع من المشاكلة فإنهم صرحوا فى قوله تعالى — فنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين — أن تسمية الزحف على البطن مشيا لمشاكلة مابعده اه ملخصا .

(٢) الخلس الاختلاس ، الأفياء : جمع فىء ، وهو كل ما كان شمسا فنسخه الظل . الخامل : الذى لا شأن له . والمعنى كان هوى هذه الجميلات مختلسا لايدرى أمره العذال والرقباء ، وإن أحسن الهوى هو الذى لا ذكر له ولا شأن يشتهر به بين الناس .

وكذلك قبح من جناسه قوله :

قَرَّتْ بقَرَّانَ عَيْنُ الدهرِ واشْتَتَرَتْ بالأشترين عيون الشِّرْكِ فاصطلحا

وقوله :

ذَهَبَتْ بمَذْهَبِه السماحـــةُ فالتوت فيه الظُّنُونُ أَمُذْهِبٌ أَمْ مَذْهَبُ

ومن قبيح طباقه :

إن المـــلوكَ هُمُ كَوَاكِبُنَا التى تَخْــفَى وَتَطْلُعُ أَسْــعُدًا ونُحُوسَا

فانظر إلى الطباق فى قوله تخفى وتطلع كيف جره إلى ســـوء الأدب فى جعل الملوك تغور وتختفى ثم وصفها بالنحس ، وهو لفظ تكفى بشاعته فى مقام المدح .

وأما إغرابه وتعويله على الألفاظ الحوشية ، فقد كان غراما منه واستظهاراً بعلمه بلغات العرب .

وقصيدته التى يمدح بها عَيّاش بن لَهِيعَة كلها تقريباً أمثلة لهذه الغرابة ، قال فى مطلعها :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوساً ورمّ بالصبر عقلا كان مألوسا(١)

ومنها :

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت عشواء تالية غبساً دهاريسا(٢)

ومنها :

الواردين حياض الموت متأقة ثباثبا وكراديساً كراديسا(٣)

نَمُوكَ قِنْعاس دَهْرٍ حين يَحْزُنُه أمرٌ يُشَاكِهُ آباءٌ قناعيسا(٤)

وبعد ، فإن عيوب أبى تمام كثيرة ، ومرذول شعره شائع فى ديوانه ، وماأشبّه حسناته بين إساءاته إلا بجواهر نفيسة قد انتثرت فى أرض كأداء وعرة ، فإذا ماأعيا المرء

---

(١) المخلوس : المسلوب . رمّ : أصلح . مألوس : مختلط .

(٢) اطلخم : أظلم . العشواء : ضعيفة البصر . الغبس : جمع غبساء ، وهى المظلمة . الدهاريس : جمع دهرس (كجعفر) وهى الداهية .

(٣) متأقة : ممتلئة . ثبا : جماعات . كراديس : جمع كردوسة ، وهى القطعة العظيمه من الخيل .

(٤) نموك : نسبوك . القنعاس : شديد منيع من الإبل والرجال . يشاكه : يشاكل ويشابه .

وحفيت قدمه صادف ، وقد أشرف على اليأس جوهرة من تلك الجواهر ، فيعوّضه لقاؤها ما لاقى من عناء ، وعانى من لأواء . وقد يسعد القارئ الحظّ فيجد القصيدة أو أو المقطوعة كلها قد سلمت من العيب ، فيرى نفسه حين يقرؤها كأنه فى سهل قد نبت جانباه ، واضطرب بالماء ساحلاه ، وهذه سلوة المتتبع لشعر أبى تمام . ولقد وجب على قارئ شعره أن يتمثل بقوله :

وَلِمْ تُعْطِنِي الأَيامُ نَوْمًا مُسَكَّنًا   أَلَذُّ بِهِ إِلاَّ بِنَوْمٍ مُشَرَّدِ

أو قوله :

بَصُرْتَ بِالرَّاحةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا   تُنَالُ إِلاَّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

وقبل أن نختم القول فى مساوئ أبى تمام نروى لك بعضاً من كلامه الذى صفا لفظه ، وراق معناه وقربت استعارته ، وحسن أثر البديع فيه ، وذلك قوله فى وصف الروض:

إِنَّ الرَّبِيعَ أَثَرُ الزَّمَانِ   لو كان ذَا رُوحٍ وذا جُثْمَانِ
مُصَوَّرًا فى صورة الإنسان   لكان بَسَّامًا من الفتيانِ
بُورِكْتَ من وقتٍ ومن أَوَانِ   فالأَرْضُ نَشْوَى من ثَرًى نَشْوَانِ
تَخْتَالُ فى مُفَوَّفِ الأَلْوَانِ   فى زَهَرٍ كالحَدَقِ الرَّوَانِي[1]
من فاقعٍ وناصعٍ وقَانِ   عَجِبْتُ من ذِى فِكْرَةٍ يَقْظَانِ
رَأَى جُفُونَ زَهَرِ الأَلْوَانِ   فَشَكَّ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَانِ

الأغراض فى شعره

تناول أبو تمام جميع أغراض الشعر من : مدح ، ورثاء ، ووصف ، وغزل ، وحكمة ، وهجاء ، وزهد ، وعتاب ، ولكنها لم تكن كلها بمثابة واحدة ، فالمديح والرثاء أعلى طبقات

---

(١) يقال برد مفوف (كمعظم) إذا كان رقيقا أو فيه خطوط بيض .

شعره ، وربما كان أشهر بالرثاء منه بالمديح ، وإن كان فى المديح مجليا بدليل ماحاز من اللها . ونستطيع أن ندلك على حسنة من حسناته ، ومثال من أمثلته إجادته للمدح لم يسبق عرضه عليك، ذلك هو قصيدته التى يمدح بها المعتصم ، وقد فتح عمورية فإنه أعلى فيها من شأن الخليفة ، ونوّه بعمله فى إخضاع الكفر وإذلال الشرك ، وقد تناولت القصيدة أغراضاً كثيرة من ذكر عمورية ، وما لها من مناعة ، ووصف لفعل النار بها وإظهار للتشفى بما أصابها ، ومدح للخليفة بحسن حياطته للدين ، ومنها قوله :

تدبيرُ معتصمٍ بالله منتقمٍ ... لله مرتقبٍ فى الله مُرْتَهِبِ

لم يَغْزُ قوما ولم يَنْهَضْ إلى بَلَدٍ ... إلاّ تَقَدَّمَهُ جيشٌ من الرُّعُبِ

لولم يَقُدْ جَحْفَلاً يوم الوَغَى لَغَدَا ... من نفسه وَحْدَها فى جَحْفَلٍ لَجِبِ

خليفةَ اللهِ جَازَى الله سَعْيَكَ عَنْ ... جُرْثُومَةِ الدينِ والإسلامِ والحَسَبِ

بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ

وأما رثاؤه فنستطيع أن ندلك على وجه إبداعه فيه وصيرورته أسمى أغراضه وأكثرها جودة ، ذلك أن الرثاء جد كله لا يحسن فيه التلاعب بالاستعارات ، ولا الإغماض فى الإشارات ، ولا التمادى فى التحسين ؛ إذ أن ذلك ينافى اشتغال القلب بالحزن وتأثره بالفجيعة ، وأبو تمام إذا سلم من هذه السقطات كان شعره فى أرقى المنازل ، فهذا فى رأينا هو فرق مابين مديحه ورثائه ، يبيح لنفسه فى الأوّل أن يسرف وأن يشتغل بما يسميه تجويداً أو تميقاً فيسلم له بعض ويشوه بعض .

وقد مرّت بك أبيات من رثائه لمحمد بن حميد الطُّوسِىّ ، وأوّل القصيدة :

كذا فَلْيَجِلّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فليسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

وَ ادلك له فيه قصيدة يقول عنها صاحب العمدة : إن مطلعها خير مطلع فى مراثى المولدين وهو :

أَصَمّ بك الناعى وإن كان أسمعا ... وأصبحَ مَغْنَى الجودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

ومنها :

فلم أرَ يومًا كان أشبهَ ساعةٍ … بيومٍ من اليوم الذى فيه وَدَّعا

مَصيفٌ أفاض الحزنُ فيه جداولا … من الدمع حتى خِلْته صار مَرْبَعا

ووالله لا تَقْضِى العيونُ الذى له … عليها ولو صارت مَعَ الدَّمْعِ أَدْمُعا

فتًى كان شِرْبًا للعُفاةِ ومَرْتَعًا … فأصبح للهِنْدِيَّةِ البِيضِ مَرْتَعا

فتى كلما ارتاد الشُّجَاعُ من الرَّدَى … مَفرًّا غَدَاةَ المَأْزِقِ ارتاد مَصْرَعَا

إذا ساء يومٌ فى الكريهة مَنْظَرًا … تَصَلَّاهُ عِلْمًا أَن سَيَحْسُنُ مَسْمَعَا

فإن تَرْمِ عَنْ عُمْرٍ تدانى به المَدَى … فخانك حتى لم تَجِدْ فيه مَنْزِعا

فما كنتَ إلّا السيفَ لاقى ضريبةً … فقطَّعَهَا ثُمَّ انثنى فتَقَطَّعا

وأما الوصف فأظهر ما أطال فى وصفه هو الربيع ، فله فيه قصائد أقام فيها وصفه مقام النسيب ، ومنها قصيدته التى يمدح بها المعتصم بعد وصف طويل للربيع وأنواره ، وهى التى مطلعها :

رَقَّتْ حواشى الدهرِ فَهْىَ تَمَرْمَرُ … وغدا الثرى فى حَلْيِه يَتَكَسَّرُ(١)

نَزَلَتْ مُقَدِّمَةُ المَصِيفِ حميدةً … وَيَدُ الشتاءِ جديدةٌ لا تُكْفَرُ(٢)

لَوْلاَ الذى غَرَس الشتاءُ بكفه … لاقى المصيفُ هَشَائِمًا لا تُثْمِرُ(٣)

ومنها قوله :

يا صاحبىَّ تَقَصَّيَا نظريكما … تَرَيَا وجوهَ الأَرْضِ كيف تَصَوَّرُ

تَرَيَا نهارًا مُشْمِسًا قد شَابَهُ … زَهْرُ الرُّبا فكأنما هو مُقْمِرُ(٤)

دنيا مَعَاشٌ للفتى حتى إذا … حَلَّ الربيعُ فإنَّما هى مَنْظَرُ

---

(١) تمرمر يتمرمر : تموّج يتموج . الثرى التراب . يتكسر : يتثنى ، والمراد بحلى الثرى نباته .

(٢) مقدمة المصيف : هى مايسبقه ، وهو الربيع ، وجديد الشتاء لأنه ندّى الأرض حتى نبت النبت.

(٣) الهشائم : جمع هشيمة ، وهى الشجرة اليابسة .

(٤) يريد أن خضرة النبات كسرت من ضوء الشمس حتى صار ضوءها هادئا ضعيفا كضوء القمر .

أَضْحَتْ تَصُوغُ بُطُونُها لظهورها نَوْرًا تَكَادُ له القُلُوبُ تُنَوِّرُ

ومنها فى التخلص إلى المدح وقد أبدع ما شاء :

خُلُقٌ أطَلَّ من الربيع كأنه خُلُقُ الإمامِ وهَدْيُه المُتَنَشَّرُ
فى الأرضِ من عَدْلِ الإمامِ وجُودِهِ ومن النَّباتِ الغَضِّ سُرْجٌ تَزْهَرُ(١)

⁂

وأما الحكمة فى شعره فقد كثرت حتى قيل فى الموازنة بينه و بين البحترى والمتنبى : أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى .

ولكن الذى ينبغى أن نعلمه أن الحكمة ليست بمثابة واحدة عند أبى تمام والمتنبى ، فهى من ناحية الكم قليلة عند أبى تمام غزيرة عند المتنبى ، وهى من ناحية النوع قريبة بسيطة عند الأوّل عميقة مركبة عند الثانى ، ومرجع ذلك أن مصدر الحكمة عندهما هو العلوم المترجمة . وقد كانت أيام أبى تمام فى بدء حياتها عند العرب لم تكن نضجت ولا شاعت بينهم ، أما فى أيام المتنبى ، فقد كان لطول العهد بها أثر فى تداولها وتأصلها فى النفوس ، لذلك إذا رأيت أبا تمام يلمّ بها إلمامًا ، و يتناولها من أطرافها تجد المتنبى يحكيها حكاية الدارس المتثبت ، و ينقلها نقل الحافظ الواعى حتى لقد قالوا : إنه عمل على نقل حكم أرسطو كلها فى شعره ، فوزّعها فيه بالمناسبات التى صحت لها ، لكن حكمة أبى تمام لم تكن نقلا ، ولا حكاية لحكمة اليونان أو غيرهم ، و إنما كانت أثر الثقافة العامة التى استفادها من الاطلاع على علوم هذه الأمم .

وناحية أخرى من الفرق بين حكمة هذين الشاعرين أنك تجد المتنبى يأتى بها فى الغالب مستقلة بنفسها غنية عما قبلها فى إفادة معناها تصلح للاستشهاد وتستقلّ بالإنشاد . أما حكمة أبى تمام فهى فى الغالب إنما سيقت مرتبطة بالمعنى الذى اتصلت به ووردت

---

(١) سرج (بالضم) مخفف سرج بضمتين جمع سراج ، تزهر (كمنع) تتلألأ .

بمناسبته ، ولم تمنح من ألفاظ العموم ما يجعلها تستقل بوجودها ، وذلك كله يمثل بساطتها فى نفس قائلها كما يمثل ورودها على لسان الثانى أنها معنى متكامل اختير له لفظ مستقل ، وجملة القول أن حكمة أبى تمام فى الغالب جزء من البيت ، أما حكمة المتنبى فبيت مستقل ، هذا إلى كون الأولى أقرب إلى الخصوص ، والثانية أظهر فى العموم .

ومن أمثلة حكمه قوله :

مالتْ وقد أعْلَقْتُ كَفِّى كَفَّها   حِلاًّ (وما كلّ الحلال يطيب)

وقوله :

الجدُ شيمتُهُ وفيه فُكاهَةٌ   سَمْحٌ (ولا جِدٌّ لمن لا يَلْعَبُ)

وقوله :

تَعِبُ الخلائقِ والنَّوالِ (ولم يكن   بالمستريح العِرْضِ من لم يَتْعَبِ)

وقوله :

لو سِرْتَ لالتقتِ الضلوعُ عَلَى أَسًى   كَلِفٍ قليل السِّلْمِ للأحشاء

ولجفَّ نُوَّارُ القريض (وقلما   يُلْفَى بَقاءُ الغَرْسِ بَعْدَ الماء)

وقوله :

وضعيفةٍ فإذا أصابتْ فرصةً   قتلت (كذلك قُدْرَةُ الضُّعَفَاءِ)

وقوله :

ذرينى وأهوالَ الزمانِ أُعانِهَا   (فأهْوَالُه العظمى تليها رَغَائِبُه)

وقوله :

لما أطال ارتجال العَذْلِ قُلْتُ له   (العزمُ يَثْنِى خُطُوبَ الدَّهْرِ لا الخُطَبُ)

وقليل فى كلامه تلك الحكم المستقلة مثل قوله :

السيفُ أَصْدَقُ أنْبَاءً من الكتب   فى حده الحد بين الجِدِّ واللَّعِبِ

وقوله :

إن الأُسودَ أسود الغاب هِمَّتُهَا   يَوْمَ الكريهة فى المسلوبِ لا السَّلَبِ

وقوله :

ومن لم يُسَلِّمْ للنوائب أصبحت   خلائقُهُ طُرًّا عليه نَوَائِبَا

وقوله :

قد يُنْعِمُ اللهُ بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ   ويَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ القومِ بالنِّعَمِ

أما الحكم فى كلام المتنبى ، فهى كما وصفنا كثيرة الحكم عميقة الفكرة غالبة الاستقلال بعبارتها وأمثلتها كثيرة لانطيل بذكرها ، فهى منك بمرأى ومسمع فى كلّ حين .

وأما الغزل فى شعره فلا يدل على طبع ولا يعبر عن وجدان ، فهو فى نظرنا غزل صناعى يجىء به أبو تمام ليقيم عمود القصيدة لايعبر فيه عن لوعة ، ولا يذرف به دمعة ، وظننا أنه لوكان أبو تمام عاشقاً مدلهاً ومحباً مدنفاً ما استطاع بمذهبه الذى اختاره لنفسه وأسلوبه الذى عكف عليه أن يأتى بحسن فى هذا الباب ، لأن الرجل عميق فى معانيه ، غريب فى مبانيه ، وليس شىء من ذلك صالحا فى باب الغزل ، فالغزل يجيده شاعر كأبى نواس أو أبى العتاهية لما فيهما من سهولة وطبع مقارب ومعان متداولة ، ألم تر إلى الفرزدق وقد كان فاسقا فاتكا لم يكن غزلا لجساوة لفظه ورجاحة معانيه ؛ فأما جرير وهو معاصره ومعاشره فقد دان له الغزل لما ملك من طبعه وسهولة لفظه وقرب معانيه مالم يملك الفرزدق ، فهكذا الشأن فى أبى تمام والمتنبى شغلا بالحكمة والمعنى الفائق ، واللفظ الجزل ، فلم يسلس لهما قياد الغزل لأنهما لايملكان آلاته.

ومن غزله الحسن فى صناعته قوله :

آرامةَ كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمِ   لو استمتعْتِ بالأُنْسِ المُقِيمِ

أَدارَ البؤسِ حَسَّنَكِ التَّصَابِي   إلىّ فَصِرْتِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

لئنْ أصبحتِ مَيْدَانَ السَّوَافِي   لَقَدْ أصبَحْتِ مَيْدَانَ الهُمُومِ

ومما ضَرَّمَ البُرَحَاءَ أَنِّي   شَكَوْتُ فما شَكَوْتُ إلى رَحِيمِ

أَظُنُّ الدَّمْعَ فى خَدِّى سَيَبْقَى   رُسُومًا من بكائِى فى الرُّسُومِ

وليلٍ بِتُّ أَكْلَؤُهُ كأنى   سَلِيمٌ أو سَهِرْتُ على سَلِيمِ

وقوله :

مافى وقوفك ساعةً من باسِ نقْضِى ذِمامَ الأَرْبُعِ الادْرَاسِ
فلعلَّ عينكَ أن تُعِينَ بمـائِهَا والدمْعُ منهُ خاذلٌ ومُوَاسِ
لا يُسْعِدُ المشتاقَ وَسْنَانُ الهوى يَبِسُ المَدَامِـعِ باردُ الأَنْفَاسِ
إنَّ المنازلَ سَاوَرَتْهَا فُرْقَةٌ أَخلَتْ من الآرام كُلَّ كِنَاسِ

وممـا سمج من غزله قوله :

يا شادناً صِيغَ من الشَّمْسِ تِهْ بالمَلَاحَاتِ على الإِنْسِ
فى كلِّ يوم أنت فى صورةٍ غَيْرِ التى كُنْتَ بها أَمْسِ
تَزْدَادُ طيباً كلَّ يومٍ كما يزداد غُصْنُ البان فى الغَرْسِ
واللهِ لولا اللهُ لا غيرُه وخوفِىَ النار على نفسى
صَلَّيْتُ خَمْساً لك من هيبة وزدت ثِنْتَيْن على الخَمْسِ

فانظر إلى روحه الثقيلة فى الحلف بالله وتأكيد ذلك بقوله لاغيره ، ثم خوفه على نفسه من النار ، والمحبّ فى سبيل حبه يستهين بكلّ شىء ، ثم انظر إلى مشارفته الـكفر فى سبيل غزله حين نوى أن يصلى لمحبوبه خمساً أو سبعاً .

وانظر إلى أسلوبه الذى لم يعهد فى غزلٍ قبله ، وهو قوله :

أَزَعَمْتَ أن الظَّبْىَ يَحْكِى طَرْفَه والغُصْنَ حين يجول فيـه ماؤه
اسـكتْ فأين ضياؤه وبهاؤه وذكاؤه ووفاؤه وحيـاؤه

وفى لفظ اسكت ما فيه ممـا يجافى رقة الغزل وعذوبة ألفاظه ، ولين خطابه ، وفى وصف المحبوب بالوفاء مخالفة لمـا جرى عليه العشاق من اتهامه بالغدر والخلف .

وانظر إلى قوله فى قسوة محبوبه :

لـكنّما أشكو إلى حَجَرٍ تَنْبُو المعاول عنه أو أقسى

ويكفى من سوء الأدب فى الحب أن يجعل محبوبه حجراً أو أقسى من الحجر .

وبقية أغراض شـعره لا نعلق عليها بقول ، إلا أنه فى الهجاء كان مُغَلَّباً ، وليس

انهزام الشاعر فى هذا الباب إلا دليلا على سلامة نفسه ، و بعد الهجر من لسانه ، وعدم تسلط الشرّ والغضب على طبعه ، لذلك يقول ابن رشيق فى العمدة : إنه من المغلبين ، وقد هاجى ابن السَّرّاج وعُتْبَة فما أتى بشىء .

آثار أبى تمام

لعلّ أبا تمام أول شاعر تناول التأليف ، ولكن خصوصيته فى تحصيل شعر العرب جاهلية و إسلاما هى التى جعلته يخرج لنا ديوان الحماسة الذى رتبه على عشرة أبواب هى : الحماسة، والمراثى، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات والسير ، والملح ، ومذمة النساء . وقد كثر شرّاحه ، فشرحه الخطيب التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ ﻫ ، وهو مطبوع أر بعة أجزاء كبار ، وهو أكبر شروحه ، وله شروح أخرى المرزوقى ، وأبى العلاء المعرى ، وابن جنى ، ومنها نسخ خطية بدار الكتب الملكية .

وقد شرحه أخيراً الأستاذ اللغوى الشيخ سيد بن على المرصفى فى كتاب سماه : « أسرار الحماسة » ، وقد رأى أن يغير نظامه ، و يرتب أبوابه ترتيباً آخر .

وقد ترجم ديوان الحماسة إلى الألمانية « فريدريك روكرت » . ولأبى تمام حماسة أخرى تسمى كتاب « الوَحْشِيّات » ، وهى إحدى الكتب النادرة التى أحضرها أحمد زكى باشا لتطبع بمصر ، ولم يطبع للآن .

وقد ذكروا أن السبب فى تأليفه هذين الكتابين وثلاثة غيرها فى الشعر أيضاً أنه نزل ضيفاً على صاحب له بهَمَذان اسمه ابن سَلَمَة ، فلما همّ بالرحيل كان قد وقع ثلج قطع الطريق على السابلة ، فغمّ أبو تمام وفرح صديقه ، وقال له : « وطن نفسك على أن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان » ، ثم شغله بخزانة كتبه ، فألف فى مدّة بقائه عنده هذه الكتب .

ومن آثاره ديوانه الذى جمعه أبو بكر الصُّولى المتوفى سنة ٣٣٥ ﻫ ورتبه على

حروف المعجم ثم جمعه عليّ بن الأَصْبَهَانيّ ورتبه على الأنواع ، وله شروح كثيرة ، منها : شرح الصولى ، وشرح التّبْريزى ، ومن كلّ منهما نسخة خطية بالمكتبة الملكية .

وهو مطبوع بمصر والشام بشرح لا قيمة له وضبط غير صحيح فى الغالب ، ويحتاج ديوان أبى تمام لخدمة حتى يسهل الانتفاع به (١) .

حياة البحترى

[نسبه] : هو الوليد بن عُبَيْد الله . ينتهى نسبه إلى بُحْتُر ، ثم إلى طيئ ، ثم إلى قَحْطان . وهو عربى صميم لأن أمه كما ذكر فى شعره عربية كذلك ، قال :

بنى ناهلٍ مَهْلا فإن ابن أختكم   له عَزَمَاتٌ هَزْلُ آرائها جِدّ

وقد كان البحترى يفخر بآبائه ، فمن ذلك قوله :

وإذا ما عددتُ يحيى وعَمْراً   وأبَاناً وعامراً والوليدا
وعُبَيْدا ومُسْهِرًا وجُدَيًّا   وتَدُولاً وبُحْتُراً وعَتُودَا
لم أدع من مناقب المجد ما يُقْـ   ـنِع من هَمَّ أن يكون مَجيدا
ذهبت طَيِّئٌ بسابقة المجـ   ـد على العالمين بأساً وجُودَا

نشأته وتصرفه

ولد بمدينة مَنْبِج سنة ٢٠٦ هـ ، وهى بين حلب والفرات ، وكان يضرب على شواطئ الفرات كثير من قبائل طيئ ، فكان يختلف إليهم ، فنشأ عربى اللهجة كما هو عربى النسب .

ومنبج التى كانت منشأه ، وحلب التى كان يتردد عليها ، والصقع كله الذى كان

(١) وقد استطعنا أخيرا أن نخدم شعر أبى تمام بما أحدثناه من إحياء لكتاب « هبة الأيام » وتعليق عليه .

مستراده ومذهبه ، ومراحه ومغداه ، كل ذلك كان له فى نفسه منزلة كبيرة فلم يفتر عن ترديد ذكر هذه البلاد فى شعره بعد أن صار إلى العراق ومدح الخلفاء ونادمهم .

وإنك لتظفر بأسباب تعلقه بموطنه الأول مما ردده فى شعره من الحنين إليه ، ومرجع ذلك إلى حسن الهواء ، وطيب الماء ، وفتنة الطبيعة ، وما كان له فيه من هوى يجذبه إليه إذ عشق عَلْوة بنت زُرْعة الحَلَبية ، ولعلها كانت الحبيب الأول ، فإنه لم يفتر عن ذكرها ، والنسيب بها فى قصائده التى مدح بها المتوكل وغيره ، ثم يظهر أنه كان يعيش بمنبج فى عزة من قومه ، وشرف قديم لبيته ، وتلك أسباب لا يَعْدِل الوطن معها شىء .

فأما فتنته بجمال بلاده ، فيدل عليها قوله :

حنَّتْ ركابى بالعِرَاقِ وشاقنى … فى نَاجِرٍ بَرْدُ الشآم وريفُها(١)

وقوله :

ذَكَّرْتَنَا بَرْدَ الشآم وعَيْشَنا … بين القِبَابِ البيضِ والْهَضَبَاتِ

وأمّا ما يدل على أنّ الشام مسكن هواه ، فقوله :

وقد حاولتُ أن تَخِدَ المطايا … إلى حَىٍّ على حَلَب حُلُولِ(٢)

ولو أنى ملكتُ إليك عَزْمى … وَصَلْتُ النَّصّ فيها بالذَّمِيلِ(٣)

وقوله :

جَفَوْتُ الشامَ مُرْتَبَعِى وأُنْسِى … وعَلْوَةَ خُلَّتِى وهَوَى فُؤَادِى(٤)

وأما كرم محتده وعراقة مجده ففى قوله :

جَدِّى الذى رَفَعَ الأذَانَ بمَنْبِجٍ … وأقام فيها قِبْلَةَ الصَّلَوَاتِ

---

(١) ناجر : رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف .

(٢) وخد البعير (كوعد) : أسرع .

(٣) النص : استخراج أقصى ماعند الدابة من السير . الذميل : السير اللين .

(٤) الخلة : الصديق ، الذكر والأنثى والواحد والجمع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحق أن للخيال الشعرى والدعوى الكاذبة من الشعراء أثراً فى بعض تلك الحقائق التى أحب البحترى أن يلزمنا الاعتراف بها ، فقد أرانا أنه كان فى بلاده فى أرغد عيش وأكرم منزلة حتى لقد جعل ذلك مَضْرِب المثل فى قوله لأبى نَهْشَلٍ مادحًا شاكراً :

لا أَنْسَيَنْ زمناً لديك مُهَذَّبًا ... وظلال عيش كان عندك سَجْسَجِ (١)

فى نِعْمَةٍ أوطِنْتُهَا فأقمتُ فى ... أفيائها فكأننى فى مَنْبِجِ

ويقول فى قصيدته فى وصف إيوان كسرى :

واشـــترائى العراق خُطَّةُ غَبْنٍ ... بعد بيعى الشآمَ بَيْعَةَ وَكْسِ (٢)

وليس أحد يعقل أن البحترى كان فى منبج فى أرفه من عيشه بالعراق ، وقد اقتنى المال الكثير وصار يركب فى جملة من عبيده ، واتخذ قهارمة وكتابا ، وخلف لأبنائه ثروة جعلتهم إلى زمن بعيد من الرؤساء والسادة المذكورين . هل يعقل أن يكون شأن البحترى فى منبج كما وصف؟ وقد ذكر أنه كان يتنقل فى أسواقها ويمدح باعة الباذنجان والبصل . فهب أن انطباعه على قول الشعر جعله يتحدر من فمه ، ولكن الشرف وسموّ المكانة كما يزعم كان جديرا أن يجعل موضوع شعره شيئاً غير مدح الباعة ، وهل يمدحهم إلا من يطمع فى شىء من دراهمهم أو مما يبيعونه غالبا ؟ .

وإذا قيس الغائب بالشاهد حكمنا بأن علوة هذه عروس من عرائس الشعر لم يدّع البحترى عشقها إلا ليصبغ خياله بلون الحقيقة حتى يستطرفه سامعوه ، ولعل صبابته بها ، وتحرقه عليها كانا كصبابته بغلامه نسيم الذى باعه يوما فاشتراه إبراهيم بن الحسن ابن سهل ، فأكثر البحترى من الأسف عليه ، وإظهار اللهفة ، والحسرة على فقده

---

(١) يوم سجسج : لا حر ولا قر .

(٢) وكس الرجل فى تجارته كأوكس (مبنيين للمجهول) كوكس (كوعد) : لم يربح فيها .

حتى رده إليه إشفاقا عليه ، ثم باعه فأعاد السيرة وهكذا ، فجعل من كذب غرامه بغلامه وسيلة للحصول على المـال .

⁂

سمع البحترى بشاعر عظيم القدر نابه الشأن أخمل شعراء عصره ، وحرمهم العطاء طول مدته ، ذلك هو أبو تمـام الطائى ، وقد كان بحمص دخلها فى جولة من جولاته التى ذرع بها المملكة الإسلامية شرقا وغربا ، فقصده ليعرض عليه شـعره فى جملة الشعراء الذين جعلوا من أبى تمـام حكما يرجعون إليه كما كان النابغة الذبيانى بين أهل الجاهلية ، فلما سمع أبو تمـام من البحترى أقبل عليه من بين سائر من حضر ، فلما تفرقوا عنه قال له : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه الخَلَّة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان[1] (يصل كتابى هذا على يد الوليد بن عبيد الطائى وهو على بذاذاته[2] شاعر فأكرموه) ، وسلمه البطاقة ، وأمره أن يمدحهم ، فأكرموه بهذه الوصية ، ووظفوا له أربعة آلاف درهم ، فكان ذلك أول مال أصابه البحترى كما يقول :

وقد ذكر صاحب الأغانى راوى هذا الحديث حديثا آخر فى أول اجتماع كان بين أبى تمـام والبحترى . قال محدثا عن لسان البحترى : أول مارأيت أبا تمـام أنى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف ، وقد مدحته بقصيدتى :

أَأَفَاقَ صَبٌّ من هوًى فأُفِيقَا أو خانَ عَهْدًا أو أطاع شَفِيقَا

فسر بها أبو سعيد ، وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس تكاد تمس ركبته ركبة

---

(١) معرّة النعمان : بلد بين حلب وحماة . والنعمان الذى أضيفت إليه هو النعمان بن بشير اجتاز بها فدفن بها ولدا فأضيفت إليه .

(٢) بذ (كعلم) بذاذة وبذوذة : ساءت حاله .

أبى سيعد ، فقال يافتى أما تستحى منى ؟ هذا شعرى ، و إنما تنتحله وتنشده بحضرتى قال أبو سعيد : أحقا ؟ قال : نعم ، ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة حتى شككنى فى نفسى، فجعلت أحلف له بكل محرجة من الأيمان أن الشعر لى ماسبقنى إليه أحد ، ولا سمعته منه ، ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئاً ، فأطرق أبو سعيد ، وفَظِع[1] بى حتى تمنيت أنى سُخْتُ فى الأرض ، فقمت أجر رجلى فما هو إلا أن بلغت الباب حتى خرج لغلمان فردونى ، فأقبل علىّ الرجل فقال : الشعر لك يابنى ، والله ماقلته قط ، ولا سمعته إلا منك . قال : ثم دعانى (أبو تمام) ، وضمنى إليه ، وعانقنى ، وأقبل قرظنى ، ولزمته بعد ذلك ، وأخذت عنه ، واقتديت به .

ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الأولى ، فإن كل ما أحاط بها يناسب حالة التلميذ ع أستاذه ، والناشئ فى الفن مع المنتهى فيه ، فأما أن يكون البحترى قد أنشد ضرة أبى تمام شعراً عالياً كقصيدته التى يمدح بها أبا سعيد حتى يبلغ من حسد ى تمام له أن يدعى الشعر لنفسه ، ثم يقال بعد ذلك إن البحترى لزم أبا تمام ، أخذ عنه ، فذلك مالا يقبله عقل ، ولا يليق بفهم .

☆☆☆

لما نبه شأن البحترى فى الشعر وهو بمنبج وما حولها تحركت همته لقصد العراق أن كل نابغ فى فنه يقصد مقر الخلافة وموطن الأمراء ، والعظماء من الوزراء والقواد، يث المال تفيض به الخزائن وتنثر منه البدر على المجيدين ، فدخل بغداد وسر من رأى مدح الكبراء ، فلما عرف بينهم طمع أن يكون له عند الخليفة جاه فالتمس الوسيلة إلى ك بمدح وزيره الفتح بن خاقان . قال فيه شعراً وطلب الإذن عليه فأقام شهراً يصل إليه حتى جلس مجلساً عاما فأدخل البحترى عليه فسمع منه وجعل كما يقول

(1) يقال فظع (كفرح) بالأمر : ضاق به ذرعا ، والمراد هنا أن أبا سعيد ضاق بالبحترى وصار غير مطيق له لما ظهر له من انتحاله شعر أبى تمام .

البحتري يبتسم عند كل بيت جيد ، قال فعلمت أنه يعرف الشعر وكان ذلك أعجب من جميع ما وصلني به ، وكان أول ما اهتز له قولي :

وقد قلتُ المُعْلِي إلى المجد طَرْفَهُ   دَعِ المجدَ فالفتحُ بنُ خاقانَ شاغلُه

صَفَتْ مثل ما تَصْفُو المُدَامُ خِلاَلُه   ورَقَّتْ كما رَقَّ النسيمُ شمائلُه

ثم إنه أمر له بخمسة آلاف درهم وقال له : أمير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب فاعمل شعراً تنشده إياه إذا رجع . ففعل البحتري ما أمره به الفتح ثم دخل على المتوكل فأنشده :

أَبَرَّ عَلَى الأنواء نائلُك الغَمْرُ   وبِنْتَ بفَخْرٍ ما يُشَا كِلُهُ فَخْــرُ(١)

وأنتَ (أمينَ اللهِ) في الموضع الّذي   أَبَى اللهُ أن يَسْمُو إلى قَدْرِه قَدْرُ

تحسَّنَتِ الدنيا بعدلك فاغتدت   وآفاقها بيض وأكنافها خُضْرُ(٢)

ومنها في ذكر سيره إلى المصلى وخطبته :

وسِرْتَ بمُلْكٍ قاهرٍ وجلالةٍ   وما لك زَهْوٌ بين ذَيْنِ ولا كِبْرُ

عليك ثيابُ المصطفَى وَوَقارُه   وأنت به أولى إذا حَصْحَصَ الأمرُ(٣)

فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم .

وما زال البحتري مختصًّا بالفتح حتى صار صاحب شفاعته ، وما زال الفتح يكرمه حتى صيره من جلساء المتوكل .

---

(١) أبر : زاد ، الأنواء : جمع نوء . وهو سقوط نجم وظهور آخر ، وكانوا يستدلون به على المطر فأطلق وأريد به المطر نفسه تجوّزا . الغمر : الكثير . بنت : تميزت .

(٢) المراد ببياض الآفاق واخضرار الأكناف كثرة الخصب . فإن الآفاق تبيض بالسحاب المتراكم والأكناف تخضر بالزرع النابت .

(٣) حصحص : بان وظهر .

منادمة البحتري للمتوكل

بمساعى الفتح صار البحترى نديمًا للمتوكل يحضر مجالسه التى يتبذل فيها لخاصته، ولعل ما كان فى البحترى من إعجاب بشعره وحركات شاذة فى إنشاده ، كلها يثير الضحك ويبعث على العبث به ، لعل ذلك من أسباب قبوله لمنادمة المتوكل إلى جانب الشعر الذى تحتاج إليه هذه المجالس فى إجازة بيت أو وصف كأس أو رواية خبر أو غير ذلك :

ذكروا أن البحترى كان من أبغض الناس إنشاداً ، كان يتزاور فى مشيته ويهز رأسه ومنكبيه ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول أحسنت والله ، ثم يقبل على السامعين فيقول ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقوله .

وقد فعل شيئاً من ذلك وهو ينشد المتوكل قصيدته :

عَنْ أىّ ثَغْرٍ تبتسم ... وبأىّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ

حتى بلغ قوله :

قل للخليفةِ جعفرِ الـــمتوكلِ بن المعتصِمْ

المرتضَى بن المجتبَى والمنعِمِ بن المنتــقِمْ

فأغرى به المتوكل أبا العنبس الصَّيْمَرى وقال له : أما تسمع يا صيمرى بحياتى إلا هجوته على هذا الروىّ ، فقال تأمر حمدون أن يكتب ما أقول ثم حضرت بديهة الصيمرى فقال قصيدة منها :

وَاللهِ حِلْفَةَ صادق ... وبقبر أحمد والحَرَمْ

وبحق جعفرٍ الإما ... مِ بنِ الإمامِ المعتصِم

لأصيِّرنك شُهْرَةً ... بين المَسيل إلى العَلَمْ

حيث الطلول بذى سَلَمْ ... حيث الأراكةُ والخَيَمْ[1]

(١) الخيم (بالتحريك) : موضع . الأراكة : موضع . وكذلك المسيل والعلم فى البيت قبله .

يابن الثقيلة والثقيـــل على قلوب ذوى النِّعَمْ

فغضب البحترى ، وخرج يعدو ، والمتوكل يضحك و يصفق .

و بلغ من ملابسة البحترى للمتوكل أن أفضى إليه بما كان بينه و بين قبيحة جاريته ، من عتب وأمره أن يعمل شعراً على لسانه ، فقال :

تعالَلْتِ عن وصل المُعَنَّى بك الصَّبِ ... وآثرتِ دار البعدِ منك على القرب

وحَمَّلْتِـــــنِى ذنب المشيبِ وإنه ... لَذنبُك إن أنصفتِ فى الحكم لا ذَنْبِى

ووالله ما اخترتُ السُّلُوَّ على الهوى ... ولا حُلْتُ عما تعهدين من الحُبِّ

ولا ازداد إلا جِـــــدَّةً وتمكنا ... مَحَلُّكِ من نفسى وحَظُّك من قلبى

فلا تَجْمَعِى هَجْرًا وعَتْباً فلم أعُـــدْ ... جَليداً على هَجْرِ الأَحِبَّةِ والعَتْب

فلما بلغتها الأبيات رضيت فوصله المتوكل .

وكان للمتوكل غلام اسمه «راح» ، وكان حسن الوجه ، وكان البحترى يحبه والمتوكل يدرك ذلك ، فأمر المتوكل راحا أن يملأ قدح بلور شرابا و يناوله البحترى ، فلما ناوله بهت البحترى ينظر إليه ، فقال له المتوكل : قل فى راح شعراً ، ولا تصرح باسمه فقال :

حارَ بالودِّ فتى أمـــسى رهينا بك مُدْنَفْ

اسم من أهواه فى شعـــرِىَ مقلوب مُصَحَّفْ

ودخل البحترى على المتوكل ، وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له : قل فى هذا يا بحترى . قال البحترى : ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى اعتزلت جانباً ، فقلت :

ذات ارتجازٍ بحنين الرَّعْدِ ... مجرورةُ الذيلِ صَدُوقُ الوعدِ[1]

مسفوحةُ الدمعِ لغيرِ وَجْـــدِ ... لها نَسِيمٌ كنسيمِ الوَرْدِ

---

(١) الارتجاز (هنا) : صوت الرعد . مجرورة الذيل : كناية عن كونها سحابة طويلة كأن لها ذيلا تجره . والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلبا ، فهى إذا أبرقت أمطرت .

ورَنَّةٌ مثلُ زئيرِ الأُسْــدِ ولمعُ بَرْقٍ كسيوف الهنــد

جاءت بها ريحُ الصَّبَا من نَجْدِ فانتــثرت مثل انتثارِ العِقْدِ

فراحتِ الأرضُ بعَيْشٍ رَغْدِ من وشى أنوارِ الرُّبَا فى بُرْدِ

كأنما غُدْرَانُها فى الوَهْدِ يَلْعَبْنَ من حبَابِها بالنَّرْدِ(١)

فقال المتوكل : انظروا ما ذا فى الخزائن من ماء الورد العتيق ، فادفعوه إلى البحترى . قال : فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً و بعته بمال :

⁂

ويحدث التاريخ أن المتوكل قتل بأيدى الأتراك الذين أغراهم ابنه المنتصر حين رآى أباه يهمّ بخلعه من ولاية العهد ، و يغلظ له فى القول ، وكان الفتح بمجلسه فتصدى للدفاع عنه ، فكان نصيبه القتل ، وكان معهما البحترى فلم يقتل ، ولكنه وفى لسيديه وفاءً عظيمًا ، و بكاهما بكاء حارًّا ، ووصف شناعة قتلهما ، وغدر الغادرين بهما ، وصرح بأن الدافع إلى القتل هو ولىّ العهد ، ودعا عليه ألا يتمتع بالملك الذى خاض إليه دم أبيه ، فقال :

أكان وَلِىُّ العهدِ أَضْمَرَ غَدْرَةً ومن عَجَبٍ أن وُلِّىَ العَهْدَ غادرُهْ

فلا مُلِّكَ الباقى تُرَاثَ الذى مَضَى ولا حَمَلَتْ ذاكَ الدعاءَ منابرُهْ

بل لقد حرّض على القاتل فى قوله من هذه القصيدة :

حرامٌ علىَّ الرَّاحُ بعدكَ أو أرى دَمًا بِدَمٍ يجرى على الأرض حائرُهْ

وهل أَرْتَجِى أن يطلبَ الدمَ واترٍ يدَ الدهرِ والموتورُ بالدمِ واترُهْ

وهذا وفاء كثير ، وجرأة عظيمة من شاعر يواجه بقوله خليفة بيده موته وحياته .

---

(١) الوهد : المكان المطمئن . الحباب : فقاقيع الماء . النرد : تلك اللعبة الفارسية المشهورة (الطاولة) . والمراد أن الحباب يتنقل على صفحة الماء كما تتنقل قطع النرد على رقعته .

ويظهر لى من كثرة تناول الشعراء لذكر هذه الحادثة أن المنتصر أدرك سوء فعله وشنيع خطته فأرخى للناس حبل القول حتى تنفد زفراتهم فى الشعر فينسى الحادث ، ولولا أنه فعل ذلك لأولع الناس برثاء المتوكل ووزيره وشاعت أقوالهم فيهما وربما نهض من ينتقم لهما متأثرا بما يصور الشعراء من شناعة الحادث وفظاعته .

البحترى مع المنتصر

ومن بعده من الخلفاء

عاصر البحترى بعد المتوكل خمسة من الخلفاء ، وهم المنتصر ابنه ثم المستعين أخوه ثم المعتز بن المتوكل ثم المهتدى بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل . ولكنه بعد موت المتوكل عاد إلى منبج ، وكان يختلف إلى هؤلاء الخلفاء وغيرهم يمدحهم ، وقد استطاع أن يرضيهم جميعاً وينال جوائزهم بما ركب فيه من طبع الملق ، وبما عرف من هوى كل خليفة فكان يعمل على رضاه استدراراً لماله .

دخل على المنتصر من ناحية مدحه بالرعاية لشأن العلويين وقضاء حاجاتهم وكان المنتصر يحب أن يشتهر بميله إليهم ورد مظالمهم فوقع البحترى على رضاه حين قال فيه :

رددْتَ المظالمَ واسترجعتْ يداكَ الحقوقَ لمن قد قُهِرْ
وآلُ أبى طالب بعد ما أُذيع بِسِرْبِهِمُ فابْذَعَرّ (١)
وصلْتَ شَوابِكَ أرحامِهِمْ وقد أوشكَ الحبلُ أن يَنْبَتِرْ
فقرَّبْتَ من حَظِّهِمْ ما نأى وصَفَّيْتَ من شُرْبِهِمْ ما كَدُرْ

---

(١) أذيع بالشيء : ذهب به وانتهب . ابذعر : تفرق .

وأما المستعين فلم يفتح له أذنه أولا ثم لما مدحه بعد قتله أتامش[1] وكاتبه شجاعا أعطاه . والمعتز تقرب إليه بذم المستعين ودعوى أنه غصب الخلافة من أصحابها وكان المعتز يعجبه أن يسمع ذلك فى المستعين ولذلك لا تجد قصيدة فى مدح المعتز إلا وقد بناها على ثلب المستعين ، ونعته بسوء الأثر فى الخلافة ، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها :

أَمَّا الخيالُ فإنه لم يَطْرُقِ إلا بعُقْبِ تَشَوُّفٍ وتَشَوُّقِ

ومنها فى مدحه وذم المستعين :

وَلَقَدْ وَلِيتَ فَكُنْتَ خَيْرَ مُجَمِّعٍ إذ كان من ناواك شَرَّ مُفَرِّقِ
ولقد ردَدْتَ النائبات ذميمةً وفَسَحْتَ من كَنَفِ الزمان الضَّيِّقِ
وعفوْتَ عفواً عَمَّ أمـــةَ أحمدٍ فى الغرب من أوطانهم والمَشْرِقِ
ولقد ردَدْتَ على الأنام عقولَهُمْ بهلاك سلطانِ الرَّكيك الأَحْمَقِ[2]
والقَوْمُ خَرْقَى ما تُطَلَّبَ رُشْدُهُمْ وأُدِيرَ أَمْرُهُمُ بعَزْمَـــةِ أَخْرَقِ[3]
كيف اهتداء الركب فى ظلمائهم ودليلهُمْ مُتَخَلِّفٌ لم يَلْحَـــقِ

وأما المهتدى فقد كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز فعمل على رفع المظالم وأبطل الملاهى وأقبل على النسك وصوم النهار وقيام الليل فمدحه البحترى بذلك فقال :

أَرَى حَوْزَةَ الإسلامِ حينَ وَلِيتَها تَحَرَّمَ باغيها وحِيـــطَ حَرِيمُها
تدارك مَظْلُومُ الرعية حَقَّـــه وخَلَّى له وجه الطريق ظَـــلُومُها

وكذلك تقرب إلى المعتمد وإن كانت التقوى ليست من صفاته ولكن يظهر أنه كان يحب أن يذكر بها .

---

(١) أتامش : من القواد الأتراك اختير لوزارة المستعين ، وهو لايعرف الكتابة فكان يقوم بها عنه كاتبه شجاع . وقد استبد أتامش بأمر الخلافة حتى ثار عليه القواد فقتل سنة ٢٦٠ هـ .

(٢) يشير إلى قتل أتامش .

(٣) خرقى : جمع أخرق وهو الأحمق . يريد أنه إذ كان الرئيس أخرق فالقوم مثله وما فى قوله : « ماتطلب » مصدرية ظرفية .

ونكتفى من ذكر صِلاته بما كان منها بالخلفاء ، فأما من عداهم فهم كثيرون نجد أسماءهم قد صدرت بها القصائد التى قيلت فيهم فارجع إلى ذلك فى ديوانه .

وقد مات البحترى بداء السكتة بمنبج سنة ٢٨٤ هـ ، وقد خلف أبناء منهم أبو الغوث الذى ذكره فى شعره ، وكان من أحفاده أبو عبادة بن يحيى بن الوليد وأخوه عبد الله وقد كانا رئيسين فى زمانهما ومدحهما المتنبى .

شــــعر البحترى

ليس ينكر ما للبيئة والوراثة من أثر فى النفس ، والبحترى له منهما أعظم معين على الشاعرية والتبريز فيها ، فقد كانت بيئته كما تعلم منبج ، وهى من بلاد الشام وصفت بالحسن ورقة الهواء وعذوبة الماء ، وإلى جانبها حلب ، وعواصم الشام تجلو مناظرها العين ، وتشحذ الذهن ، وتفسح الخيال ، والشام معروفة منذ قديم بفضلها على شعرائها وأنها جعلتهم أعذب الشعراء ألفاظاً وأبدعهم خيالا حتى لقد كان الصاحب بن عباد يعجب بأشعارهم ويحرص على حفظها ويستملى الطارئين عليه ما يحفظونه منها حتى ملأ دفتراً ضخماً فكان لا يفارقه فى مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، وصار ماضمنه هذا الدفتر على طرف لسانه وسنان قلمه يحاضر به فى مخاطباته ويورده فى مراسلاته .

وقد اجتمعت للبحترى هذه البيئة إلى تحدره من أصلاب عربية يعم فيها ويخول وتمّ له مع ذلك الاختلاف إلى قبائل طيئ الضاربين على شواطئ الفرات إلى منبج فكان له من كل هذه الأسباب شاعرية موروثة ومكتسبة تم بها طبعه ، واتسع ذرعه . فبحق ما يقول عنه أبو الفرج الأصبهانى : « شاعر فاضل فصيح حسن المذهب نقى الكلام مطبوع . وكان مشايخنا رحمهم الله يختمون به الشعراء » .

ويعترف البحترى بأنه تلميذ أبى تمام وأنه يحذو مذهبه وينحو نحوه ويراه

إماما ويقدمه على نفسه ، وكان إذا سئل عن نفسه وأبى تمام قال : جيّده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه . وقال له يومًا أبو العباس المبرد . وقد أنشد شعراً كان أبو تمام قال فى مثل موضوعه : أنت والله أشعر من أبى تمام فى هذا الشعر، فقال: كلا والله إن أبا تمام الرئيس والأستاذ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد: لله درك يا أبا الحسن فإنك تأبى إلا شرفا من جميع نواحيك . وقال بعضهم للبحترى : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام فقال والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع له ، آخذٌ منه ، لائذ به ؛ نسيمى يركد عند هوائه وأرضى تنخفض عند سمائه .

والذى يثبت لك أن البحترى تلمذ لأبى تمام تلك الوصية التى حفظها عنه فى كيفية معالجة الشعر ، ومنها :

فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن فعاله وشرف مقامه وتَقَاضَ[1] المعانى واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ. وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . ثم يقول له : وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسنه العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله .

وبعد فلننظر هل تأثر التلميذ أستاذه فى طريقته وهل تبعه فى مذهبه ؟ وإذا كان ذلك حقا فإلى أىّ غاية انتهى هذا التأثر والاتباع ؟

نعرف أن طريقة أبى تمام هى الدقة فى المعانى والإكثار من الاستعارات والإلحاح فى أنواع البديع والخروج بالجزالة إلى الغرابة ومشارفة العنجهية .

---

(١) تقاض : طلب ، ومنه قول القائل :

إذا ماتقاضى المرء يوم وليلة   تقاضاه شىء لايمل التقاضيا

فأمّا البحترى فقد اتبع أستاذه ولكن فى حدود الطبع. وانتحى مذهبه ، ولكن من غير أن يخل بمقتضى السليقة . ومع أنه كان يجلّ أستاذه ، و يتمنى لوصار مثله ، فإن طبعه العربى السليم ، وسليقته الفطرية البريئة أبيا عليه أن يندفع فى تيار أستاذه فيكون مثله فى تعقيد المعانى ، وغرابة الألفاظ ، وشذوذ الاستعارات ، وكثرة التحسين ، بل كان منه إقبال على أنواع البديع السهلة المقبولة من الطباق والمقابلة ، وهما أكثر ما كان يستعمل من أنواعه ، وقد يأتى بالجناس سهلا ميسورا حسن الموقع

ففى هذا وحده اتبع أستاذه . فأما الاستعارات التى خرج بها أبو تمام عن مألوف قول العرب ، وأما المعانى العويصة التى تجهد الذهن فى استخراجها ، وأما الإصعاد فى حزن الكلام ، والتنكب لسهله ، فذلك مالم يستطع البحترى مجاراة أستاذه فيه ، وما يدرينا لعله لإعجابه بأستاذه كان يتكاف فى بعض الأوقات أن يقول مثله فيقول ، ثم إذا عرض كلامه على ذوقه السليم ، وسمعه الناقد نفيا هذا الذى لا يوافق طبعه ، وكان البحترى معروفاً بأنه يلقى من شعره ما يرتاب فيه .

ونستطيع أن نجعلك تَلْمُس شاعرية البحترى لمسا قويا ، وأن تملأ يديك من الحكم عليه والتقدير لمذهبه ، فنقول: إن البحترى و إن كان قد نشأ فى عصر ازدهرت فيه العلوم ، وتعددت المعارف ، وتنافس الناس فى تحصيلها ، وحضور مجالسها وخاضوا فى الجدل فيها ، لقد كان البحترى بمعزل عن هذه الحركة العنيفة؛ فإنه من أهل الشام، وهذه الحركة كانت على أشدها فى العراق ، و بقرب قصور الخلفاء الذين حرّضوا عليها ، و بعثوا فى الناس الاهتمام بها ، فكان من المعقول أن تكون هذه الحركة هادئة لينة فى غير بغداد ، وما داناها من الأمصار فهى لذلك كانت هادئة فى منبج ، وفيما حولها من عرب يقيمون فى خيامهم وفيهم كل صفات البداوة إلا عنجهيتها لأنهم محاطون بالريف المتحضر ، مقاربون للأمصار المتمدينة

لذلك نشأ البحترى ، وكل ماله من ميزة هو سليقته العربية ، وطبيعته الشعرية .

فقال الشعر بما فيه من فطرة لم تعقدها العلوم ، ولم تفسدها الفلسفة ، واتخذ من أقوال الشعراء الذين حفظ كلامهم مدد معانيه، فلم يخرج فيها عما عرف للشعراء السابقين الذين قلّ نصيبهم من العلم فقربت معانيهم ، واستقامت طريقتهم . لذلك لا تراهم يعدون البحترى فى أصحاب المعانى المخترعة ، ولكنهم يذكرونه بلطف الأخذ وحسن الاتباع ، ثم هو من ناحية اللفظ ، والأسلوب جمع بين فضيلتى البداوة والحضارة ، فأما فضيلة البداوة ، ففى صدق التعبير ، وحسن الأداء ، ووضوح الدلالة ، وأما فضيلة الحضارة ، ففى رقة اللفظ ، وسهولة الأسلوب ، وحسن وقع التحسين ، وهذا كل ما يقال فى الوصف العام لشعر البحترى .

أغراض الشعر عند البحترى

شعر البحترى كثير ، وديوانه الذى بأيدينا ضخم لا يكاد يدانيه ديوان شاعر ممن سبقوه ، وقد تناول جميع أنواع الشعر ، ولكنه لم يكن فيها جميعها سواء ، ويستحيل ن تكون مقدرة شاعر واحدة فى جميع فنون الشعر ، ولكن الشاعر المطبوع التام لملكة يجيد فى أكثر ما يقول ، وهكذا كان البحترى : أجاد فى أكثر الأغراض جادة شهد له بها فى كل غرض، فحلٌّ من فحول النقاد . ونستطيع أن نقول: إنه أجاد فى كل غرض ما عدا الهجاء .

فأما مدحه : فإنه فيه ساحر ينفث[1] فى العُقَد ، ويكفى أن نعلم أنه على رثاثة لبسه ، وقبح إنشاده وخيلائه ، وتيهه بشعره كان الفتح بن خاقان يقول لمن ينقم ليه : ذلك والله لو رمانا بالحجارة لكان ذلك مغفورا له فى جنب ما يقوله .

وقد علمت من حيلة البحترى أنه كان يدرس طبع الممدوح ، ويتعرّف هواه

(١) النفث : كالنفخ وهو أقلّ من التفل .

حتى يقع قوله بموضع من رضاه ، ويكفى فى الدلالة على فضله فى باب المدح أن يكون قد حوى هذه الثروة الطائلة التى بقيت فى عقبه : ونالوا بها الرياسة والسيادة فى قومهم .

ومن مديحه قوله فى المتوكل :

خلق الله جعفرا قيِّم الدنـــيا سدادا وقيِّم الدين رُشْدا
أكرمَ الناس شيمةً وأتم النْـــناس خُلْقا وأكثر الناس رِفْدا
ملِكٌ حصَّنَتْ عزيمته المُلـــكَ فأضحت له مُغاثاً ورِدّا[(١)]
أظهر العدلَ فاستنارت به الأر ض وعَمَّ البلادَ غَوْراً ونجدا
وحكى القَطْرَ بل أبرَّ على القطـــرِ بكفٍّ على البرية تَنْدَى
هو بحر السَّماحِ والجودِ فازدد منه قربا تَزْدَدْ من الفقر بُعْدا
بالِثمالَ الدنيا عطاءً وبَذْلاً وجمال الدنيا سَناء ومجدا[(٢)]
وشبيهَ النبى خَلْقا وخُلُقا ونسيبَ النبى جَــدًّا فجَدَّا
بك نَسْتَعْتِبُ الليالى ونَسْتَعْــدِى على دهرنا المُسِيء فنُعْدَى
فابق عُمْرَ الزمانِ حتَّى نُؤَدِّى شكر إحسانك الذى لا يُؤَدَّى

وقال يمدحه ويذكر وفد الروم :

إنَّ الرعيةَ لم تَزَلْ فى سيرة عُمَرِيَّةٍ مُـــذْ ساسها المُتَوَكِّلُ
اللهُ آثرَ بالخِـــلافة جَعْفَرًا ورآه ناصره الذى لا يَخْذُلُ
هى أفضلُ الرُّتَبِ التى جعلت له دون البرِّية وهو منها أفضلُ

---

(١) المغاث : اسم مكان من أغاث . الرد : عماد الشيء . يريد أن عزيمته صارت ملجأ للملك وكنفا يغيثه ويحميه .

(٢) سناء وردت فى الديوان بالثاء ، وهى غير مناسبة للمقام . والسناء : الشرف وهو المناسب . الثمال : الغياث .

مَلِكٌ إذا عاذ المسيءُ بعفــوهِ ... غَفَرَ الإساءةَ قادراً لا يَعْجَــلُ (١)

وعفا كما صفح السحابُ ورَعْدُهُ ... قَصِفٌ وبارقُه حريقٌ مُشْعَلُ (٢)

يَتَقَيَّلُ العــبّاسَ عَمَّ محمدٍ ... ووَصِيَّهُ فيما يقول ويفعــلُ (٣)

شَرَفٌ خُصِصْتَ به ومجدٌ باذخٌ ... متمكنٌ فوق النجوم مُؤَثَّلُ

لا يَعْدَمَنْكَ المسلمــون فإنهم ... فى ظلِّ مُلْكِكَ أدركوا ما أمّلوا

حَصَّنْتَ بَيْضَتَهُمْ وحُطْتَ حريمهم ... وحملتَ من أعبائهم ما استثقلوا

فادَيْتَ بالأسرى وقد غَلِقُوا فلا ... مَنٌّ ينال ولا فداءٌ يُقْبَلُ (٤)

ورأيتُ وفدَ الرومِ بَعْدَ عِنادِهم ... عَرَفُوا فضائلك التى لا تُجْهَلُ

لَحَظُوكَ أول لحظةٍ فاستصغروا ... مَنْ كان يَعْظُمُ فيهمُ وَيُبَجَّلُ

أحضرتَهُمْ حُجَجاً لو اجْتُلِبَتْ بها ... عُصْمُ الجبال لأقبلتْ تَتَنَزَّلُ (٥)

ورأوكَ وَضَّاحَ الجَبين كما يُرَى ... قَمَرُ السماء السَّعْدُ ليلةَ يَكْمُلُ

نظروا إليك فقدَّسُوا ولو أنهم ... نطقوا الفصيح لكَبَّرُوا وهَلَّلُوا (٦)

حضروا السِّماطَ فكلما راموا القِرَى ... مالتْ بأيديهم عقولٌ ذُهَّلُ (٧)

---

(١) عاذ به : لجأ إليه . ومعنى لايعجل أى لايعجل بالعقوبة .

(٢) صفح السحاب : سقى الناس ماءه . قصف : شديد الصوت .

(٣) التقيل : التتبع . يقال فلان يتقيل أباه : أى يسير على نهجه .

(٤) غلق الرهن فى يد المرتهن : إذا لم يستطع الراهن دفع ماعليه وفك الرهن . المن : طلاق الأسير من غير فدية .

(٥) العصم : جمع أعصم ، وهو من الطير والوحش مايلجأ إلى أعالى الجبال فلا ينال إلا بالحيلة القوية . فيضرب المثل بالقدرة على استنزاله من أماكنه ، فيقال فلان يستنزل العصم بكلامه : أى انه شديد التأثير .

(٦) التقديس : تنزيه الله وهو فى اصطلاح النصارى نوع من أنواع عبادتهم . التهليل : قول لا إله إلا الله .

(٧) السماط : المائدة . ذهل : جمع ذاهل بمعنى غافل .

تَهْوِى أكُفُّهُمُ إلى أفواهِهِمْ فتَحِيدُ عن قَصْدِ السَّبِيلِ وتَعْدِلُ
مُتَحَيِّرُونَ فباهِتٌ مُتَعَجِّبٌ مما رأى أو ناظِرٌ متأمِّلُ
ويَوَدُّ قومُهُمُ الأُلَى بَعَثُوا بهم لو ضَمَّهُمْ بالأَمْسِ ذاك المَحْفِلُ
قد نافس الغَيْبُ الحضورَ على الذى شهدوا وقد حَسَدَ الرسولَ المُرْسِلُ
عَجَّلْتَ رِفْدَهُمُ فأفضـلُ نائلٍ حُبِىَ الوفودُ به الهَنِىءُ المُعْجَلُ[(١)]
فاللهَ أسألُ أن تُعَمَّرَ صالحا فدوامُ عمرك خـيرُ شىءٍ يُسأَلُ[(٢)]

⁂

أما الغزَل فى شعره ، فهو أظهر محاسنه حتى لقد ضرب المثل بغزل البحترى ، ولعلنا إذا التمسنا وجه إبداعه فى هذا الباب نجد ما نقوله من أنه نشأ نشأة بدوية صفت فيها السماء ، واتسع الأفق ، وسنحت الظباء ، وتراءت له فتيات الحى فى خصورهن الهيف وقدودهنّ الميادة ، وعيونهن النجل كما رأى فى الحضر الذى تنقل فيه علوة الحلبية ، وقد شغف فؤاده حبها ، فلم ينسها بعد بالعراق ، وهو فى عاصمة تذهل مناظرها كل قلب ، وتسلب كل لبّ . وكان إلى جانب هذه النشأة ما عرفت له من طبع فياض وسهولة تكاد تسيل ، فكان من غزله ما قيد الأسماع ، وخالط النفوس فبكى الناس للوعته ، ورثوا لدائم عبرته ، ومتصاعد زفرته . أما هو فقد اشتاق والتاع ، وذكر اللقاء والوداع ، وارتاح لطيف الخيال ، وأنحى باللوم على العذال ، ووصف القدود ، وأسيل الخدود ، ليس له فى المعنى من فضل ، إلا أنه قرب بعيده وذلل ريّضه ، ثم صبه فى قالبه السحرى من اللفظ الناصع السهل ، مبدعا ما شاء فى الصوغ ، محليا بما هداه إليه الطبع ، ويأبى طبعه إلا الإحسان ، والخلو من الشوائب .

---

(١) الرفد : العطاء . حباه : أعطاه .

(٢) يقال عمره الله (بتشديد الميم) : أى أطال عمره ، لذلك يقال للطويل العمر معمر (بصيغة اسم المفعول) .

ومن سهولة الغزل عليه وموافقته لطبعه تراه قد أكثر منه والتزمه فى بدء قصائده جريا على طريقة العرب فى بناء القصيدة على الغزل .

ولرقة غزله ، وحسن مذهبه فيه يصعب على المتخير أن يختار منه لأن الاختيار أثر المفاضلة ، وليس فى غزله فاضل ولا مفضول ، بل كل قطعة منه دمية فنية غنية بمحاسنها ، لا تزاحمها غيرها فى جمالها ، ولا تبزها بداعتها ، فانظر إليه حضريا فى شملة أعرابى يتغزل على طريقة السابقين ، فيذكر الآرام ، ورمل عالج ، والغور من تهامة فى قوله :

شُغْلانِ مِنْ عَذَلٍ ومن تَفْنِيدِ ورَسِيسِ حُبٍّ طارِفٍ وتَلِيدِ(١)

وأَمَا وَآرامِ الظِّباءِ لقد نَأَتْ بِهَوَاكَ آرامُ الظباءِ الغِيدِ(٢)

طالَعْنَ غَوْرًا من تِهامة واعْتَلَى عنهنَّ رَمْلاَ عالجٍ وزَرُودِ

لما مَشَيْنَ بذِى الأَراكِ تَشَابَهَتْ أعطافُ قُضْبانٍ به وقُدُودِ

فى حُلَّتَىْ حِبَرٍ ورَوْض فالتقى وَشْيَانِ وَشْىُ رُبًا وَوَشْىُ بُرُودِ(٣)

وسَفَرْنَ فامتلأتْ عيونٌ راقها وَرْدَانِ وَرْدُ جَنًى وَوَرْدُ خُدُودِ

وضحِكْنَ فاغْتَرَفَ الأَقاحِى مِنْ نَدًى غَضٍّ وَسَلْسَالِ الرُّضَابِ بَرُودِ(٤)

تَرْجُو مقاربةَ الحبيبِ ودونه وَخْدٌ يُبَرِّحُ بالمَهارَى القُودِ(٥)

---

(١) الرسيس : الشيء الثابت . يريد أن له أمرين يشغلانه ، وهما اللوم على الحب ، والثانى تباريح ذلك الحب . وعلى هذا يكون عطف تفنيد على عذل من عطف الترادف فهما شيء واحد .

(٢) الآرام : جمع رئم ، وهو الظبي الخالص البياض . الغيد : جمع أغيد أو غيداء ، وهو المائل العنق اللين الأعطاف . يقسم بحق الظباء أن الجميلات الشبيهات بها قد هجرنه بعد أن علق هواهن بقلبه

(٣) الحبر : جمع حبرة (كعنبة أو شجرة) وهو ضرب من برود اليمن . الوشى : زينة الثوب .

(٤) الأقاحى : نبت تشبه به الأسنان . الرضاب : الريق . البرود : البارد . يقول لما ضحكن ظهرت أسنانهن كالأقحوان وقد امتلأ من الندى فهو يجعل الأسنان كالأقحوان والريق كالندى

(٥) الوخد: الإسراع . التبريح : الإيلام . المهارى : جمع مهرية ، وهى الناقة الكريمة نسبت إلى بنى مهرة وقد عرفوا بكرم إبلهم . القود : جمع أقود أو قوداء ، وهو الذلول من الإبل .

ومتى يساعدُنا الوصالُ ودهرُنا　　يومان يومُ نوًى ويومُ صُدُودِ

وانظر إليه وقد اختار الأوزان القصيرة التى توافق خفة الغزل ونشوة الحب ، ثم هو يتلاعب بالمعانى ، فيطالب المحبوب بالرقة وفاء لذل العاشق ، ويستحلفه بالوصل بعد الهجر ، والقرب بعد البعد ، وهو لا شك عند المحب خير ما فى الدنيا ، فيقول :

لِمَ لا تَرِقُّ لذُلِّ عَبْدِكْ　　وخُضُوعِهِ فتَفِي بوَعْدِكْ

إنِّي لأَسْأَلُكَ القليلَ　　وأَتَّقِي مِنْ سُوءِ رَدِّكْ

وأَما وَوَصْلِكَ بَعْدَ هَجْرِكَ　　واقترابك بَعْدَ بُعْدِكْ

لا لُمْتُ نفسي في هَوَاكَ　　ولا انْحَرَفْتُ لطولِ صَدِّكْ

ولَئِنْ أَسَأْتُ كما تُسِيءُ　　لما وَدِدْتُكَ حَقَّ وُدِّكْ

وانظر إليه ولم يأت بجديد من معانى الغزل . ولكنه يكاد بلفظه الرشيق وأسلوبه الخلاب يريك كأنه يتغزل بما لم يقله أحد قبله ، وما فى شعره لو فتشته إلا تشبيه القد بالقضيب والأسنان بالبرد ، وإلا كون المحبوب قد استولى على الحسن ، وتفرد بالدلال ، وإن الذرع قد ضاق بالحب . فصار مخرجه من الحب عسيراً . قال :

مُخْلِفٌ فى الذى وَعَدْ　　سِيلَ وَصْلاً فلَمْ يَجُدْ[1]

وَهْوَ بِالْحُسْنِ مُسْتَبِدٌّ　　وبالدَّلِّ مُنْفَرِدْ

يَتَثَنَّى على قَضِيبٍ　　ويَفْتَرُّ عن بَرَدْ

قد تَطَلَّبْتُ مَخْرَجًا　　من هَوَاه فلَمْ أَجِدْ

ضاق صدرى بما أَجَنَّ　　وقلبى بما وَجَدْ

وتَغَضَّبْتَ أن شَكَوْتُ　　جَوَى الحبِّ والكَمَدْ

واشتكائى هواكَ ذَنْبٌ　　فإِن تَعْفُ لا أَعُدْ

---

(١) سيل : فعل ماض مبنى للمجهول من سال الذى سهل ، فقلبت همزته ألفا فعومل معاملة الأجوف .

ومن غزله فى علوة ، قوله من قصيدة يمدح بها المعتز بالله :

خيالٌ يَعْتَرِينى فى المنام لسَكْرَى اللحْظِ فاتنة القَوَامِ
لعَلْوَةَ إنها شَجَنٌ لنفسى وبَلْبَالٌ لقلبى المُسْتَهَامِ
إذا سَفَرَتْ رأيتَ الطَّرْفَ بَحْتاً ونارَ الحسنِ ساطعةَ الضِّرَامِ
تَظُنُّ البَرْقَ مُعْتَرِضاً إذا ما جَلاَ عن ثَغْرِها حُسْنُ ابْتِسَامِ
كنَوْرِ الأُقْحُوانِ جَلاَهُ طَلٌّ وسِمْطِ الدُّرِّ فُصِّلَ بالنظام[1]
سلامُ الله كلَّ صَبَاحِ يَوْمٍ عليك ومَنْ يُبَلِّغُ لِى سَلاَمِى
لقد غادرتِ فى قلبى سَقَامًا بما فى مُقْلَتيْكِ من السِّهَامِ
وذَكَّرنيكِ حسنُ الورد لمَّا أتى ولذيذُ مَشْرُوبِ المُدَامِ
لئن قلَّ التواصلُ أو تمادَى بنا الهِجْرانُ عاما بعد عام
فَكَمْ مِنْ نظرةٍ لِى مِنْ بَعِيدٍ إليكِ وَزَوْرَةٍ لَكِ فى اكْتِتَامِ
أأَتَّخِذُ العراقَ هَوًى ودَاراً ومَنْ أهواهُ فى أَرْضِ الشَّامِ

ومن قوله فى غلامه نسيم :

أَنَسِيمُ هَلْ للدهرِ وَعْدٌ صادقٌ فيما يُؤَمِّلُهُ المُحِبُّ الوامِقُ
مَالِى فَقَدْتُكَ فى المنام ولم يَزَلْ عَوْنَ المَشُوقِ إذا جَفَاهُ الشائقُ[2]
ومُنِعْتَ أنتَ من الزيارة رِقْبَةً منهمْ فهل مُنِـعَ الخيالُ الطارقُ
اليوم جازَ بِىَ الهوى مقدارَهُ فى أَهْلِهِ وعلمتُ أَنِّى عاشقُ
فلْيَهْنِىءِ الحسنَ بن وَهْبٍ أَنَّهُ يَلْقَى أَحِبَّتَه ونحن نفارقُ

ومن قوله فيه أيضاً :

---

(١) السمط : العقد . النظام : الخيط ينظم فيه اللؤلؤ ونحوه . التفصيل : نظم العقد والتفريق بين حباته بأخرى .

(٢) المشوق : المحب . الشائق : المحبوب .

دَعَا عَبْرَتِي تجرى على الجَوْرِ والقَصْدِ أَظُنُّ نسيمًا قَارَفَ الهَجْرَ من بَعْدِى[١]

خَلاَ ناظرى من طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فيا عجبًا للدهرِ فَقْدًا على فَقْدِ

خليلىَّ هل من نظرةٍ تُوصِـــلاَنِهاَ إلَى وَجَنَاتٍ يَنْتَسِبْنَ إِلَى الوَرْدِ

وقَدٍّ يكاد القلبُ يَنْقَدُّ دونه إذا اهتزَّ فى قُرْبٍ من العين أو بُعْدِ

كفى حزنا أَنَّا على الوصل نَلْتَـقِى فُوَاقاً فتَثْنِينَا العُيُونُ إلى الصَّـــدِّ[٢]

فلو تُمْـكِنُ الشكوى لخبَّرَك البكا حقيقةَ ما عندى و إنْ جَلَّ ما عندى

وذكر صاحب الأغانى أن نسيما هذا كان غلاما روميا ليس بحسن الوجه ، وكان البحترى قد جعله بابا من أبواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه و يتعمد أن يصيره إلى ملاك بعض أهل المروءات ، ومن ينفق عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه نسب به وتشوقه ، ومدح مولاه حتى يهبه له فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره .

⁂

والوصف فى شعر البحترى باب بارع الجمال دقيق الصنعة اشتهر به البحترى شهرته بالغزل والمدح حتى قال فيه ابن المعتز : لو لم يكن للبحترى إلا قصيدته فى إيوان كسرى (فليس للعرب سينية مثلها) وقصيدته فى وصف بركة المتوكل ، لكان أشعر الناس . و يعده صاحب العمدة أحد الشعراء الذين أجادوا فى جميع الأوصاف ، و إن غلبت على أحدهم الإجادة فى بعضها كامرئ القيس ، وأبى نواس ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز، وكُشاجم ، والذى يغلب على البحترى وصف القصور ، وما يحيط بها .

ولا شك أن قصيدته فى وصف إيوان كسرى هى عروس شعره عامة ونموذج

---

(١) الجور: الظلم . القصد : الاعتدال . قارف : دانى وقارب. يقول لصاحبيه : اتركا دموعى تجرى بإسراف أو اعتدال فإن نسيما قد جفانى .

(٢) الفواق : ما بين الحالتين من الوقت ، أو هو ما بين فتح يدك وقبضها عند الحلب ، وهذا المعنى الأخير يناسب المبالغة فى قصر مدة التقائهما . والمراد بالعيون عيون الرقباء .

إجادته في الوصف خاصة ، وليس العجيب عندي أنه وصف القصر ولكن العجب أنه اتجه اتجاها لم يتجهه غيره من الشعراء في العناية بدلائل العظمة للأمم السابقة والإشادة بما خلفوه من جهود تنطق بسمو مكانتهم وعلو كعبهم . وكثير من الشعراء قد عاشوا بمصر أو مروا بها فما رأيناهم ذكروا الأهرام ولا عاديات القدماء إلا ذكرا لا يدل على فضل تأثر بها وإعجاب بأصحابها .

أما البحتري فقد وفى للفرس أتم وفاء ، ورثى لجدهم أحر رثاء . وعاتب الدهر على سوء أثره فيهم وقبح فعله بهم . وفي اعتقادنا أن البحتري فتح للشعراء بابا لم يستطيعوا ولوجه من بعده فظل مهجوراً حتى أشادت المدنية الحديثة بذكر الآثار وأنطقتها بعظمة أصحابها ، فكان من الشعراء العظماء المرحومين : محمود سامي البارودي باشا ، وإسماعيل صبري باشا ، وأحمد شوقي بك ، أنْ اقتفوا أثر البحتري في نهجه بعد ألف عام وتنبهوا إلى هذه المنقبة التي لم يخلق الشعر إلا لمثلها ، ولم يشرف إلا بمثل موضوعها .

وإذا قلت : إن وصف الديار وبكاء أهلها عادة عربية قديمة فاعلم أنه لم يتوسع أحد فيها توسع البحتري فيخرج بحديثها من الغزل ومجرد اللهو إلى جد الحقيقة والوفاء للتاريخ . والعجيب أن تنال سينية البحتري هذه الشهرة ثم لا يكون من الشعراء اتجاه إلى موضوعها وتقليد له في منحاها . ولكن الذي صدهم عن ذلك أن موضوعها خالص للحقيقة ليس فيه زلفى لرئيس ولا وراءه مطمع في عطاء . فهذا هو الذي أمات موضوعها في نظر الشعراء فلم يجروا وراء البحتري في شوطه الذي تفرد بالسبق فيه . ولقد صدق قول ابن المعتز (ليس للعرب سينية مثلها) وما كان أحراه أن يقول « ليس للعرب قصيدة مثلها » حتى لا يوهم قوله أن لنوع القافية أثراً في التفرد بالحسن .

وليس يقل عن السينية في تحدير العبرة ، ووصف النعيم الزائل والتفجع للجمال الحائل ، وصفه لقصر المتوكل بعد قتله وما أصابه من تهتيك الستور ، وتشريد الأطلاء والجآذر .

أما أوصافه التى لاشجو فيها ولا رثاء فمنها وصفه لبركة المتوكل وقصر المعتز وسنذكر طرفا من كل ذلك .

فمن وصف الإيوان قوله :

لو تراه عَلِمْتَ أنَّ الليالى ‏ ‏ جَعَلَتْ فيه مأتما بَعْدَ عُرْسِ

وهو يُنبِيك عن عجائب قومٍ ‏ ‏ لا يُشابُ البيانُ فيهِمْ بلَبْسِ

فإذا ما رأيت صورة أنطا ‏ ‏ كِيَّةَ ارْتَعْتَ بين رُومٍ وفُرْسِ

والمنايا مواثلٌ وأنو شِرْ ‏ ‏ وَانُ يُزْجِى الصفوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ

فى اُخضرارٍ من اللباس على أصـ ‏ ‏ فر يختال فى صَبِيغةِ وَرْسِ

وعِراكُ الرجالِ بَيْنَ يديهِ ‏ ‏ فى خُفُوتٍ منهم وإِغْماضِ جَرْسِ

من مُشِيحٍ يَهْوِى بعامل رُمْحٍ ‏ ‏ ومُلِيحٍ من السِّنَانِ بِتُرْسِ

تَصِفُ العينُ أنهم جِدُّ أَحْيا ‏ ‏ ءٍ لهم بَيْنَهُمْ إشارةُ خُرْسِ

يَغْتَلِى فيهِمُ ارتيابى حتَّى ‏ ‏ تَتَقَرَّاهُمُ يداىَ بِلَمْسِ

ومنها :

وكأنَّ الإيوانَ من عَجَبِ الصَّنْـ ‏ ‏ ـعةِ جَوْبٌ فى جَنْبِ أَرْعَنَ جَلْسِ

يُتَظَنَّى من الكَآبةِ إنْ يَبْـ ‏ ‏ ـدُ لِعَيْنَىْ مُصَبِّحٍ أو مُمَسِّى

مُزْعَجاً بالفراق عَنْ أُنْسِ إِلْفٍ ‏ ‏ عَزَّ أو مُرْهَقاً بتطليق عُرْسِ

عَكَسَتْ حظَّهُ الليالى وبات الْـ ‏ ‏ ـمُشْتَرِى فيه وهو كوكب نَحْسِ

فهو يُبْدِى تجلُّداً وعليه ‏ ‏ كَلْكَلٌ من كلا كل الدَّهرِ مُرْسِى

لم يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّيـ ‏ ‏ ـباج واسْتُلَّ من سُتُورِ الدِّمَقْسِ

مُشْمَخِرٌّ تعلو له شُرُفاتٌ ‏ ‏ رُفِعَتْ فى رءوسِ رَضْوَى وقُدْسِ

ليس يُدْرَى أَصُنْعُ إنْسٍ لِجِنٍّ ‏ ‏ سَكَنُوهُ أم صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ

ومن قوله فى وصف قصر المتوكل بعد قتله :

تَغَيَّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِىِّ وأُنْسُهُ ... وقُوِّضَ بادى الجعفرىِّ وحاضرُهْ[1]

تَحَمَّلَ عَنْهُ ساكِنُوهُ فُجَاءَةً ... فعادَتْ سَواءً دُورُهُ ومَقَابِرُهْ[2]

إذا نحن زُرْناه أَجَدَّ لنا الأَسَى ... وقد كان قبل اليومِ يَبْهَجُ زائِرُهْ[3]

ولم أَنْسَ وَحْشَ القَصْرِ إِذْ رِيعَ سِرْبُهُ ... وإذ ذُعِرَتْ أطلاؤهُ وجآذِرُهْ[4]

وإذا صِيحَ فيه بالرحيل هُتِّكَتْ ... على عَجَلٍ أستارُهُ وسَرَائِرُهْ[5]

وَوَحْشَتُهُ حتى كأنْ لم يُقِمْ به ... أنيسٌ ولم تَحْسُنْ لعينٍ مناظِرُهْ

كأنْ لم تَبِتْ فيه الخلافةُ طَلْقَةً ... بشاشتُها والمُلْكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهْ

ولم تَجْمَعِ الدنيا إليه بهاءَها ... وبَهْجَتَها والعيشُ غَضٌّ مَكَاسِرُهْ[6]

فأين الحِجابُ الصَّعْبُ حين تَمَنَّعَتْ ... بِهَيْبَتِهِ أبوابُهُ ومَقَاصِرُهْ

وأين عميدُ الناسِ فى كلِّ نَوْبَةٍ ... تَنُوبُ وناهى الدَّهْرِ فينا وآمِرُهْ

ومن وصف بركة المتوكل قوله :

يا من رأى البركة الحَسْناءَ رؤيتُها ... والآنساتِ إذا لاحَتْ مغانيها[7]

---

(١) الجعفرى : قصر المتوكل . قوض : تهدم . والمراد بالبادى والحاضر: جميع نواحيه كما يقال طاف فلان الدنيا باديتها وحاضرتها : أى جميع نواحيها ، أو كأنه لاتساعه كانت فيه نواح آهلة وأخرى خالية ، فجعل الآهلة حاضرة والخالية بادية.

(٢) كان قصر المتوكل هذا بناحية كثر فيها بناء الناس حول قصر الخليفة فكان كسكل المدن له بجانبه مقابر فلما خرب القصر أخليت المدينة فاستوت دورها وقبورها فى الخلو من الأحياء .

(٣) أجد : جد أو أحدث . الأسى : الحزن . بهج (كخجل) : فرح . و (كمنع) : أفرح .

(٤) الأطلاء: جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد. الجآذر : جمع جؤذر . وهو ولد البقرة الوحشية . ذعر : ريع وأخيف . السرب الجماعة من الانسان أو الحيوان . والمراد بوحش القصر نساؤه .

(٥) المراد بتهتيك الأستار : إزالة ما فى القصر من فرش وستائر ، وبتهتيك السرائر: ظهور مخبآت القصر . والبيت يروى فى كل مصادره « أستاره وستائره » ولا معنى للعطف لكونهما بمعنى واحد ، فلا بد أنه محرف عما ذكرنا .

(٦) الغض : الطرى . المكاسر : جمع مكسر (كمجلس) وهو موضع الكسر . والمعنى فى كون العيش غض المكاسر أنه لين لاشدة فيه .

(٧) الآنسات . جمع آنسة بمعنى مؤنسة. المغانى : جمع مغنى وهو المنزل والمسكن .

بحسْبها أنها من فضْلِ رُتبَتِهَا تُعَدُّ واحـــدةً والبحرُ ثانيها
ما بال دِجْلَةَ كالغَيْرَى تُنَافِسُها في الحسنِ طَوْرًا وأطوارًا تُباهيها[١]
أمَارَأَتْ كالئَ الإسْلامِ يَكْلَؤُها من أنْ تُعابَ وَبَانِي المَجْدِ يَبْنِيهَا[٢]
كأنَّ جِنَّ سليمانَ الذين وَلُوا إبْدَاعها فأدَقُّوا في معانيها
فلو تَمُرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُضٍ قالتْ هي الصَّرْحُ تمثيلا وتَشْبِيها[٣]
تَنْصَبُّ فيها وفودُ الماء مُعْجَلَةً كالخيل خارجةً من حَبْلِ مُجْرِيها
كأنما الفضةُ البيضاء سائلةً من السبائك تَجْرِى في مَجَارِيها
إذا عَلَتْها الصَّبَا أبدت لها حُبُكًا مثل الجَوَاشِنِ مَصْقُولاً حَوَاشِيها[٤]
فحاجبُ الشمس أحيانًا يضاحكها وريِّقُ الغَيْثِ أحيانًا يُبَاكِيها[٥]
إذا النجومُ تراءتْ في جوانبها ليلا حَسِبْتَ سماءً رُكِّبَتْ فيها
لا يبلغ السَّمَكُ المحصورُ غايتها لبُعْدِ ما بين قَاصِيها ودَانِيها

وليس إلى هذه الأمثلة ينتهي الحسن في أوصاف البحتري بل إن إجادته في هذا الباب لا يشبع منها إلا مراجعة ديوانه ، فهو الكفيل بذلك .

---

(١) دجلة : النهر الذي تقع عليه بغداد وتستمد منه هذه البركة .
(٢) كلأه (كمنع) : صانه ورماه . والمراد بكالئ الإسلام الخليفة المتوكل الممدوح بهذه القصيدة .
(٣) بلقيس : ملكة سبأ في بلاد اليمن . الصرح : هو في الأصل البناء العالي والمراد هنا القصر الذي بناه سيدنا سليمان ملك بيت المقدس لبلقيس وكان مكسوًّا بالزجاج فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فقال لها إنه صرح ممرّد من قوارير .
(٤) الصبا : الريح الشرقية . الحبك : جمع حباك (ككتاب) وهو التجعد يكون في الرمل أو الشعر أو الماء إذا مرت عليه الريح . الجواشن : جمع جوشن وهو الدرع . الحواشي : جمع حاشية وهي طرف الثوب .
(٥) حاجب الشمس : ضوؤها . ريق الغيث : أوله ، يقول: مرة تعكس أشعة الشمس الساقطة عليها فكأنما هما ضاحكان تبدو أسنانهما البيضاء . ومرة ينزل عليها المطر فيجتمع ماؤهما كأنما يبكيان معا . ويصح أن يكون الضحك والبكاء من الشمس والمطر، ولا يكون الفعلان « يضاحك » و « يباكى » دالين على المفاعلة .

⁂

وليس إجمالنا للقول فى بقية الأغراض بدليل على عدم فوقه فيها ، بل إننا نكتفى ببعض محاسن الرجل للدلالة على شاعريته المتفردة ، ولا يفوتنا أن نذكر تقصيره فى الهجاء ، وسوء معانيه ، وقبح ألفاظه فيه ، ولعل هذا هو السبب فى تقدمه إلى ابنه أبى الغوث فى آخر أيام حياته أن يحرق شعره فى الهجاء قائلا له : « يا بنىّ هذا شىء قلته فى وقت فشفيت به غيظى ، وكافأت به قبيحاً فعل بى ، وقد انقضى أربى من ذلك ، وإن بقى روى ، وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك ومعاشك ، ولا فائدة لك ولا لى فيه » ، وهذا قول ابنه أبى الغوث ، ولعله اعتذار منه عن تقصير أبيه فى هذا الباب ، وإلا فقد بقى من هجاء البحترى كثير فى ديوانه وكله ليس من شاكلة كلام البحترى فى لفظه ومعناه ، بل الإسفاف فيه كثير ، واللفظ الفاحش شائع ، ومن ذلك قوله يهجو على بن يحيى :

وأكثرتُ غِشْيانَ المقابرِ زائرًا ... علىَّ بن يَحْيَى جارَ تلك المقابرِ

فإلاَّ يَكُنْ مَيْتَ الحُشَاشَةِ فى الذى ... يُرَى فَهْوَ مَيْتُ الجُودِ مَيْتُ المآثِرِ

ولا فَضْلَ عِنْدَ الأَرْمَنِىِّ يَعُدُّهُ ... سِوى أَنَّهُ ثَوْرٌ سَمِينٌ لِجَازرِ

سَرَقْتَ سِهَامَ المسلمين ولم تَكُنْ ... لهم يوم زَحْفِ المشركين بِحَاضِرِ

آثار البحترى وما قيل فيه

للبحترى ديوانه المشهور الذى جمعه أبو بكر الصولى ورتبه على حروف المعجم كما رتبه على بن حمزة الأصبهانى على الأنواع ، ويظهر أن الطبعة التى بأيدينا (طبعة الجوائب بالأستانة سنة ١٣٠٠ هـ) ليست جمع الصولى ولا الأصبهانى ؛ لأنها غير مرتبة على ترتيبهما ، ولا على ترتيب الزمن ولا جمع فيها كل ماقيل فى شخص على حدة ، بل شعر البحترى فيها مهوش أيما تهويش تصعب مراجعته جدًّا .

وقد شرحه محمد بن إسحاق الزوزنى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وقد ذكر ياقوت الحموى أنه شرح ملىء علماً وحشى فهما (وهذا الشرح لم نره بين ثَبَت دار الكتب الملكية ولا يعرف بإحدى المكاتب العامة) . ولأبى العلاء المعرى كتاب « عبث الوليد » ، وهو محفوظ بدار الكتب الملكية ، وليس شرحا مستوفياً لجميع شعره ، بل إنه قد يذكر من القصيدة بيتاً أو بيتين ويعلق عليهما بتصويب أو تخطئة ، فهو أشبه بالنقد منه بالشرح .

وللبحترى غير الديوان ، حماسة كحماسة أبى تمام ولكنه أكثر فيها من الأبواب إذ جعلها أربعة وسبعين ومائة باب ، ولكنها أبواب جزئية كأن يقول « ما قيل فى حمل النفس على المكروه » و « ما قيل فى الفتك » و « ما قيل فى مجاملة الأعداء » وهكذا . أما حماسة أبى تمام فأبوابها عامة كما علمت . وقد طبعت حماسة البحترى فى مصر والشام .

وذكروا أن له كتابا يسمى « معانى الشعر » وهو غير موجود ولا موصوف ما يحتويه .

وكان البحترى أحد الشعراء الذين رزقوا السعادة فى شعرهم فقد ألفت الكتب فى نقده وأهمها كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » للحسن بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ رجح فيه كفة البحترى ، وحمل على أبى تمام كثيرا .

سرقات البحترى

وقد عقد الآمدى بابا لسرقات البحترى من الشعراء عامة ومن أبى تمام خاصة وبلغت عدتها من أبى تمام ثلاثاً وستين ولكنك تعلم أن السرقة ليست عيباً إلا إذا أغار الشاعر على المعنى واللفظ فلم يكن له فى المعنى إضافة ولا عن اللفظ غنى ، وقد يكون آخذ المعنى أولى به من صاحبه إذا زاد فيه ومنحه من اللفظ ما جمل له جمالا جديداً . وقد نظرت فوجدت أن أكثر سرقات البحترى جعلته أولى بالمعنى من صاحبه أفلا ترى البحترى أولى من الفرزدق فى قوله :

أعطيتنى حتى حسبتُ جزيلَ ما أعطيتنيه وديعـــة لم توهب

أخذه من قول الفرزدق :

أَعْطَيْتَنِي المـالَ حتَّى قُلْتُ يُودِعُنِي أو قُلْتُ أُعْطِيتُ مالاً قد رآه لنا

كذلك هو أولى من أبى صخر الهذلى فى قوله :

وادعٌ يلعب بالدهر إذا جَدَّ فى أَكْرُومَةٍ قُلْتَ هَزَلْ

أخذه من قول الهذلى .

أَغَرُّ أُسَيْدِيٌّ تراه كأنه إذا جَدَّ يُعْطِى مالَهُ وهْوَ لاعبُ

وكذلك قوله :

وكأنّ فى جسمِي الذى فى ناظريك من السَّقَمْ

هو من قول المنصور بن فرج :

حَلَّ فى جسمِيَ ما كان بعينيك مُقِيمَا

ومن سرقاته من أبى تمام قوله :

وإذا اجْتَدَاهُ الْمُجْتَدُون فإنَّهُ يَهَبُ العلا فى سَيْبِه الموهوب

وهو من قول أبى تمام :

تُدْعَى عطاياه وَفْرًا وهى إن شُهِرَتْ كانَتْ فَخَاراً لمن يَعْفُوه مُؤْتَنَفا

وبيته خير من بيت أبى تمام ، وقوله :

وَلَنْ تستبينَ الدَّهْرَ مَوْضِـعَ نِعْمَةٍ إِذَا أَنْتَ لم تُدْلَلْ عَلَيْها بِحاسِدِ

من قول أبى تمام :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

وفضل أبى تمـام فى سبقه فى المعنى ، واختراعه له ، ولـكن بيت البحترى حصن رصين لو لم يكن لأبى تمـام فضل السبق . وقوله :

ولو أن مشتاقاً تـكَلَّفَ فوق ما فى وُسْعِهِ لسعى إليك الْمِنْبَرُ

من قول أبي تمام :

تَكَادُ مَغَانِيهِ تَهَشُّ عِرَاصُهَا فَتَرْكَبُ من شَوْقٍ إلى كُلِّ رَاكِبِ

وحسن بيت البحترى ظاهر ظهور التكلف فى استعارة الهشاشة والركوب للعراص .
فى قول أبي تمام .

وهذا باب واسع لنقف منه عند هذا الحد .

النقد والموازنة

تناولنا هذا الموضوع فى كلامنا عن العصر الأموى ، وذكرنا أن الشعر كان موضوع الحديث عند العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، فعقدوا له الأسواق فى الجاهلية والمجالس فى الإسلام ، وكان الخلفاء لايقربون إلا إذا قدم فى الأدب وبصر به .

ولكن العصر الأموى قد انتهى ، ولم يكن البحث فى الأدب ، ونقد الشعر إلا حديث مائدة ، وسمر مجلس يتناولون الشعر من أطرافه ، فيستحسنون ، أو يعيبون البيت مفردا ، ويتناولون معناه مستقلا ، وإذا عابوا اللفظ فأكثر ما يكون عيبهم له من ناحية وضعه النحوى ، وإذا وازنوا بين شاعرين أدخلوا فى الموازنة ما ليس منها كقول الصلتان العبدى فى الموازنة بين جرير والفرزدق :

أَرَى الخَطَفَى بَزَّ الفَرَزْدَقَ شِعْرَهُ وَلَكِنَّ خَيْرًا من كُلَيْبٍ مُجَاشِعُ

فأنت تراهم قد جعلوا لشرف النسب ، وفضل القبيلة وجهاً فى التفضيل ، وذلك لا دخل له فى الحكم على الكلام جودة أو رداءة .

وقد عاب ابن الأثير على أبي عمرو بن العلاء حين سئل عن الأخطل ، فقال : لو أدرك يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً . قال فهذا تفضيل بالأعصار لا بالأشعار ، وفيه ما فيه !! ، وقال أيضاً : سئل الأخطل عن أشعر الناس ، فقال

الذى إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع ، فقيل : فمن ذاك ؟ قال الأعشى . قيل : ثم من؟ قال طرفة . وهذا قول فيه بعض التحقيق إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس لأن المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها .

فهذه المرويات دليل على أن النقد على أيام الأمويين لم يكن ناضجاً ، ولا صحيح المبنى ، ولا عادلا فى الحكم فى جميع أحواله .

أما فى العصر العباسى : فقد استمرّ النقد حديث الموائد وسمر المجالس ، وقد أغرم العباسيون به كغرام الأمويين ، لأنهم كما تعلم عرب يحنون إلى العربية ، ويرونها شرفهم الذى يفاخرون به ، ثم هم من ناحية أخرى قصدوا باحياء الآداب خدمة الدين ، فكانت عنايتهم أتم ، واحتفالهم أعظم .

وعلى نسبة اتساع الحضارة اتسع موضوع النقد فشمل أمورًا أدق مما تعرض له السابقون لأن حصافة العباسيين جعلت نقدهم أبعد غوراً ، وأوسع مدخلا ، وأعدل حكما لم يدخلوا فيه العصبية ، ولا حكموا غير الاجادة ، فإذا كان الأمويون لم ينتقدوا المعنى إلا إذا كان محالا لايستقيم فى الفهم ، فإن العباسيين انتقدوه حين رأوه مقصراً عن الغاية غير واف بما يقتضيه مقام المبالغة ، أو تناسب المعانى ، فانظر إلى قول أبى تمام فى أحمد بن المعتصم :

إقدامُ عمرٍو فى سماحة حاتمٍ   فى حِلْمِ أحنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

كيف انتقده بعض حاضرى مجلس الأمير بقوله : الأمير فوق من ذكرت .

وقد كان فى التشبيه بالبدر فى الجمال وبالأسد فى الشجاعة وبحاتم فى الجود مقنع أن قبل تتطلب المدنية معانى أرقى وأمثلة أعلى .

وانظر إلى قول المتنبى :

وَقَفْتَ وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ   كأنَّكَ فى جَفْنِ الرَّدَى وهو نائمُ

تَمُرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هَزِيمَةً   ووَجْهُكَ وضَّاحٌ وثَغْرُكَ باسمُ

ثم انظر إلى سيف الدولة كيف يتنبه إلى أن تناسب المعانى يستلزم عكس الترتيب بجعل الشطر الثانى من البيت الأول فى موضع نظيره من البيت الثانى مبرهناً على ذلك بأنه إذا وقف والموت لاشك فيه فكان وضاح الجبين باسم الثغر دل بذلك على تناهى شجاعته إذ يضحك فى مقام البكاء ويشرق جبينه على حين يشتد العبوس وتكفهر الوجوه ، وكذلك إذا كان لم يسلم من ضرر القتال أحد ثم كان الممدوح مصوناً كأنه فى جفن أطبقه النوم كان ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة .

ومما يروى فى الاستدلال على إبعاد العصبية فى الحكم أن البحترى سأل ابنه أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر؟ فقال جرير: قال ، وبم ذلك ، قال لأن حوكه شبيه بحوكك قال ثكلتك أمك وهل فى الحكم عصبية ! !

***

وكان لاتساع الحضارة ، وضعف الملكات أثر فى اتساع مجال النقد ، فكثر تعرض الشعراء للوقوع فى الخطأ النحوى واللغوى ، وكذلك اضطربت أوزان الشعر العربى فى أذهانهم ، فكثر منهم الخروج عليها ، فصار الناقد يتناول منهم بالنقد مالم يكن يتوقع حدوثه من الجاهلى أو الأموى .

ومن الناحية اللفظية لم نجد فى القديم من عاب الشعر بغرابة اللفظ لأن الغريب كان فى زمانهم مألوفاً ، فأما فى العصر العباسى ، فقد أصبح من العيب أن يقول الشاعر مثل كلام امرئ القيس وطبقته بل الفرزدق والأخطل ، ومن على شاكلتهما .

ولم يكن نظام القصيدة فى القديم مجالا لنقد النقاد ، فإنهم كانوا راضين عما تواضع عليه الجاهليون من البدء بمخاطبة الرسوم . ووصف عفائها ، ثم وصف الناقة والتشبيب بالمحبوبة ، ولم نر منهم من ترك هذا النظام ، أو خرج عليه ناقضا له زاريا عليه ، أما فى العصر العباسى عصر المدنية حين دخل فى العرب عناصر جديدة لا يرون للعرب كبير

فضل ، ولا يعدون احتذاء طريقتهم منقبة يحرصون عليها ، بل يعدون من العار أن يخرج بهم التقليد إلى الكذب بوصف النوق وهم لم يركبوها ، ولا عالجوا أمورها ، وذكر عفاء الرسوم ، ولا رسوم عندهم . ولكن عندهم دور إذا خلت ممن يحبون عمرت بمن لا يحبون . فهذا وأشباهه هو الذى جعل أبا نواس يخرج على نظام القصيدة الذى كان حرما لا يعتدى عليه ، وقد عرفت ما كان من أبى نواس فى هذا المقام .

وقد اتجهت أنظارهم إلى ربط أجزاء القصيدة ، والخروج من بعض إلى بعض بمناسبات لطيفة ، واعتبارات دقيقة ، لما رأوا فى طفرة التنقل بين الأغراض من مفاجأة لا يحسن وقعها فى النفس ، فأكثروا من التلطف فى ذلك ، وكانت لهم فيه آيات من الإبداع رأيت كثيراً من أمثلتها فى موضوع (محاسن الشعراء المحدثين) ، وكان السابقون من جاهليين وأمويين لا يعنون بهذا الربط لمكانهم من السذاجة ، وعدم الإحكام ، ولم يكن من نقادهم من يتجه إلى هذا ، لأن طبع الناقد ، والقائل واحد .

ولما كان من المدنية مادة للخيال ومن علومها ثروة فى المعانى جرى على أيدى المحدثين تجديد فى كل ذلك فأتوا بما لم يسبقوا إليه . وتناولوا ما لم يخطر للسابقين على بال كما كان لهم فى معانى المتقدمين تنويع وإضافات جعلتهم فى كثير من الأحيان يستبدون بحسنها ويستولون على الفضل فيها . وكان موضوع المعانى المخترعة والمعانى القديمة أوسع موضوعات النقد ، وجرت المفاضلات بين الشعراء فى هذا الباب ، فمن أتى بما لم يسبق إليه أشادوا بهذه الفضيلة فيه ، وكذلك من تناول المعانى القديمة فأضاف إليها وتمم نقصها ذكروه بجميل فعله ، ومن كان وانىَ الذهن قصير الباع فأغار إغارة اللصوص ، وسرق معانى الشعراء بلا لطف ولا حيلة عابوه وهتفوا به . ولقد بلغ من عنايتهم ببحث هذه السرقات أن جعلوها موضوعًا متعدد المسائل فى كتبهم التى ألفوها فى النقد .

وهذا ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب « المثل السائر » جعل السرقة الشعرية أقسامًا

منها : النسخ ، والمسخ ، والسلخ . وجعل لكل فروعًا وضروبا نذكر لك بعضها على سبيل المثال . قال :

أما النسخ فإنه لا يكون إلا فى أخذ المعنى واللفظ جميعاً أو أخذ المعنى مع أكثر اللفظ فهو ضربان الأول ، يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرئ القيس :

وُقُوفًا بها صَحْبِي عليَّ مَطِيَّهُمْ   يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وتجَمَّلِ

وقول طرفة :

وُقُوفًا بها صَحْبِي عليَّ مَطِيَّهُمْ   يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وتجَلَّدِ

ومن الضرب الثانى قول بعض المتقدمين يمدح معبدا المغنى :

أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعده   وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَدِ

فأخذه أبو تمام وقال :

مَحَاسِنُ أصناف المغنين جَمَّةٌ   »   »   »   »   »

ثم قسم السلخ اثنى عشر قسما جعل منها أخذ المعنى مجرداً من اللفظ ، وجعل منه قول عروة بن الورد :

ومَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عيالٍ ومُقْتِرًا   من المال يَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ

لِيَبْلُغَ عُـــذْراً أو يَنَالَ رَغِيبَةً   ومُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحِ

أخذه أبو تمام فقال :

فَتًى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ مِيتَةً   تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إنْ فَاتَهُ النَّصْرُ

قال فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاح . وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء الأعداء قائما مقام النصر وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف .

هذا مثل من أمثلة توسع العباسيين فى النقد . ولا نظنّ أن أحداً يعارض فى قولنا : إن بعض علوم العربية لم يكن وضعه فى أيام العباسيين إلا نتيجة لتمام ملكة النقد عندهم . فهذا علم العروض لم يدع الخليل إلى وضعه إلا ما رآه من خطأ فى أوزان الشعر ندّعن

حرص الشعراء لضعف ملكاتهم ، أو تعمدوه تعمدا خارجين به على منهاج العربية فى أوزان شعرها الموروثة عن القدماء ، وكذلك علم البيان عرفت من تاريخ وضعه أنه كان نتيجة لمناقشة فى معنى قوله تعالى «طلعها كأنه رءوس الشياطين» ، وهذه الأنواع البديعية التى أربت على المائة ألم تكن كلها فى كلام القدماء والقرآن الكريم فظلت مستورة حتى كشفها البحث وترديد النظر فى الكلام .

وما زال النقد ينمو حتى صار علما فصلت مسائله ونوعت طرائقه ووضعت له المصطلحات وألفت فيه الكتب ، ونحن ذاكرون لك كيف تدرج التأليف فى هذا العلم فنقول :

أول من ألف فى النقد محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، أخرج كتابه المسمى « طبقات الشعراء » قال فى مقدمته : وللشعراء صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم . والصناعات منها ماتثقفه العين . ومنها ماتثقفه الأذن ، ومنها ماتثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان . ثم جعل الشعراء قسمين جاهليين و إسلاميين ، وجعل كلا عشر طبقات واختار من كل طبقة أربعة من فحولها فجعل من الطبقة الأولى من الجاهليين : امرأ القيس ، والنابغة ، وزهيراً ، والأعشى ، وجعل من الطبقة الأولى من الإسلاميين : جريرا ، والفرزدق ، والراعى ، والأخطل . وتراه فى كتابه يعتمد فى أحكامه على آراء السابقين ، فيستحسن ما استحسنوا ، ويعيب ما عابوا ؛ ثم ارتقى النقد فلم يعد المؤلف يعتمد فيما يرى على أقوال القدماء بل يمحص بنفسه ، ويستحسن ما يراه حسناً ، ويستقبح ما يراه قبيحاً ، لا يعرف فضلا لمتقدم على متأخر إلا بالإجادة وحدها ، وذلك ما فعله ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى كتابه « الشعر والشعراء » قال فى مقدمته :

لم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد واستحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره .

كذلك ألف ابن قتيبة هذا ، كتاب « أدب الكاتب » فأنحى فى مقدمته على الكتّاب باللوم وأبان عن جهلهم الفاضح ثم نصح لهم بأمور تحسن بهم ، فمما قال :

ويستحسن له (أى الكاتب) أن يزن ألفاظه فى كتبه ، فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وألا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام ، فإنى رأيت الكتّاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخلطوا فيه ، فليس يفرقون بين من يكتب إليه « فرأيك فى هذا » وبين من يكتب إليه « فإن رأيت كذا » . و « رأيك » إنما يكتب بها إلى الأكفاء والمساوين ، ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأساتذة لأن فيها معنى الأمر ولذلك نصبت ، ولا يفرقون بين من يكتب إليه « أنا فعلت ذلك » ومن يكتب إليه « ونحن فعلنا ذلك » و « نحن » لا يكتب بها عن نفسه إلا أمراؤنا لأنها كلام الملوك والعظماء . قال الله عزّ وجلّ : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. وَإِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وعلى هذا الابتداء خوطبوا فى الجواب ، فقال تعالى حكاية عمن حضره الموت : « رَبِّ ارْجِعُونِ . . . » .

ولم يكن التأليف إلى هذا الحين نقداً صريحاً بالمعنى الذى صار إليه فيما بعد حتى جاء قدامة الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ فألف كتابه « نقد الشعر » فبين فيه حدود الشعر وشروط نظمه من حيث اللفظ والمعنى ولكن كتابه كان مختصراً شأن كل علم فى مبدئه ، وعلى هذا المثال كتابه نقد النثر ، وكتاباه مطبوعان فى مصر .

ثم جاء حسين بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ فألف كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وقد دل فى كتابه على أن ملكة النقد كانت قد تمت عند أهل عصره فإنه حين تناول الشاعرين لم يترك شيئاً مما يقال فى شعرهما إلا أفاض فيه بأجلى بيان فقد بدأ بذكر آراء الناس فى الشاعرين بأسلوب جدل ونقاش بين متعصب لأبى تمام ومتعصب للبحترى ثم قال بعد ذلك « وأنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين

الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما فأذكر طرفا من سرقات أبى تمام ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوئ البحترى فيما أخذه من معانى أبى تمام وغير ذلك من غلط فى بعض معانيه ، ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى؛ فإن محاسنهما تظهر فى تضاعيف ذلك وتنكشف . ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه وأفرد باباً لما وقع فى شعريهما من التشبيه ، وباباً للأمثال أختم بهما الرسالة »

فأنت ترى من هذا الفهرس الذى ذكره لكتابه أن النقد فى عصره قد اتسع موضوعه ، وشمل كل ما ينبغى أن يقال فى الشاعر المنتقد . وقد أبلى الآمدى أحسن بلاء فى حديثه عن الشاعرين حتى ليخيل إليك أنه لم يترك لأحدهما بيتا من ديوانه إلا درسه وحلله وعرضه على محك نقده وأنصفه فيه فعابه حين استحق العيب ، وقرظه حين كان جديراً بالتقريظ .

ولنضرب لك مثلا من نقده لهما فقد عد من خطأ أبى تمام المعنوى قوله فى على ابن الجهم وقد ودعه :

وإذا فَقَدْتَ أَخاً فَلَمْ تَفْقِدْ لَه دَمْعاً ولا صَبْراً فَلَسْتَ بفاقِدِ

قال : وقوله «فلم تفقد له دمعاً ولا صبراً » من أفحش الخطأ لأن الصابر لا يكون باكيا والباكى لا يكون صابراً ، فقد نسق بلفظة على لفظة وهما نعتان متضاربان ولا يجوز أن يكونا مجتمعين ، ومعناه أنك إذا فقدت أخا فأدام البكاء عليك فلست بفاقد وده ولا أخوته وهو محصل لك غير مفقود وإن كان غائباً عنك ، وإلى هذا ذهب إلا أنه أفسده بذكر الصبر مع البكاء وذلك خطأ ظاهر ، ولو كان قال فلم تفقد له دمعاً ولا جزعا أو دمعاً ولا شوقا ولا قلقاً لكان المعنى مستقيما . وظننته قال غير هذا ، وأن غلطاً وقع فى كتابة البيت عند النقل حتى رجعت إلى أصل أبى سعيد السكرى وغيره من الأصول القديمة فلم أجد إلا دمعا ولا صبراً وذلك غفلة منه عجيبة . وقد لاح لى معنى أظنه ــ والله

أعلم ـ إليه قصد وهو أن يكون أراد إذا فقدت أخا ولم تفقد له دمعاً أى يواصل البكاء عليك فلست بفاقده على ما ذكرته أى فقد حصل لك وصار ذخراً من ذخائرك وإن غاب عنك وغبت عنه ، وإن لم تفقد له صبراً أى وإن صبر عنك فلست أيضاً بفاقده لأنك لا تعتد به موجوداً ولا مفقوداً . ولكن ذهب على أبى تمام أن هذا غير جائز لأنه وصف رجلاً واحداً بالوصفين جميعاً وهما متضادان ، ولو كان جعلهما وصفين لرجلين فقال :

وإذا فَقَدْتَ أَخًا لِفَقْدِكَ باكِيًا ... أو صابراً جَلْدًا فَلَسْتَ بفاقِدِ

أى فلست بفاقد هذا لأنه محصل لك ولست بفاقد هذا لأنه غير ناس مودتك ، لكان المعنى سائغاً حسناً واضحاً ، ولو جعله شخصاً واحداً وجعل له أحد الوصفين فقال :

وإذا فقدت أخا فَأَسْبَلَ دَمْعَهُ ... أو ظَلَّ مُصْطَبِرًا فَلَسْتَ بفاقِدِ

لكان أيضاً سائغاً على هذا المذهب أو كان استوى له فى ذلك اللفظ بعينه أن يقول: فلم تفقد له دمعاً أو صبراً حتى لا يجعل له إلا أحدهما لساغ ذلك لكنه نسق بالصبر على الدمع فجعلهما له ففسد المعنى

وعد من الخطأ المعنوى للبحترى قوله :

هَجَرَتْنَا يَقْظَى وَكَادَتْ عَلَى عا ... دَاتِهَا فِى الصُّدُودِ تَهْجُرُ وَسْنَى

وهذا عندى غلط لأن خيالها يتمثل له فى كل أحوالها يقظى كانت أو وسنى وإنما أخذ معنى بيته من قول قيس بن الخطيم :

ما تَمْنَعِى يَقْظَى فَقَدْ تُؤْتِينَهُ ... فى النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبِ

وما أظنّ أحداً سبق قيساً إلى هـذا المعنى فى وصف الخيال وهو حسن جدًّا ، ولكن فيه أيضاً مقال لمعترض ، وذلك هو الذى أوقع البحترى فى الغلط لأن قيساً قال : ما تمنعى فى اليقظة فقد تؤتينه فى النوم : أى ما تمنعينه فى يقظتى ، فقد تؤتينه فى حال نومى حتى يكون النوم واليقظة معاً منسوبين إليه إلا أنه يتسع من التأويل لقيس

ما لا يتسع للبحترى ، لأن قيساً قال فقد تؤتينه فى النوم ، فقد يجوز أن يحمل على أنه أراد ما تمنعى يقظى وأنا يقظان فقد تؤتينه فى نومى، ولايسوغ مثل هذا فى بيت البحترى لأن البحترى قال : وسنى ولم يقل فى الوسن .

ومن قبيل كتاب الآمدى ما فعله عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ فى كتابه «الوساطة بين المتنبى وخصومه» ألفه ردًّا على الصاحب بن عباد الذى ألف كتاباً فى مساوئ المتنبى ، وتحامل فيه عليه ضغينة لعدم مدح المتنبى له مع عرضه عليه أن يشاطره فى ماله إذا فعل ، ولكن المتنبى بلغ من كبره ألا يمدح إلا الملوك

وقد صدر الجرجانى كتابه بمقدّمة طويلة أبان فيها أن المتقدّمين من جاهليين و إسلاميين ليس لهم عصمة من الخطأ ، ولاسلامة من العيب كما يعتقد ذلك بعض الذين يرون أن الفضل بتقدّم الزمان ، ثم عدّ كثيرًا من أغلاط الجاهليين النحوية والمعنوية . وانتهى إلى أن الشعر « علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادّة له وقوّة لكلّ واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، و بقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ... »
وقد انتصف للمتنبى من عائبيه فى قوله :

بَلِيتُ بِلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بها وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فى التُّرْبِ خَاتَمُهْ

قال : قالوا أراد التناهى فى إطالة الوقوف فبالغ فى تقصيره ، وكم عسى هذا الشحيح بالغاً مابلغ من الشحّ . وواقعاً حيث وقع من البخل أن يقف على طلب خاتمه ، والخاتم أيضا ليس مما يخفى فى التراب إذا طلب ، ولا يعسر وجوده إذا فتش ، وقد ذهب المحتجون عنه فى الاعتذار له مذاهب لا أرضى أكثرها ، وأقرب مايقال فى الإنصاف ما أقوله إن شاء الله تعالى . أقول : إن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة ، وأخرى بالحال والطريقة ، فإذا قال الشاعر وهو يريد إطالة وقوفه : إنى أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه ، لم يرد التسوية بين الوقوفين فى القدر والزمان والصورة ، وإنما يريد

لأقفن وقوفاً زائداً على القدر المعتاد ، وخارجًا عن حدّ الاعتدال كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف فى أمثاله ، وعلى ما جرت به العادة فى إخراجه ، وإنما هو كقول الشاعر :

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفَسِ العا ... شِق طُولاً قَطَعْتُهُ فى انْتِحَاب

ونحن نعلم أن نفس العاشق بالغاً ما بلغ لا يمتدّ امتداد أقصر أجزاء الليل ، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضى إلا عن أنفاس لا تحصى كائنة ما كانت فى امتدادها وطولها ، وإنما مراد الشاعر أن الليل زائد فى الطول على مقادير الليالى كزيادة نَفَس العاشق على الأنفاس ، فهذا وجه لا أرى به بأساً فى تصحيح المعنى ، وإن كنت أرى ألا يؤخذ الشاعر بهذه الدقائق الفلسفية ما لم يأخذ نفسه بها ، ويتكلف التعمل لها ، فيؤخذ حينئذ بحكمه ، ويطالب بما جنى على نفسه .

ثم جاء الثعلبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، فأخرج فيما أخرج من كتبه النافعة الجليلة كتاب : « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ، وأتى فيه بأخبار شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقسم الكلام فيه إلى أبواب باعتبار الأقاليم ، فجعل بابا لشعراء الشأم تناول فيه فيما تناول المتنبى ، وأبا فراس ، وما كان من أحوال سيف الدولة ، واهتمامه بالأدب ، وعمله على رفع شأنه بعطائه الكثير ، وبابا آخر لشعراء مصر والمغرب ، وثالثاً لشعراء الموصل وهكذا ، وكل الكتاب بيان لتاريخ هؤلاء الشعراء ، أو الكتّاب واختيار لمحاسن كلامهم ، وتعليق عليها بالعيب ، أو التقريظ ولكنه لم يحتفل بأحد هؤلاء احتفاله بالمتنبى ، فقد استغرق فيه قدرا كبيراً من أوراق الجزء الأول وهو أضخم أجزاء الكتاب الأربعة .

وهو بوجه عام إذا تناول شاعراً أو كاتباً ذكر نشأته وأثرها فى نبوغه وتتبع حياته بتفصيل شاف وتناول قوله فيذكر من الشاعر ابتدا آته وتخلصاته وسرقاته ، وتهكم بمعايبه ، وأقرّ بفضل محاسنه مما يجعل تعريف أهل هذا العصر بشاعر أو كاتب كاملا شافياً للنفس .

وهذا فهرس ترجمة المتنبي فى كتابه « يتيمة الدهر » وهو يدلك على مقدار تعمقه البحث قال :

« الباب الخامس فى ذكر أبى الطيب المتنبى ـ ذكر ابتداء أمره ـ نبذ من أخباره ـ أنموذج لسرقات الشعراء منه ـ صدر من سرقاته ـ بعض ما تكرر فى شعره من معانيه ـ ما ينعى على أبى الطيب من معايب شعره ومقابحه ـ ومنها المطالع ـ ومنها إبعاد الاستعارة والخروج بها عن حدها ـ ومنها تكرير اللفظ فى البيت الواحد ـ ومنها الإيضاح عن ضعف العقيدة ـ ومنها الغلط بوضع الكلام فى غير موضعه ـ ومنها امتثال ألفاظ المتصوفة والخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة ـ ومنها استكراه التخلص وقبح المقاطع ... ومثل ذلك وأكثر منه تفصيلا ذكره فى أنواع محاسنه » .

ومن نماذج نقده له قوله : فمنها قبح المطالع ، وحقه الحسن والعذوبة لفظاً والبراعة والجودة معنى لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن ، فإذا كانت حاله على الضد مجه السمع، وزجه القلب ، ونبت عنه النفس، وجرى أمره على ما تقول العوام « أول الدنّ دُرْدِيّ[1] » ولأبي الطيب ابتداآت ليست لعمرى من أحرار الكلام وغرره بل هى كما نعاها عليه العائبون مستشنعة مستبشعة لا يرفع السمع لهـا حجابه ، ولا يفتح القلب بابه . كقوله :

هَذِى بَرَزْتِ لنا فَهِجْتِ رَسِيساَ ثُمَّ انْصَرَفْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيساَ

فإنه لم يرض بحذف علامة النداء فى هذى وهو غير جائز عند النحويين حتى ذكر الرسيس والنسيس فأخذ بطرفى الثقل والبرد وكقوله (أوه بديل من قولتى واها) وهو برقية العقرب أشبه منه بافتتاح كلام فى مخاطبة ملك ، وكقوله وهو ما تكلف له اللفظ المعقد والترتيب المتعسف لغير معنى بديع يفى شرفه وغرابته بالتعب فى استخراجه ولا تقوم فائدة الانتفاع به إزاء التأذى باستماعه وهو :

---

(١) الدن : راقود الخمر . الدردى : مابقى فى أسفل الإناء من عكر السائل .

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ[(١)]

وكقوله فى افتتاح قصيدة فى مدح ملك يريد أن يلقاه بها أول لقية :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وفى الابتداء بذكر الداء ، والمنايا ما فيه من الطيرة التى تنفر منها السوقة فضلا عن الملوك . . . ، ومن قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام ، وتجمع من الحساب ما يدرك بالارتماطيقى ، وبالأعداد الموضوعة الموسيقى :

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فى أُحَادِ لُيَيْلَتُنَا المَنُوطَةُ بِالتَّنَادِى[(٢)]

وهذا كلام الحُكْل[(٣)] ، ورطانة الزُّطّ[(٤)] ، وما ظنك بممدوح قد تشمر للسماع من مادحه فصكّ سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة ، والمعانى المنبوذة ، فأىّ هزة تبقى هناك ، وأى أريحية تثبت هنا ؟ وقد خطأه فى اللفظ ، والمعنى كثير من أهل اللغة ، وأصحاب المعانى حتى احتيج فى الاعتذار له ، والنصح عنه إلى كلام لا يستأهله هذا البيت ، ولا يتسع له هذا الباب .

وقد اتبع أبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ فى النقد أسلوبا طريفاً لم يسبقه إليه غيره إذ بنى نقده على خيال بارع ، وهو أن الشعراء والنحاة وغيرهم دخلوا الجنة

---

(١) وفاؤكما : مبتدأ خبره كالربع . وأشجاه : تفضيل من شجاه الأمر بمعنى أحزنه ، وطاسمه : دارسه وساجمه : ساكبه . وجملة أشجاه طاسمه حال من الربع ، وبأن تسعد متعلق بوفاء . وهذا من الضرورات القبيحة لأن الاسم لا يخبر عنه إلا بعد تمامه . والمعنى : يقول لصاحبيه اللذين وعداه بالمساعدة بالبكاء : إن وفاءكما بالمساعدة كهذا الربع فإن الربع كلما زاد دروسه كان أدعى إلى الحزن وكذلك الوفاء كلما ضعف وقلت المساعدة بالبكاء كان أدعى إلى شدة الحزن .

(٢) أحاد : أى أأحاد ، فحذف الهمزة ضرورة . وأحاد صيغة تدل على توارد المعدود على العدد المصوغة منه وهو مسموع عن العرب إلى الأربعة ، وقاسه المولدون إلى العشرة . الليبلة : تصغير ليلة للتعظيم التناد : يوم القيامة . يقول : هذه الليلة المتصلة بيوم القيامة تجمع ليالى الدهر كلها ، وكل ليلة من تلك الليالى هل هى ليلة واحدة أو ست ليال فى كل ليلة فتكون الليلة سبع ليال أى أسبوعا .

(٣) الحكل : مالا يسمع صوته من الدواب .

(٤) جيل من الهنود يقيم الآن بالبنجاب .

أو النار بأقوالهم وآرائهم ، ثم جعل يصف نعيمهم وعذابهم من أجل ذلك . فمن قوله فى مخاطبة المارّ بالجنة لزهير بن أبى سلمى : بم غفر لك وقد كنت فى زمن الفترة والناس همل، لايحسن منهم العمل؟ فيقول (زهير) كانت نفسى من الباطل نفوراً فصادفت ملكا غفوراً ، وكنت مؤمنا بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم حبلا نزل من السماء فمن تعلق به من سكان الأرض سلم فعلمت أنه أمر من أمر الله فأوصيت بنىّ وقلت لهم عند الموت : « إن قام قائم بدعوتكم إلى عبادة الله فأطيعوه » ، ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين ، وقلت فى الميمية والسفه ضارب بالجران :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فى نُفُوسِكُمْ   لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يُعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فى كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ   لِيَوْمِ الحسابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

ويقول عن بشار وهو يعذب فى جهنم (. . . . ورجل فى أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار) وإذا هو بشار بن برد قد أعطى عينين لينظر بهما بعد الكمه ، إلى ما نزل به من النكال . فيقول له « يا أبا معاذ لقد أحسنت فى مقالك وأسأت فى معتقدك ولقد كنت فى الدار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحم عليك ظنا أن التوبة ستلحقك مثل قولك :

إِرْجِعْ إلى سَكَنٍ تَعِيشُ بِهِ   ذَهَبَ الزَّمَانُ وأنت مُنْفَرِدُ
تَرْجُو غدًا وغدٌ كحاملةٍ   فى الحىِّ لا يَدْرُونَ ما تَلِدُ

وقولك :

الحُرُّ يُلْحَى والعَصَا للعَبْدِ   وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ

فيقول بشار (يا هذا دعنى من أباطيلك فإنى مشغول عنك) اهـ

وابن رشيق صاحب العمدة وإن لم يكن من أدباء المشرق كان معاصراً للدولة العباسية فقد توفى سنة ٤٥٦هـ ، ويعد كتابه (العمدة فى صناعة الشعر ونقده) من خير كتب النقد لأنه تناول الشعر من جميع نواحيه فقسم الشعراء إلى طبقات

وذكر حد الشعر، وماينبنى عليه وتكلم فى اللفظ والمعنى والصنعة والطبع، وذكر الأوزان الشعرية والقوافى وما خرج به الناس على القديم فى هـذين، ثم بحث المطالع والمقاطع وأورد أمثلة مختارة من ابتداآت الشعراء وغيرها مرذولة سقطت بها أشعارهم، ثم تناول علوم البلاغة فتكلم فيها على قدر ما انتهى إليه البحث فى أيامه، ثم بحث فى المعانى القديمة والحديثة، ثم ذكر مايترخص به الشاعر، وتناول السرقات الشعرية فأفاض فيها، وقد سمى أنواعها أسماء كثيرة سبقه إليها عبدالعزيز الجرجانى فى كتابه «الوساطة» وقد نقل عنه ابن رشيق معتدا برأيه فقال: قال الجرجانى وهو أصح مذهباً، وأكثر تحقيقاً من كثير ممن نظر فى هذا الشأن، ولست تعد من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علماً برتبه ومنازله فتفصل بين السرقة والغصب وبين الإغارة والاختلاس وتعرف الإلمام من الملاحظة وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرقة فيه. والمبتذل الذى ليس أحد أحق به من الآخر، وبين المختص الذى حازه المبتدى فملكه واجتباه السابق فاقتطعه، وقد أتى بأمثلة لتلك الأقسام تراها فى الجزء الثانى من كتابه .

ولابن رشيق أيضاً كتاب يسمى « قراضة الذهب » وهـو فى الحقيقة توسعة لبعض أبواب كتابه « العمدة » ولعله هو الذى أشار إليه حين تكلم فى المعانى القديمة والحديثة فقد اشتمل الـكتاب على شىء من ذلك مع توسع آخر فى موضوع السرقات الشعرية واقتباس الشعراء بعضهم من بعض

وآخر من ظهر فى العصر العباسى ممن كتبوا فى النقد هو ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ فى كتابه «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» وقد صدره بمقدمة فى علم البيان ومقالتين أولاها فى الصناعة اللفظية من سجع وجناس وغيرها وثانيتهما فى الصناعة المعنوية وقد تكلم فيها عن التشبيه والاستعارة، وعطف على أنواع البديع المعنوية وتناول موضوع المعانى القديمة والحديثة والسرقات وذكر من أقسامها ما سبق أن أوردنا لك

بعضه فى صدر هذا المقال وعقد موازنات بين الشعراء ويحسن أن نذكر لك منها موازنة عقدها بين أبى تمام والمتنبى فى رثاء من مات صغيراً قال :

فمما جاء من ذلك قول أبى تمام فى رثاء ولدين صغيرين :

مجدٌ تأوَّبَ طارقاً حتى إذا ... قُلْنا أقام الدهرَ أصبح راحلا[1]

نجمانِ شاءَ اللهُ ألا يطْلُعا ... إلا ارتدادَ الطَّرْفِ حتى يَأْفِلا

إن الفجيعةَ بالرياض نواضرًا ... لأَجَلُّ منها بالرياض ذوابلا

لَهْفِي على تلك الشـواهدِ فيهما ... لو أُخِّرَتْ حتى تكون شمائلا[2]

إن الهـلال إذا رأيتَ نُمُوَّهُ ... أيقنْتَ أنْ سيكونُ بَدْرًا كاملا

قل للأمير وإنْ لَقيتَ مُوَقَّرًا ... منه بِرَيْبِ الحادثات حُلاحِلاَ[3]

إنْ تُرْزَ فى طَرَفَىْ نهارٍ واحدٍ ... رُزْأَيْنِ هاجا لوعةً وبَلابِلا[4]

فالثِّقْلُ ليس مُضَاعَفاً لمطيـةٍ ... إلاَّ إذا ما كان وَهْمًا بازلا[5]

لا غَرْوَ إن فَنَنَانِ من عَيْدانةٍ ... لَقِيَا حِمَامًا للبرية آكلا[6]

إن الأَشاءَ إذا أصاب مُشَذِّبٌ ... منه أتْمَهَلَّ ذُرًا وأَثَّ أسافلاَ[7]

شَمَخَتْ خلالك أن يُوَاسِيكَ امرؤ ... أو أن تُذَكَّرَ ناسياً أو غافلا

إلا مواعظ قادها لك سَمْحَـةً ... إسجاحُ لُبِّكَ سامِعًا أو قائلا

هل تَـكْلَفُ الأيدى بهزِّ مُهَنَّدٍ ... إلا إذا كان الحسامَ القاصلا

---

(١) تأوب : أتى ليلا .

(٢) راوية الديوان « أمهلت » بدل أخرت .

(٣) الحلاحل : السيد الشجاع .

(٤) ترز : أصلها ترزأ بمعنى تصاب ، فلما سهلت الهمزة جزم الفعل بحذفها . البلابل : الوساوس .

(٥) الوهم : الجمل الذلول الضخم القوى . البازل : الجمل أو الناقة فى سنتهما التاسعة ، وذلك أشد مايكونا من القوة . والمعنى أنه لا يزاد الحمل إلا للجمل الذى يقوى عليه .

(٦) العيدانة : النخلة أطول ماتكون .

(٧) الأشاء : صغارالنخل : اتمهل : ارتفع . أث : كثر .

وقال أبو الطيب فى مرثية طفل صغير :

فإنْ تَكُ فى قبرٍ فإنك فى الحَشَا ... وَإنْ تَكُ طفلا فالأسَى ليس بالطِّفْلِ

وَمِثْلُكَ لا يُبْكَى على قدر سنه ... وَلَـكِنْ على قَدْرِ المَخِيلَةِ وَالأَصْلِ (١)

أَلَسْتَ من القومِ الذين رِمَاحُهُمْ ... نَدَاهم ومن قَتْلاَهُمُ مُهْجَةُ البُخْلِ (٢)

بمولودهم صَمْتُ اللسانِ كغيره ... ولـكنَّ فى أعطافه مَنْطِقَ الفَضْلِ

تُسَلِّيهِمُ علياؤُهُمْ عن مُصَابِهِمْ ... وَيَشْغَلُهُمْ كَسْبُ الثناء عن الشُّغْلِ (٣)

عَزَاءَكَ سَيْفَ الدولةِ المُقْتَدَى به ... فإنَّكَ نَصْلٌ والشدائدُ للنَّصْلِ

تَخُونُ المنايا عَهْدَهُ فى سَلِيلِهِ ... وتَنْصُرُهُ بَيْنَ الْفَوَارِسِ والرَّجْلِ (٤)

بنفسى وَلِيدٌ عاد من بعـد حَمْلِهِ ... إِلَى بَطْنِ أُمٍّ لا تُطَرِّقُ بالحَمْلِ

بدا وله وَعْـدُ السَّحَابَةِ بالرِّوَى ... وصَـدَّ وَفِينَا غُلَّةُ البَلَدِ المَحْلِ (٥)

وقد مَدَّتِ الْخَيْلُ العِتَاقُ عُيُونَهَا ... إلى وقت تَبْدِيلِ الرِّكابِ من النَّعْلِ (٦)

وريعَ له جَيْشُ العَدُوِّ وما مشى ... وجَاشَتْ له الحربُ الضَّرُوسُ وما تَغْلِى

فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد ، وكيف هام كل

---

(١) المخيلة : ما يتخيل فى الشخص ، والمراد أن المرء إنما يبكى عليه على قدر ما يتخيل فيه من عظمة فى مستقبله

(٢) الألى : الذين . أراد أنهم من القوم الذين أفنوا البخل بجودهم فاستعار للبخل مهجة وجعل جودهم بمنزلة رماح تطعن بها مهجة البخل . والاستفهام للتقرير أى أنت من هؤلاء القوم .

(٣) المصاب (بالضم) : مصدر بمعنى الإصابة . والمعنى أن معاليهم توجب لهم التسلى والصبر على ما يصيبهم أنفة من الجزع الذى هو شأن النفوس الصغيرة . واهتمامهم بكسب الثناء يشغلهم عن الاشتغال بغيره

(٤) الفوارس : الركبان . الرجل : المشاة .

(٥) الروى (بكسر ففتح) : مصدر روى من الماء . الغلة : العطش . يقول : ظهر هذا الوليد ومخايل كرمه واعدة بالخير كما يعد السحاب بالرى ثم أعرض عنا بموته قبل أن يدر كرمه فبقى فينا مثل عطش الأرض المجدبة إذا أخطأها رى السحاب .

(٦) مد العيون : كناية عن الترقب والرغبة . الركاب : ما توضع فيه الرجل من السرج . أى مات قبل أن يركب الخيل وكانت متشوقة لذلك .

واحد منهما فى واد مع اتفاقهما فى بعض معانيه ، وسأبين لك ما اتفقا فيه ، وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه ، فإن أبا تمام قال : لهفى على ... وأما أبو الطيب . فإنه قال بمولودهم . . . فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام ، وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ، ومنطق الفصل ، وقال أبو تمام : نجمان ، وقال أبو الطيب : بداوله . . . فوافقه فى المعنى ، وزاد عليه بقوله : وصدوفينا غلة البلد المحل ، لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده ، وانتفاعهم بحياته .

وأما ما اختلفا فيه ، فإن أبا الطيب : أشعر فيه من أبى تمام وذاك أن معناه أمتن من معناه ، ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقِدَمه لا مع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام ، وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب . فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول فيما اتفقا فيه من المعنى ، فأما الذى اختلفا فيه ، فإن أبا الطيب قال : عزاءك سيف الدولة . . . ، وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما : إن ترز فى طرفى . . . ، فإن قول أبى الطيب : والشدائد للنصل أكرم لفظا ، ومعنى من قول أبى تمام إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضاً تخون المنايا . . . . أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما : لا غرو إن فننان . . . . وكذلك قال أبو الطيب البيتين: ألست من القوم . . . ، وهذا خير من بيتى أبى تمام اللذين هما : شمخت خلالك ...

وهذه موازنة أخرى عقدها أيضاً بين البحترى وأبى الطيب فى وصفهما للأسد قال « . . . ولكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه فمما جاء للبحترى من قصيدته :

وما تَنْقِمُ الحُسَّادُ إلا أصَالَةً ... لَدَيْكَ وَعَزْمًا أَرْيَحِيًّا مُهَذَّبًا[1]

وقد جرَّبُوا بالأمس منك عَزِيمَةً ... فَضَلْتَ بِها السيفَ الحُسامَ المُجَرَّبَا

---

(١) الأريحى : الواسع الخلق ، والمراد بالعزم الأريحى العزم المتناول لشتى الأمور .

غَداة لَقيتَ اللَّيْثَ وَاللَّيْثُ مُخْدِرٌ ... يُحَدِّدُ نَابًا لِلِّقَاءِ ومِخْلَبَا[١]

إذ شاء غادَى عَانَةً أو عَدَا عَلَى ... عقائِلِ سِرْبٍ أو تقَنَّصَ رَبْرَبَا[٢]

شَهِدْتُ لقد أَنْصَفْتَه حين تَنْبَرِى ... له مُصْلِتاً عَضباً من البيض مُقْضِبَا

فَلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا ... عِرَاكًا إذا الهَيَّابة النِّكْسُ كَذَّبَا[٣]

هِزَبْراً مشى يَبْغِي هِزَبْراً وَأَغْلَبَا ... مِنَ القَوْمِ يَغْشَى باسلَ القَوْمِ أغلبا

أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثم هَالَتْهُ صَوْلَةٌ ... رآكَ لها أَمْضَى جَنَانًا وأَشْغَبَا[٤]

فَأَحْجَمَ لَمَّا لم يَجِدْ فيك مَطْمَعًا ... وأَقْدَمَ لَمَّا لم يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا

فَلم يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً ... ولم يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْك مُنَكِّبَا

حَمَلْتَ عليه السيفَ لاعَزْمُك انثنى ... ولا يَدُكَ ارتَدَّتْ ولا حدُّه نَبَا

ومما جاء لأبي الطيب في قصيدته :

أَمُعَفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ ... لمن ادَّخَرْتَ الصارمَ المصقولاَ[٥]

وَرْدٌ إذا وَرَدَ البحيرةَ شارِبًا ... وَرَدَ الفُراتَ زَئِيرُهُ والنِّيلاَ[٦]

مُتَخَضِّبٌ بدَمِ الفوارس لابسٌ ... في غِيلِهِ عن لِبْدَتَيْهِ غِيلا[٧]

---

(١) حدد السكين : مسحها بحجر أو مسن لتصير قاطعة ، ولعل المراد من تحديد الليث لنابه أنه يحكه بأسنانه استعدادا للفتك به .

(٢) غادى : صادف فى وقت الغدوة (أول النهار) . العانة: جماعة الحمر الوحشية . الربرب : القطيع من بقر الوحش .

(٣) الهيابة : الجبان . النكس : الضعيف . كذب : جبن يقال حمل فما كذب أى فما نكص ولا جبن .

(٤) الشغب (بالفتح وقيل يحرك وقيل لا) : تحريك الشر والهياج . يقول إن الأسد أعجبه من نفسه مايألى به من شغب ولكنه عاد فهاله مارأى منك .

(٥) عفره : مرغه فى التراب . يقول إنك صرعت الأسد بسوطك وهو أشد الحيوان خلقة وأهوله بأسا . فلمن خبأت السيف .

(٦) الورد : الذى يضرب لونه إلى الحمرة . والمراد بالبحيرة بحيرة طبرية .

(٧) الغيل : الغابة . اللبدة : الشعر المجتمع على كتف الأسد شبه لبدتيه بالغابة لكثافتها فقال انه إذا كان فى الغابة التى هى شجر ملتف فهو فى غابة أخرى من لبدتيه .

ما قُوبلتْ عيــناه إلا ظُنَّتَا تحت الدُّجى نارَ الفَريقِ حُلولا[1]

فى وَحْدَةِ الرُّهْــبانِ إلا أنَّهُ لا يَعْرِفُ التحريمَ والتحليلا

يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقًا من تِيهِهِ فكأنه آسٍ يَجُسُّ عَليــلا[2]

ويَرُدُّ عُفْرَتَهُ إلى يا فوخــه حَتَّى تَصيرَ لرأسه إِكْليلا[3]

قَصَرَتْ مَخافَتُهُ الخُطا فكأنَّما رَكِبَ الكَمِىُّ جوادَه مَشْكُولا[4]

أَلْــقَى فريسته وزَمْجَرَ دونها وقَرُبْتَ قُرْبًا خاله تَطْفيلا[5]

فتَشابَهَ القُرْبَانِ فى إقدامــه وتَخَالَفَا فى بَذْلِكَ المأْكُولا[6]

أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فيك كِلَيْهِما مَتْنًا أَزَلَّ وَساعِـــدًا مَفْتُولا[7]

ما زَال يَجْمَعُ نَفْسَه فى زَوْره حَتَّى حَسِبْتَ العَرْضَ منه الطولا

وكأنما غَرَّتْهُ عــينٌ فادَّنَى لا يُبْصِرُ الخَطْبَ الجليل جليلا

أَنَفُ الكريمِ من الدَّنِيَّةِ تاركٌ فى عَيْنِه العَدَدَ الكثيرَ قليلا

---

(١) الفريق : الجماعة . حلول : جمع حال ، وهو الذى ينزل بالمكان ويقيم فيه . يقول عيناه تحت ظلام الليل كأنهما نار قوم حالين .

(٢) هذا البيت من عيون الشعر العربى فى دقة التمثيل .

(٣) العفرة : شعر القفاء ، إذا غضب الأسد ردها إلى يافوخه فتنتصب كالإكليل .

(٤) القصر (هنا) : ضد الطويل . المشكول : المقيد بالشكال ، يقول: إن الخوف منه أوقع الرعب فى قلوب الخيل فتحيرت وذهلت عن الجرى ، حتى كأن الفارس يركبها مقيدة .

(٥) يشير بالفريسة إلى البقرة التى ألقيت إلى الأسد فهاجه عنها الممدوح . والتطفيل : التعرض لطعام الناس من غير دعوة يقول : إن الأسد ألقى فريسته وزأر غاضبا حين رآك تقرب منها متطفلا على طعامه .

(٦) ويروى فتشابه الخلقان . يقول : إنك والأسد تشابهتما فى خلقتكما فكلا كما مقدام ولكن يفرق بينكما أنك كريم باذل لما ملكت يدك ، وهو بخيل حريص على طعامه .

(٧) العضوان : فسرهما فى البيت بالمتن والساعد ، والمتن جانب الصلب . الأزل : القليل اللحم. يريد أنه يشبه الأسد فى قوة هذين العضوين فكأن الأسد حين يراهما فى الممدوح يرى عضوى نفسه .

والعارُ مَضَّاضٌ وليس بخائفٍ من حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلا
خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ فاسْتَنْصَرَ التسليمَ والتَّجْديلا[1]

وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذى يشهد به الحق وتتقيه العصبية أذكره، وهو أن معانى أبى الطيب أكثر عدداً وأسدّ مقصداً ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشىء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله :

أَمُعَفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصارمَ المصقولا

ثم إنه تفنن فى ذكر الأسد ، فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك أحسن مخرج ، وأبرزه فى أشرف معنى . وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ماأشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك، فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكر بشر فى أبياته الرائية لعلمه أن بشرًا قد ملك رقاب تلك المعانى، واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها . ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيرًا كثيرًا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبوالطيب عن سلوك هذه الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزاً اهـ .

ونعلم أنه يشير برائية بشر إلى قصيدة بشر بن عوانة المشهور التى أوّلها :

أفاطمُ لو شَهِدْتِ ببَطْنِ خَبْتٍ وقد لاقى الهِزَبْرُ أخاكِ بِشْرَا

وهى مشهورة فنكتفى بالإشارة إليها .

---

(١) الاستنصار : طلب النصرة . التجديل : الرمى على الجدالة (الأرض) . يقول : لم تساعده قوته على مكافحتك فطلب النصرة عليك بأن استسلم لك، وهو تهكم

هذه صورة ولعلها ضئيلة لما كان عند العرب من ميل إلى النقد ونفاذ فيه ، وفى ذلك أبلغ ردّ على من اتهمهم بالجهل فى هذا الباب ، وعدم التعرّض لهذا الفنّ فيما تناولوه من فنونهم .

الرواية والرواة

تنقسم الرواية فى تاريخ الأدب العربى قسمين : رواية الحديث ، ورواية الأدب من شعر ولغة وأخبار .

أما رواية الحديث فهى أهمّ القسمين ، وأحفلهما تاريخاً ، وأمدّهما زمناً ، وذلك أنها تعلقت بأصل من أصول الدين ، وهو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن أجل هذا عظم شأنها حتى صارت علماً أطلق عليه اسم « رواية الحديث » ، ثم « مصطلح الحديث » .

ومنشأ هذا العلم كان بعد موت رسول الله حين وقعت الأحداث ، فالتمسوا لها الحكم فى القرآن وكلام النبىّ . وقد احتاطوا أن يقع الكذب على رسول الله ، فكان أبو بكر لا يقبل خبرًا من أحد إلا إذا أشهد آخر على سماعه من رسول الله ، وكان عمر شديداً على المكثرين من الرواية ، كما كان عثمان وعائشة يتصفحان الأحاديث ويردان كثيرًا منها على أصحابها ، وكان علىّ إذا حدثه محدث استحلفه بالله فإن حلف له صدقه. وعرف كثير من الصحابة بقلة الرواية: كأبى بكر ، والزبير ، وأبى عبيدة ، والعباس ، بل كان بعضهم لايكاد يروى شيئاً كسعيد بن زيد . أما أكثر الصحابة رواية فهو أبو هريرة صحب رسول الله ثلاث سنين وعاش بعده نحوا من خمسين سنة وكثيرا ما أنكر عليه عمر وعثمان وعلىّ وعائشة . ويذكرون فى سبب كثرة حديثه أنه كان لفقره يلازم رسول الله للخدمة لا يشتغل عنه بالصفق فى الأسواق ، ولا السفر فى التجارة ولا الانقطاع فى الضياع .

وظل الحديث لا يكتب لخوف اختلاطه بالقرآن ، والناس حديثو عهد بهما ثم لمكان الثقة بالرواية والحرص على كلام رسول الله ، وبقى هذا حتى كانت خلافة عمر ابن عبد العزيز ، وقد كثرت الأحاديث ، واجترأ الناس بالكذب على رسول الله ومال القصاص إلى التهويل ، والزنادقة إلى الدس للإسلام ، وقلّ من أهل الحديث من يوثق بأيمانهم ، فاستخار عمر ربه أربعين يوما حتى خار له فى تدوين الحديث فكان ذلك على يد الزهرى أو ابن صبيح أو ابن جريج .

ولكثرة من تقولوا على رسول الله من متعمد ومغتر احتاج أهل الحديث إلى تمحيص الرواية ، فاشترطوا الإسناد وأوجبوا فى الراوى شروطاً من العدالة والضبط وأن يكون معروف الذات ، فنشأ عن ذلك علم الرواية وكان من ألقاب الرواة ! ثقة أو ضابط ، خير أو مأمون ، شيخ ، صالح الحديث ـ ويقولون فى التجريح : لين الحديث ، متروك الحديث ، وضاع ، دجال .

وكان من رغبتهم فى التحرى أن شاعت الرحلة من طلاب الحديث إلى جميع الأمصار لأن الصحابة والتابعين كانوا قد انساحوا فى البلاد فكان منهم بالحجاز والكوفة والبصرة والشام ومصر ، ومن هنا أيضاً تعددت طرق الرواية .

فكان النظر فى هذه الأسانيد ومعرفة رجالها وطريقة أخذ بعضهم عن بعض هو ما سمى بعد بعلم « مصطلح الحديث » .

وقد انصرفت همة العلماء إلى تحصيل حديث رسول الله بأسانيده المختلفة كما درسوا رجال السند دراسة حفظوا فيها أسماءهم وتبينوا صفاتهم وتصفحوا أخلاقهم ، وكان من ذلك علم واسع وكان أغرب ما فيه أن ترى المحدث يحفظ الحديث بعدة روايات تختلف فى أشخاص الرواة وفى نص الحديث بفروق دقيقة يؤدونها أتم أداء . وكان منهم العجب العجاب فى هذا الباب . وإنما مرجعه إلى أمرين : أولهما امتازت به الأمة العربية من قوة ملكة الحفظ منذ جاهليتها ، وهى ميزة خصها بها الله وليست عامة

فى كل البدو . وثانيهما ما كان من رغبة أكيدة انطوت عليها قلوب أهل الورع من هذه الأمة وأعان عليها نيات صالحة امتاز بها أوائل الخلفاء من دولة بنى العباس . فكان من مجموع ذلك للحديث: رواج، وجمع ، وضبط، وتحصيل،وخدمة من كل النواحى تتقاصر عنها همم كثير من الأمم فى أعز شىء لديها . وكان من أمثلة الضبط للأحاديث وحفظ أسانيدها ومتونها ما جرى من امتحان الإمام البخارى فى بغداد وقد مر بك حديث ذلك .

وقبله كان ابن عباس رضى الله عنه ، وقد كان صدره خزانة العرب ومرجعهم فى التفسير والحديث ، ثم الشعبى الذى كان يقول ما كتبت سواداً فى بياض ولا حدثنى أحد بحديث قط إلا حفظته وهو الذى أدرك خمسمائة من الصحابة وسمع منهم .

وكان الإمام أحمد بن حنبل بعد ذلك يحفظ ألف ألف حديث وأبو زرعة سبعمائة ألف وهو الذى سئل عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مائتى ألف حديث هل يحنث ؟ فأجاب : لا .

وقد مر بك من الكلام فى علم الحديث ما يعد تتميما لهذا البحث .

رواية الأدب

من المعروف أن العرب منذ جاهليتها كانت تروى أشعارها وأخبارها وكان لكل شاعر منهم راوية ينقل للناس شعره ويذيعه فيهم . ولما جاء الإسلام واحتاج العرب إلى رواية أخبار الجاهلية ، وأشعار شعرائها وفعلوا ذلك لذكرى أيامهم السالفة وللمباهاة بأعمال آبائهم الأمجاد ، ولاحتياجهم إلى الشعر فى تفهم القرآن وحديث رسول الله ، نشأت للأدب رواية ولكنها تختلف عن رواية الحديث بأنها لم يشترط فيها الإسناد والعنعنة إذ لم يكن الأدب فى أول أمره مجالا للكذب لغلبة الورع على الناس ، ولأن

مرجع اللغة إلى القياس وهو لا يختلف . فمن أجل ذلك لم يكن لرواية الأدب إسناد . ثم لما جرى على الأدب فيما بعد، مادعا إلى الاحتياط فيه حدث فيه الإسناد وذلك حين ضعفت اللغة فى عرب الأمصار فاحتاج الناس إلى نقلها عن عرب البادية ، ثم حين فسدت الذمم فصار التقوّل سهلاً على مستطيعه، فكثر الاصطناع فى الشعر ونحله فنشأت إذ ذاك أول طبقة من رواة الأدب أمثال أبى عمرو بن العلاء وحماد ، لذلك ترى سند الرواية فى الأدب ينقطع إليهم و إلى أهل طبقتهم ولا ترى خبراً أو شعراً متصل السند إلى جاهلى إلا ما كان من حديث رؤبة بن العجاج الراجز ، فقد سئل عن معنى قول امرئ القيس .

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً كَرَّكَ لأْمَيْنِ على نَابِلِ[1]

فقال حدثنى أبى عن أبيه قال حدثتنى عمتى وكانت من بنى دارم قالت : سألت امرأ القيس وهو يشرب طِلًى مع علقمة بن عَبَدة مامعنى قولك : كرك لأمين على نابل ؟ قال: مررت بنابل وصاحبه يناوله فما رأيت أسرع من ذلك . وحدث حماد قال كان للكميت المتوفى سنة ١٢٦ هـ جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس فيها فإذا شك فى شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه ، قال حماد فمن هنا كان علمه .

وكثرت الرحلة إلى البادية لنقل اللغة ورواية الشعر ونوادر العرب وأقدم من رحل إليها يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، وأبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ وأبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٥ هـ والأصمعىّ المتوفى سنة ٢١٧ هـ .

ثم جاء بعدهم طبقة النَّضْر بن شُمَيْل والكسائى وهو الذى ذكروا أنه أنفد خمس عشرة قنينة من الحبر فى الكتابة عن العرب غير ماحفظ .

---

(١) السلكى (بالضم) : الطعنة المستقيمة . المخلوجة : الطعنة ذات اليمين وذات الشمال . الريش اللؤام هو الملتئم الذى يجعل فيه بطن ريشة إلى ظهر الأخرى . فاللأمان هنا ريشتان ملتئمتان . شبه سرعة الطعن بدفع الريش إلى البنتال ، وإنما يحتاج إليها لأن الغراء الذى يلزق به الريش إذا برد لم يلزق فيستعمل حاراً .

وما زال العلماء يرحلون إلى البادية فى طلب اللغة حتى فسدت لغتها ولانت جلود أهلها .

وكما رحل أهل الأمصار إلى البادية ، كذلك كان يقدم منها أعراب فيتلقاهم الرواة ويتحملون عنهم وقد يأنس بعض هؤلاء بالحضر فيقيمون به طويلا فيكون مجالسهم حلقة علم يقصد إليها كل راغب فى معرفة اللغة ورواية الخبر والشعر ، كذلك كان يتحاكم إليهم العلماء حين يقع بينهم الخلاف ، وكانوا يستدعون إلى قصور الخلفاء والأمراء من أجل ذلك .

و بعض هؤلاء الأعراب لما علم ما تجره الرواية على أصحابها من خير وثروة أبوا إلا أن يبيعوا علمهم للناس فكانت بدويتهم مورد كسب و باب غنى . وقد عرف من البدو الذين أقاموا فى الحضر .

١ — ثَوْر بن زيد ، كان يفد على آل سليمان بن على ، وعنه أخذ ابن المقفع فصاحته
٢ — أبو مِسْحَل ، حضر إلى بغداد وافداً على الحسن بن سهل .
٣ — أبو ضَمْضَم الكلابى « « « « « « «
٤ — أبو العَمَيْثَل ، كان مؤدب ولد عبد الله بن طاهر ، وكان عبد الله لا يسمع من شاعر إلا بعد أن يجيز ذلك أبو العميثل .
٥ — أبو مِشْعَل العُقَيْلى ، وفد على الرّشيد ، واتصل بالبرامكة .
٦ — أبو مَهْدِيّة، كان صاحب غريب ، وروى عنه البصريون كثيراً .
٧ — القَفْعسىّ ، راوية بنى أسد وصاحب مآثرها أدرك المنصور ، وقد أخذ عنه العلماء مآثر بنى أسد وغير هؤلاء كثيرون لا يحصيهم عد .

وسنكتفى من تراجم رواة الأدب بترجمة الأصمعى فإنه يمثلهم أصدق تمثيل .

حياة الأصمعى

اسمه عبد الملك بن قُريب . واسم قريب عاصم . وسمى الأصمعى نسبة إلى جده أصمع . وهو من قيس نشأ فى البصرة وقدم بغداد فى أيام الرشيد ولما تولى المأمون كان الأصمعى قد عاد إلى البصرة فاستقدمه فاعتذر بالضعف والشيخوخة . فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل و يسيرها إليه فيجيب عنها .

وقد امتاز الأصمعى بالحافظة النادرة، وحياته كلها برهان صادق على قوة هذه الحافظة فإنه ما سئل عن شىء إلا كان عارفا به راويا للشعر فيه . ولكنا نذكر حادثة واحدة لعلها أدل دليل على تمام هذه الملكة فيه .

ذكروا أن الحسن بن سهل لما قدم العراق أحب أن يجمع بين جماعة من أهل الأدب فأحضر أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنى والأصمعى ونصر بن على الجهضمى فابتدأ الحسن فنظر فى رقاع كانت بين يديه للناس فوقع عليها وكانت خمسين ، ثم أمر فرفعت إلى الخازن ثم أفاضوا فى ذكر الحفظ وذكروا جماعة من السلف اشتهروا به فالتفت أبو عبيدة وقال ما الغرض أيها الأمير من ذكر من مضى وهاهنا من يقول إنه ما قرأ كتابا قط فاحتاج إلى أن يعود إليه ولا دخل قلبه شىء وخرج منه ؟ فالتفت الأصمعى وقال إنما يريدنى بهذا القول ، والأمر فى ذلك على ما حكى وأنا أقرب إليه . قد نظر الأمير فى خمسين رقعة وأنا أعيد ما فيها وما وقع به عليها رقعة رقعة . فأحضرت الرقاع فقال الأصمعى سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا و وقع له بكذا ثم مر فى نيف وأربعين رقعة ، فالتفت إليه نصر الجهضمى وقال : أيها الرجل أبق على نفسك من العين ، فكف الأصمعى .

وكان الأصمعى يقول أحفظ عشرة آلاف أرجوزة ، وكان الرشيد يسميه بشيطان الشعر .

كذلك امتاز الأصمعى بطلاوة الحديث وحلاة التعبير ، وهذا هو الذى جعله حبيباً إلى الخلفاء والأمراء حائزاً لصلاتهم ، ولقد قال عنه الإمام الشافعى : ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعى ، وسئل أبو نواس عنه وعن أبى عبيدة فقال : أما أبو عبيدة ، فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعى فبلبل يطربهم بنغماته .

كذلك كان صادقاً فى حديثه مأمون الرواية لمكانه من خشية الله وتقاه ، وقد كان الإمام الشافعى يقول : ما رأيت بهذا العسكر أصدق من الأصمعى ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يثنى عليه ويقول : إنه ثقة .

وكان الأصمعى : صاحب نحو ولغة ، وغريب وأخبار وملح ؛ لذلك فضل خلفاً فى علم الشعر لامتيازه بمعرفة النحو ، والشعر يحتاج إلى ذلك ، وقد شارك الأصمعى فى علومه كثيرون مثل أبى زيد الأنصارى ، فقد كان صاحب لغة وغريب ونحو ، بل كان فى النحو أكثر من الأصمعى ؛ ومثل أبى عبيدة فقد كان أعلم من أبى زيد والأصمعى بالأنساب والأيام ، وكان للأصمعى فى اللغة يدٌ غراء لا يعرف مثله فيها .

ولكنه مع كل هذا الفضل كان مقصرا فى علم العروض ، شرع يتعلمه عن الخليل فلم يتقدم فيه ، فأراد الخليل أن يصرفه عنه ، فقال له يوما : يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر ؟ :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

فعلم الأصمعى أن الخليل تأذى ببعده عن علم العروض ، فلم يعاوده فيه .

وقد أخذ الأصمعى عن عبد الله بن عون ، وشعبة بن الحجاج ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن دريد ، والخليل بن أحمد ، وأخذ عن الأصمعى ابن أخيه عبد الرحمن ابن عبد الله ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو حاتم السجستانى . وأبو الفضل الرياشى وأحمد بن محمد اليزيدى ، ونصر بن على الجهضمى وغيرهم .

نوادر الأصمعى

هى كثيرة امتلأت بها الكتب ، واستفاضت الرواية، حتى كان الأصمعى أشهر من عرف بذلك بين متعلم وأمىّ ، لا يجهل اسمه أحد ، ولا ينفك الناس يروون عنه ماله ، وما ليس له ، وما ذلك إلا من كثرة نوادره ، وشيوع الرواية عنه ، ومن هذه النوادر مامرّ بك فى أبواب متفرقة ، وننقل لك هنا مالم يسبق وروده .

قال له الرشيد يوما:ياعبد الملك، أنا ضجر ، وأحب أن أسمع حديثاً أتفرج به. فحدثنى بشى ، قال فقلت : لأى الحديث يقصد أمير المؤمنين ؟ فقال : لما شاهدت وسمعت من أعاجيب الناس ، وطرائف أخبارهم ، فقلت يا أمير المؤمنين : كان صاحب لنا من البدو كنت أغشاه ، وأتحدث إليه ، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة أصح الناس ذهناً ، وأجودهم أكلا، وأقواهم بدنا، فغبرت عنه زمانا ، ثم قصدته فوجدته ناحل البدن، كاسف البال متغير الحال ، فقلت له : ما شأنك ، أأصابتك مصيبة ؟ قال : لا . قلت : فمرض عراك ؟ قال : لا . قلت : فما سبب هذا الذى أراه بك ؟ فقال : قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد لاثت رأسها ، وطلت بالورس ما بين قرنها إلى قدمها ، وعليها قميص ، وقناع مصبوغان ، وفى عنقها طبل توقع عليه وتنشد :

مَحَاسِنُهَا سِهَامٌ للمنايا مُرَيَّشَةٌ بأنواع الخُطُوبِ
ترى رَيْبَ الزمانِ لهُنَّ سَهْمٌ يصيب بنصله مُهَجَ القلوب

فأجبتها :

قِفِى شَفَتِى فى موضع الطبل ترتعى كما قد أَبَحْتِ الطبلَ فى جيدك الحَسَنْ
هَبِينِىَ عُوداً أجوفا تحت سِنَّةٍ تمتع فيما بين نَحْرِكِ والذَّقَنْ

فلما سمعت الشعر منى نزعت الطبل ، ورمت به فى وجهى ، و بادرت إلى الخباء، فلم

أزل واقفاً حتى حميت الشمس على مفرق رأسى لاتخرج ، ولا ترجع إلىّ جوابا . فقلت : إنا لله ، أنا والله معها كما قال الشاعر :

فوالله يا سلمى لطال إقامتى   على غير شىء ياسُلَيْمَى أراقبه

ثم انصرفت سخين العين قرح القلب ، فهذا الذى ترى من التغير من عشق لها . قال : فضحك الرشيد حتى استلقى ! وقال : ويحك ياعبد الملك ابن ست وتسعين سنة يعشق ؟ قلت قد كان هذا يا أمير المؤمنين .

حكى أبو العباس المبرد قال : دخل الأصمعى على الرشيد بعد غيبة كانت منه ، فقال له يا أصمعى : كيف كنت بعدنا ؟ فقال : مالاقتنى أرض بعدك ، فتبسم الرشيد ، فلما خرج الناس قال : يا أصمعى ، ما معنى قولك ما لاقتنى أرض ؟ فقال : ما استقرّت بى أرض ، فقال : هذا حسن ، ولكن لا ينبغى أن تكلمنى بين يدى الناس إلا بما أفهمه ، فإذا خلوت فعلمنى ؛ فإنه يقبح بالسلطان ألا يكون عالما ، لأنه لا يخلو . إما أن أسكت أو أجيب ، فإذا سكت يعلم الناس أنى لا أعلم إذا لم أجب ، وإذا أجبت بغير الجواب يعلم من جوابى أنى لم أفهم ما قلت . . قال الأصمعى فعلمنى أكثر مما علمته .

وحكى أيضاً قال: مازح الرشيد أم جعفر فقال لها: كيف أصبحت يا أم نهر؟ فاغتمت لذلك ولم تفهم معناه ، فأنفذت إلى الأصمعى تسأله ، فقال : الجعفر النهر الصغير ، وإنما ذهب إلى هذا فطابت نفسها .

وقال الأصمعى : دخلت أنا وأبو عبيدة على الفضل بن الربيع ، فقال : يا أصمعى كم كتابك فى الخيل ؟ فقلت : جلد واحد ، قال: فسأل أبا عبيدة ، فقال : خمسون جلداً فأمر بإحضار الكتابين وإحضار فرس ، فقال لأبى عبيدة : اقرأ كتابك حرفاً حرفاً وضع يدك على موضع موضع من الفرس ، فقال أبو عبيدة : لست بيطاراً وإنما هذا شىء أخذته وسمعته من العرب فقال لى قم يا أصمعى فضع يدك على موضع موضع من الفرس فوثبت فأخذت بأذنى الفرس ووضعت يدى على ناصيته فجعلت أقول هذا اسمه كذا حتى بلغت حافره فأمر لى بالفرس فكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبت الفرس وأتيته .

آثار الأصمعى

ذكر ابن النديم فى الفهرست نيفاً وأربعين كتابا ذهب معظمها وقد بقى منها اثنا عشر ، وهى :

١ — الأصمعيات ، وهى مجموع مختارات من الشعر طبعت فى لبسك سنة ١٩٠٢ م .

٢ — رجز العجاج وهو مخطوط بدار الكتب الملكية بمصر .

٣ — كتاب أسماء الوحوش وهو مطبوع .

٤ — كتاب الإبل مطبوع فى بيروت .

٥ — كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع مع سابقه فى مجموعة واحدة .

٦ — كتاب الخيل ، وهو مطبوع بفينا .

٧ — كتاب الشاء ، مطبوع سنة ١٨٩٦ م .

٨ — كتاب الدارات مطبوع ببيروت فى المجموعة السابقة .

٩ — كتاب الفرق مطبوع بفينا .

١٠ — كتاب النبات والشجر مطبوع ببيروت فى المجموعة السابقة .

١١ — كتاب النخل والكرم مطبوع ببيروت سنة ١٩٠٢ م .

١٢ — كتاب الغريب مخطوط فى مكتبة الاسكوريال .

⁂

وكانت وفاة الأصمعى سنة ٢١٣ هـ ، وقيل سنة ٢١٤ هـ ، وقيل ٢١٧ هـ ، ولما مات رثاه أبو العتاهية بقوله :

أسفت لفقد الأصمعى لقد مضى   حميداً له فى كل صالحة سهم

تقضت بشاشات المجالس بعده   وودعنا إذ ودع الأنس والعلم

وقد كان نجم العلم فينا حياته   فلما انقضت أيامـــه أفل النجم

الغناء والمغنون

عرفت فى دراسة العصر الأموى كيف انتقل الغناء عند العرب من السذاجة إلى الإتقان بسبب الفرس الذين قدموا مكة أيام الزبير لتجديد بنائها ، وكان ما سمعه العرب قد نال إعجابهم فدفع مِسْجَحاً مولى عبد الله بن جعفر إلى تعريبه إلى غير ذلك من حديث طويل .

فدل ذلك على ما عند العرب من ميل إلى الموسيقى وما فى نفوسهم من خفة إلى السرور وارتياح إلى التوقيع ، وإن كان ذلك طبيعة فى جميع الناس ولكنهم فيها يتفاوتون .

وما لبثوا أن صار الحجاز بقريتيه العظيمتين مكة والمدينة مهرجاناً دائم الحركة ، بل دوحا لا تفتر بلابله عن الشدو والترجيع . وقد بلغ من كثرة المغنين به أن كانوا يحجون قوافل فى أبهى زينة وأعظم مظهر . لقد كان هذا حال الغناء مع قرب العرب من البداوة و بعدهم عن مستمد هذه الثروة الغنائية، وهو العراق بلاد الفرس القديمة المدنية المعروفة بعظيم عنايتها بالموسيقى ، فقد كان ملوكها يحتفلون بها و يعقدون لها المجالس و يثيبون المجيدين للغناء . وهذا هو شأن كل أمة أصابت من المدينة حظا كحظ الفرس فى إبان دولتهم ، فما بالك بالعرب وقد استقر ملكهم بالعراق واختاروا بغداد قاعدة لهم ومظهراً لمدنيتهم ، والزمن قد ضمن لهم التحالل من كثير من القيود ، فبعد أن كان الناس فى الغناء فريقين : محللين، ومحرمين ، وراضين، ومنكرين ، وكان خلفاء الأمويين كذلك فيه بين مثبطين ومشجعين ومستهترين ومناوئين ، نجد أهل بغداد جميعاً يقبلون عليه والخلفاء لا يختلف رأيهم فى تشجيعه والعناية به ، كان ذلك والمورد قريب والمدد ميسور والقرائح قد أطلقها من عقالها ما فى المدنية من تجديد ونشاط واحتثاث على العمل وعظيم مكافأة عليه . وعلى نسبة تقدم العرب فى المدنية ازدادت

عنايتهم بالغناء وحسن أثرهم فيه . ولقد ذكروا أنهم قبل العباسيين لم يكونوا يعلمونه إلا الصفر والسود من الجوارى حتى علّمه البرامكة للجوارى البيض الحسان ليزيد جمالهن فى الغناء تأثيراً فى النفوس .

عناية الخلفاء بالغناء

على قدر عنايتهم بالشعر كانت عنايتهم بالغناء ، فقد أكرموا وفادة المغنين وأجزلوا لهم العطاء ، وعقدوا المجالس لسماعهم ، والمفاضلة بينهم ، واتخذوهم ندماءهم وسمّارهم ، وما ذلك بغريب ، فإن مجلس السمر لايحلو بغير غناء ، ولا يطيب بلا توقيع ، وإذا كان فى سماع الشعر ارتياح ولذة ، فإنه أقرب إلى الجد ، وأدخل فى باب الوقار ، فأما الذى لا تتم لذة إلا به ، ولا يطيب مجلس إلا على أصوات أوتاره ، ونغمات شداته فذلك هو الغناء .

لذلك رأينا الخلفاء يتخذون من المغنين ندماءهم الذين لايفارقونهم ، وإذا فارقوهم فعلى موعد قريب حتى إن المغنى إذا عظمت منزلته ، واختص به الخليفة ، ترى حياته قد صارت وقفاً على رغبات الخليفة يستدعيه متى شاء . ولقد كان المغنون مع وفير ما ينالون من عطاء يملون هذا الإلحاح عليهم من الخلفاء ، فيطلبون أيامًا يضمنون فيها حريتهم ، ويتصرفون فيها فى شؤونهم . ولقد تمنى إبراهيم الموصلى على الرشيد أن يهب له يومًا من أيام الأسبوع ينفرد فيه بجواريه وإخوانه فلا يفاجئه الخليفة بطلب فى ذلك اليوم ، فمنحه الرشيد يوم السبت ، وقال هو يوم أستثقله فَالْهَ فيه بما شئت .

ولقد بلغ من غرام الخلفاء بالغناء والمغنين أن ساروا إليهم ، وقصدوهم فى منازلهم ، وذلك تكريم ما سمعنا بمثله فى طبقة أخرى غير هؤلاء .

ذكروا أن أحمد بن المرزبان قال : حدثنى بعض كتاب السلطان أن هارون

الرشيد هبّ ليلة من نومه فدعا بحمار كان عنده يركبه فى القصر ، فركبه وخرج فى دراعة ومشى متلثما بعمامة متلحفاً بإزار ، ومشى بين يديه أربعمائة من الخدم ، وكان مسرور الفرغانى جريئاً عليه لمكانة كانت له عنده ، فلما خرج من باب القصر قال له : أين تريد يا أمير المؤمنين الساعة ؟ قال : أردت منزل إبراهيم الموصلى . قال مسرور . فمضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم ، فخرج فتلقاه ، وقبل حافر حماره ، وقال يا أمير المؤمنين أفى مثل هذه الساعة تظهر ؟ قال نعم شوق طرقك بى ، ثم نزل فجلس فى طرف الإيوان ثم أكل من طعام إبراهيم ، وسمع جواريه حتى طرب وانصرف .

ولقد بلغ من غرامهم أيضاً أن أقبلوا على الغناء يحاولونه بأنفسهم ، ويتعلمه أولادهم حتى لقد عقد أبو الفرج الأصفهانى فصلا فى كتابه « الأغانى فى بيان من غنى من الخلفاء وأبنائهم » ، ونسبت له أصوات . قال فيه : « فأولهم وأتقنهم صنعة وأشهرهم ذكرا فى الغناء إبراهيم بن المهدى ، فإنه كان يحقق فيه تحقيقاً شديداً ، ويبتذل نفسه ، ولا يستتر منه ، ولا يحاشى أحداً ، وكان فى أول أمره لا يفعل ذلك إلا من وراء ستار وعلى حال تصون وترفع إلا أن يدعوه إليه الرشيد فى خلوة والأمين بعده ، فلما أمنه المأمون تهتك بالغناء وشربِ النبيذ بحضرته ، والخروج من عنده ثملا ومع المغنين خوفا منه وإظهاراً له أنه قد خلع ربقة الخلافة من عنقه ، وهتك ستره فيها حتى لا يصلح لها ، وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات ، وأطبعهم فى الغناء وأحسنهم صوتاً . وكذلك أخته علية بنت المهدى ، وأبو عيسى بن الرشيد ، وعبد الله بن موسى الهادى ، وعبد الله بن محمد الأمين ، وأبو عيسى بن المتوكل ، وعبد الله بن المعتز ، ومن الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتلحين وأكثرهم فى ذلك : الواثق ، والمنتصر ، والمعتز ، والمعتمد ، والمعتضد » .

ولقد ذكر صاحب الأغانى فى موضع آخر أن الواثق بالله صنع مائة صوت ما فيها صوت ساقط ، وأنه كان من صنعته :

هلْ تَعْلَمِينَ وراءَ الحبِّ منزلةً ... تُدْنِي إليكِ فإنَّ الحبَّ أقْصَانِي

هذا كتابُ فتًى طالتْ بَلِيَّتهُ ... يقول يا مُشْتَكَى بَثِّي وأَحْزَانِي

وصنعته فى قول أبى العتاهية :

أَضحتْ قبورُهُمُ من بَعْدِ عِزَّتِهِمْ ... تَسْفِي عليها الصَّبَا والحَرْجَفُ الشَّمَلُ

لا يَدْفَعُونَ هَوَامًّا عن وُجُوهِهِمُ ... كأنَّهُمْ خَشَبٌ بالقَاعِ مُنْجَدِلُ

كما ذكروا من صنعة المعتمد ما أحدثه فى قول الفرزدق :

لَيْسَ الشَّفيع الذى يأتيك مؤتزرا ... مثلَ الشفيعِ الذى يأتيك عُرْيانَا

ومن صنعة المعتضد ما أحدثه فى قول دريد بن الصمة :

ياليتنى فيها جَذَعْ ... أَخُبُّ فيها وأَضَعْ

ذلك هو شأن خلفاء هذه الدولة وأبناء خلفائها: غرام بالغناء ونشأة فيه. اللهم إلا ما كان من أمر المنصور فإنه كان فى شغل شاغل بتدعيم أسس الدولة فلم يكن منه إقبال على نوع من أنواع الملاهى حتى لقد كان يعير آل الزبير بحبهم للغناء ، والمأمون مثلاً امتنع عن سماع الغناء ، وأمر بمنعه حين عاد من خراسان ، فبقى عشرين شهراً على ذلك حتى صفت له الدولة ، واتسقت الأمور فنزل هذا التشدد ، وصار لا يكفيه أن يسمر عنده إسحاق الموصلى ، وإبراهيم بن المهدى حتى يدعوهما إلى الصبوح ، ويقول لهما بكِّرا على قد اشتقنا إلى الصبوح ، وأمر إسحاق أن يعمل له لحنا ، وكذلك أمر إبراهيم فغدوَا عليه ، وقد سرق إسحق لحن إبراهيم فى قصة عجيبة طويلة .

ولم يمنع الغناء منعا باتا إلا المهتدى العباسى ، فإنه كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ ، وكانت الملاهى قد انتشرت فى الدولة أمر بمنع الغناء فظل الحال على ذلك مدة خلافته ثم عاد الأمر إلى ما كان عليه قبل .

قديم الغناء وحديثه

فى أوائل عهد الدولة العباسية حين نفخت الدولة من روح الغناء ، واتجهت إليه الهمم ، نشأ فيه مذهبان : قديم ، وحديث ، وكان ينصر القديم : إسحاق الموصلى ، ومخارق وعلويه ، وعريب ، وبذل ، وسليم بن سلام ، ومحمد بن الرف ، وزبير بن دحمان ، وأحمد بن يحيى ، ومحمد بن حمزة ، وهؤلاء هم الآخذون بمحاسن الغناء ، وطرائق الصناعة لا يتحللون من قيودها ، ولا يستبيحون التغيير فيها . أما المقصرون عن أداء الغناء القديم ، المغيرون له المتعصبون للجديد فهم : إبراهيم بن المهدى ، ومن انضم إليه من إسماعيل بن جامع ، وفليح بن العوراء ، ويحيى المكى ، وعمرو بن نابه ، وشارية ، ونزيق ، وبنو حمدون ، وحسين بن محرز ، وغيرهم .

وقد كان السبب فى هذا الانقسام والنزاع أن إبراهيم بن المهدى غنى بلحن قديم فأضاع صناعته فرد عليه إسحاق وعاب عليه تغييره فقال: أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا على ذلك وانضم إليه كل من رضى طريقته وربما كان هذا التحيز إلى إبراهيم غير خالص للفن ، إذ كانوا يتقربون بكفالته إلى الرشيد فكان قوم إبراهيم أكثر عدداً قبل وزارة جعفر البرمكى ، فلما ولى وجهر البرامكة بتفضيل إسحاق رجع إلى غرضه كثير من المجيدين . ولم يزل المغنون فى أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالقديم ويحملونه كما يسمعونه فلم يكن من مفسد له إلا جماعة أولاد العباسيين مثل : إبراهيم ، وأخيه يعقوب ، وأختهما علية ، وعبد الله بن الهادى وغيرهم ممن يترفع عن أن يقيد غناءه بالمسموع والمحفوظ من الأصوات وإن كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة .

ولكن هذا الانقسام لم يستمر طويلا إلا ريثما ثبتت فى الألحان قدم القوم

ورسخت ملكاتهم فى النغم فكان لهم فيه طابع خاص اجتمع فيه محاسن الماضى والحاضر واختلط فيه القديم بالحديث واستمر للغناء شأن نحو قرنين من الزمان من ابتداء عمر هذه الدولة ثم ابتدأ يضمحل تبعاً لاضمحلال أمر الدولة حتى يقول أبو الفرج (على أن الجميع من الصحيح والمغير قد انقضى فى عصرنا هذا) .

وحين كان الغناء منقسما إلى جديد وقديم كان التعصب لأحدهما على الآخر بالغاً أشده ، وطالما عقدت لذلك المناظرات فى مجالس الخلفاء يمتحن فيها المغنون كما يمتحن العلماء . ومن ذلك مارووا أن الرشيد قال يومًا لجعفر بن يحيى البرمكى : قد طال سماعنا هذه الفئة على اختلاط الأمر فيها فهلمّ أقاسمك إياها وأخايرك فاقتسما المغنين على أن يجعلا بإزاء كل رجل نظيره ، وكان ابن جامع فى حيز الرشيد ، وإبراهيم الموصلى فى حيز جعفر وحضر الندماء لمحنة المغنين وأمر الرشيد بن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان وطرب الرشيد غاية الطرب فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم هات يأبراهيم هذا الصوت فغنه فقال لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه وظهر الانكسار فيه فقال الرشيد لجعفر هذا واحد ثم قال لابن جامع غنّ يأسماعيل فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول وأرضى فى كل حال . فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم هاته يأبراهيم فقال ولا أعرف هذا أيضاً ، فقال هذا ثان وانتهى المجلس بانكسار إبراهيم وإجازة ابن جامع والخلع عليه .

تعليم الجوارى

اقتضت المدنية غنى واسعاً يتمتع به الخلفاء وأبناؤهم والو[illegible] وجميع رجال الدولة وكل هؤلاء يحرصون على لذتهم ويحبون إظهار نعمة الله عليهم [illegible]ها فى أيامهم إلا اتخاذ السرارى والقيان .

وكانت القيان تعد لصناعة الغناء إعداداً تاما ، فكنّ يتعلمن القراءة والكتابة ثم يروين الشعر مع ضبطه وفهم معناه وكل ذلك يحتاج إلى مقدمات من النحو والصرف وغيرهما من العلوم .

وكانت الرغبة فى الجوارى المهذبات المتعلمات المجيدات للغناء قد جعلت لهن سوقا نافقة ، وجعلت كل من فى يده واحدة منهن يحرص على تثقيفها حتى يغلى بها الثمن ، فقد كانت الجارية الغفل تباع بمائتى دينار ، فإذا تثقفت فربما بيعت بعشرة آلاف .

ومن أجل ذلك رأينا إبراهيم الموصلى يتجر بهذه الجوارى ، فيشتريهن غفلا ، ويقوم بتثقيفهن وتعليمهن الغناء حتى يربح فرق الثمن ، وهوعظيم جدا ، كذلك كان يفعل يزيد بن حوراء ، وقد عقد هو والموصلى شركة يتقاسمان ربحها .

وقد ذكروا أن الرّشيد ابتاع جارية بمائة ألف دينار ، وأخرى اشتراها من إبراهيم الموصلى بستة وثلاثين ألفا ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادى أن يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى ، فأمر فأوقروا له قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك أكثر من ألف ألف دينار !! وهذا غريب ، وإن كان من الأمين ليس غريباً .

وعلى قدر اتساع الغنى ، وكثرة الوُجد كانت الجوارى تكثر عند الرجل حتى لقد كان عند الرشيد منهن ألفان فيهن ثلثمائة من المغنيات الضاربات على الآلات ، وقد زار البرامكة فى دارهم ، فأخرجوا القيان إلى البستان ، فاصطففن صفين أمامه مثل العساكر، وغنين له وضربن بالعيدان ، ونقرن على الدفوف حتى طلع إلى مقاصير القصر .

فكل هؤلاء وأولئك يحتجن إلى تعليم وتثقيف مما يدلك على أن حركة تعليم البنت كانت قائمة على قد[illegible] لا تقل عن تعليم الذكور عناية واهتماماً ، لذلك نرى من أخبار هؤلاء [illegible]نّ أديبات بارعات حاضرات الجواب رقيقات الشعر ، وكانت دور[illegible] منتدى الشعراء يحضرون لتغذية خيالهم من جمال هؤلاء و[illegible] فرص[illegible] ويتعشقونهن ، ويروضون قرائحهم بالقول فيهن .

مبلغ إجادة الغناء أيام العباسيين

لا يدلك على جودة الغناء إلا ما ترى من أثره فى نفس رجل وقور ذى مهابة ومكانة سامية ، فإذا رأيت الغناء قد أذهله عن نفسه وأنساه مكانه ، فجعل يضرب الأرض برجليه ، أو يزحف إلى المغنى يفديه بنفسه ، أو يكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب ، فإذ ذاك تعلم موقع الغناء من التأثير ، وتدرك مقدار ما بلغ فيه المغنون من الإجادة ، وهكذا كان الحال فى غناء هذه الدولة فأخباره حافلة بما كان يأتيه أرزن الخلفاء وأعقلهم ، وما كان يزدهف له من ثباتهم ، ويذال من مصون وقارهم . ذلك وهم بمحضر الناس ، و بمرآى ومسمع منهم ، لأنهم كانوا قد أزاحوا الستور التى كان يضعها الأمويون بينهم و بين المغنين إذا جلسوا إليهم .

ولقد قالوا : إن إسحاق الموصلى وضع لحن التخنيث الذى لم يسبقه إليه أحد ، وصنع ألحاناً لا يقدر شبعان ممتلئ ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنم به إلا قعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم ، وقد بلغ من إجادة إسحاق أن كان الواثق يقول عنه ما غنانى إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد فى ملكى .

كما نعلم من خبر الفارابى : أنه دخل على سيف الدولة ، ومجلسه حافل بالقوم ، فأخرج من خريطة معه عيدانا وركبها ، ثم ضرب بها فأضحك جميع الحاضرين ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر ، وضرب بها فأبكاهم جميعاً ، [illegible] فكها وركبها ثالثة ، وضرب بها ، فنام الجميع حتى البواب ، فتركهم وانصرف .

ونحن ننقل إليك خبر مجلس من مجالس الرشيد ، و[illegible] الغناء ، وما صدر من الرشيد من أعمال وأقوال دالة على الاستحسان لما سمع .

وكان أول من غنى فى هذا المجلس إبراهيم الموصلى أبو إسحاق ، فغنى :

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لمَيَّةَ ناقتى ... فما زلت أَبْكى عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ

وأَسْقيهِ حتى كاد مِمَّا أَبُثُّه ... تُكَلِّمُنِى أَحْجَارُه ومَلاَعِبُه

فأجاد حتى كان كل من فى المجلس يجيبه ، ويردد الصوت معه لحسن غنائه ، نطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ، ثم أشار مسرور الخادم إلى إسماعيل بن جامع ، وهو من المتعصبين على إسحاق ، فغنى بأبيات من قول عمر بن أبى ربيعة :

كأن أَحْوَرَ من غِزْلاَنِ ذى بَقَرٍ ... أعارَها شَبَهَ العَيْنَيْنِ والجِيدَا

أجرى على موعد منها فتخلفنى ... فما أمل ولا توفى المواعيدا

كأننى حين أمسى لا تكلمنى ... ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب ممن يحب الخلاعة فى الأصوات ، فهو يميل إلى ظرف الغناء الكثير النغم والعمل ، كما يميل إلى ظرف المعاشرة والتفنن بخلاعة الملابس .

ثم أشار إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، فأتى بعود له هندى ، فضرب عليه نغمات صاح لها القوم أجمعون ، ثم غنى بلحن وضعه معبد فى أبيات لأبى صخر الهذلى ، وهى :

عجبتُ لسَعْيِ الدهر بينى وبينَها ... فلمَّا انْقَضَى ما بيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فيا حُبَّها زِدْنِى جَوًى كلَّ لَيْلَةٍ ... ويا سَلْوَةَ الأيامِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ

وإنِّى لتَعْرُونِى لذكراكِ هِزَّةٌ ... كما انْتَفَضَ العُصْفُورُ بَلَّلَه القَطْرُ

هَجَرْتُكِ حتى قِيلَ لا يعْرِفُ الهَوَى ... وزُرْتُكِ حتى قيل لَيْسَ لَهُ صَبْرُ

فطرب الرشيد وقال : زدنا يا أبا صفوان من غنائك (وأبو صفوان كنية يلقبه بها عند التحبب)

الأن

بعد قرنها

⁂

ثم غنى فى قول المنخل اليشكرى :

ولقد دَخَلْتُ على الفتا ة الخِدْرَ فى اليوم المَطِيرِ

فدفعتُها فتـــدافعَتْ مَشْيَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرِ

فلَثَمْتُهَا فتنفَّسَتْ كتنفُّسِ الظَّبْيِ البَهِيرِ

فأجاد فى الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد : وكاد يخرج من ثيابه طربا : « والله الغناء الذى يلين العريكة ، ويفسح فى الرأى والصدر ، ويحدث فى النفس طربا لا غناء هذا الرجل » .

ثم أومأ الرشيد إلى المغنيين بأن يحلوا صفوفهم ، ثم فرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم فى الصناعة ، فمن مصيب ألف دينار ، ومن مصيب خمسمائة ، ومن مصيب دون ذلك .

وهذه الإجادة مرجعها إلى سببين أولهما : هذه العطايا الكثيرة التى سالت على أهل هذه الصناعة من كل عالم بقدرهم من خليفة ، وأمير ، ووزير ، وسرى كريم ، وأخبارها مستفيضة لا نطيل بذكرها ، وثانى السببين : انفراد كل مغن بلحن من الألحان يفتن فيه ، ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يستبد بالحسن فيه كانفراد مَعْبَد بالثقيل ، وابن سُرَيْج بالرمل ، وحكم الوادى بالهزج ، وفليح بن أبى العوراء بلحن النواقيس ، والموصلى بالماخورى ، ويقال : إنه صنع هذا اللحن ، وكان يغنى به أول أمره فى المواخير .

وكان فيمن يتخلل المغنين من أجادوا فيما كانوا بسببه حتى استحقوا شهرة لا تقل عن شهرة المغنين كمنصور زَلْزَل الذى كان يضرب على عود من [illegible]دان الشبابيط صنعها معارضة لعيدان الفرس ، وكان إذا ضرب عليه يزلزل المجلس [illegible] نغمه ، وكبَرْصُوم الزامر ، وهومن أحسن الناس زمرا بناى كان إذا زمر فيه يحد[illegible]

يريده مع صحة المقاطع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمى ، وجعفر الطبال ، وكان يحسن التوقيع على الطبل .

التآليف فى الغناء

كثر التأليف فى الغناء منذ صار صناعة جليلة الشأن فى العصر العباسى وقد كان كما قلنا معتبرا من الآداب الرفيعة ، والفلسفة ولذلك نرى كل عالم جليل قد تناوله بالتأليف كما فعل الخليل بن أحمد فى إخراجه كتاب النغم ، وكما فعل إسحاق الموصلى فإنه عمل كتابا جمع فيه أغانيه التى غنى بها ، وعمل آخر جمع فيه أخبارا المغنين واحدا واحدا ، كذلك ألف جحظة البرمكى فى مثل هذا المعرض ، وكذلك ألف حسن ابن موسى النصيبى كتابا رتبه على حروف المعجم قيل إنه ألفه للمتوكل ، وألف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكان من العلماء الأجلاء « كتاب الآداب الرفيعة » فى الغناء والمنادمات . ولكن كل هذه الكتب لم يبق منها إلا الخبر عنها ، وآخر ما عندنا من آثار القوم فى الغناء هو كتاب أبى الفرج ، وقد جمعه من الكتب السابقة بعد أن حذف منها مايتعلق بقواعد الفن إلا قليلا ، وقد عرفت فيما سبق كل مايتعلق بهذا الكتاب

مصطلحات الأغانى

سنتكلم فى هذه المصطلحات بما جهدنا أن نصل إليه منها ، ولا ندعى النفاذ فى هذا المجال ، لأن الغناء علم من الآداب الرفيعة صعب المنال ، ولقد كانت الموسيقى ، وما تزال تعد فرعا من فروع الفلسفة ، فليست دراستها بالهينة على مثلنا ممن لا يتلطف لها

ولا يكون قد أعد معداته لفهمها ، وهى من بعد المنال بحيث لا يتيسر عسيرها إلا لمن جمع العزم للفهم ، وطَبَّ ورَفُق فى الاحتيال ، فأما من يريدها لساعته ، ويحاول هتك سترها لقضاء لبانته وتوفية موضوع يبحثه ، فليس شأنه أن يحلو منها بطائل .

على أن أهل هذا الفن تجدهم ، وقد طلبوه للذتهم لا يحفلون بإرشاد من استفهمهم بعض مسائله ، أو كأنهم من العناء الذى نالوه فى تحصيله يضنون على السائل حتى لا يرد إلا بعد التَّخلِّى ، ولا يستصفى إلا بعد التكدير، فلا تكاد تصل إلى مطلوب إذا سألتهم ولا يكادون يفهمونك من أسرارهم شيئاً ، وإن أفاضوا فى بيانهم لأنهم يكررون رموزهم ويرجّعون اصطلاحاتهم ، والناس أبعد ما يكونون عن ذلك ، وأصحابنا أرفع من أن يتكلموا بلغة الناس إذا تناولوا التفسير لمزاميرهم .

وقد طال بحث الناس عن المراد بما امتلأ به كتاب الأغانى من مثل قوله الثقيل الأول ، والثقيل الثانى . وقوله مطلق ، وبالخنصر ، أو الوسطى إلى غير ذلك فلم يعرفوا ذلك لطول العهد بهذه المصطلحات حتى عثر على كتاب مخطوط اسمه « نيل السعود فى ترجمة الوزير أبى داود » كتب سنة ١٢٣٢ هـ ، وقد ورد فيه بحث بعنوان « العود ومصطلحاته » ، ومما ورد فيه تحت هذا العنوان ما يأتى بتصرف .

« اعلم أن الألفاظ الواردة فى كتاب الأغانى تتعلق كلها بالعود العربى ، فإذا علمت تركيب هذه الآلة هان عليك فهم ما أشكل من مصطلحاتها ، فهذه الآلة طولها مثل عرضها مرة ونصفاً ، وغورها كنصف عرضها ، وعنقها كنصف طولها ، وتمتد على وجهها أربعة أوتار أغلظها البمّ ، بحيث يكون غلظه مثل المثلث الذى يليه مرّة وثلثا ، والمثلث إلى المثنى كذلك ، والمثنى إلى الزير كذلك ، وقد ضبطوها بطاقات الحرير ، فقالوا : يجب أن يكون البمّ أربعا وستين طاقة ، والمثلث : ثمانية وأربعين ، والمثنى : ستة وثلاثين ، والزير : سبعة وعشرين . وتجعل رءوسها فى مَلاوٍ من جهة العنق ، ومن الأخرى تكون كمشط فتتساوى حبالها » ، وفى كلام طويل بعد ذلك يقسم كل وتر من جهة

العنق أقساما يكون كل قسم منها مجرى لأصبع من الأصابع : السبابة ، والوسطى ، والبنصر ، والخنصر .

ثم ذكر أن قوانين الغناء لا تخرج عن ثمانية (ولعله يريد بذلك نوع النغمة كما نقول نحن اليوم : سيكا ، وحجاز ، وبياتى . . .) وهذه الثمانية هى :

١ — الثقيل الأول . ٢ — الثقيل الثانى .

٣ — خفيف الثقيل الأول . ٤ — خفيف الثقيل الثانى .

٥ — الرمل (ويسمى ثقيل الرمل) . ٦ — خفيف الرمل .

٧ — خفيف الخفيف . ٨ — الهزج .

وكان المؤلف قد أسقط فى عده النوع الثالث ، وهو خفيف الثقيل الأول ، ولكننا تممنا العدد بما ورد فى الأغانى من أن لمعبد لحناً من خفيف الثقيل الأول بإطلاق الوتر فى مجرى الوسطى فى قول عمر بن أبى ربيعة :

وَدِّعْ لُبَانَةَ قبل أن تَتَرَحَّلَا واسأل فإنَّ قليلَه أَنْ تَسْأَلَا

ثم قال : واللحن يسمى مطلقاً إذا لم يكن مقيداً بلفظ يدل على وصفه كأن يقال مثلا ثانى ثقيل مطلق ، وقد يذكر بعد اللحن موقع الأصبع التى يبتدأ بها ، فيقال ثانى ثقيل بالوسطى ، أو الخنصر وهكذا .

وبقى أن نفهم المراد من كلمة لحن ، ونغمة ، وصوت فنقول : إن اللحن نغمات من نوع واحد كالثقيل الأول : أو الثانى ، أو الرمل ، أو الهَزَج ، تؤلف تأليفا مناسبا يقبله ذوق الموسيقى فيكون مجموع هذه النغمات لحنا . وأما النغمة فهى وحدة اللحن .

والصوت هو ما يوقع على اللحن ، من شعر « أو غيره » فيوفق المغنى ، بين نغمات اللحن ، وحروف الكلام الذى يراد الغناء به حتى يخرجها مخرج هذه الأنغام ، فإذا استقامت كذلك سميت صوتا ، فالصوت صورة من صور اللحن . وقد يصاغ من اللحن ماشئت من الأصوات ، وعمل ذلك يسمى تلحينا ، فإذا قلت : قال فلان هذه الأبيات ثم لحنها فمعناه أجراها على نظام لحن من الألحان ، وطبعها على غراره .

إسحاق الموصلى

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وإبراهيم بن ماهان بن ميمون وأصله من فارس .

وسبب تلقيب أبيه بالموصلى أنه لما نشأ بالكوفة فى ولاء آل خزيمة بن خازم من بنى تميم اشتهى الغناء ، وطلب أصحابه ، وصحب الفتيان ، فاشتد ذلك على أخواله بنى عبد الله بن دارم فآذوه ، و بلغوا منه فهرب منهم إلى الموصل فأقام سنة فلما رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان : مرحبا بالفتى الموصلى فغلب عليه .

نشأ إسحاق فى حياطة أبيه ، وكان أبوه قد بلغ منزلة عظيمة بالغناء فأحسن تربيته ، وثقفه بأنواع العلوم ، وورث من أبيه صناعة الغناء فكان آية فى كل فن حتى قال عنه أبو الفرج الأصفهانى .

« وموضعه من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحله من الرواية ، وتقدمه فى الشعر ، ومنزلته فى سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليها بوصف . فأما الغناء ، فكان أصغر علومه ، وأدنى ما يوسم به » .

وكان المأمون يقول : لولا ماسبق على ألسنة الناس ، وشهر به عندهم من الغناء ، لوليته القضاء بحضرتى ، فإنه أولى به وأعفّ وأصدق ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة .

وقد سأل إسحاقُ المأمونَ أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة ، لامع المغنين ، فإذا أراد الغناء غناه ، فأجابه إلى ذلك ، ثم سأله بعد مدة طويلة الإذن له فى الدخول مع الفقهاء ، فأذن له ، قالوا : وكان يدخل ويده فى يد قاضى القضاة يحيى ابن أكثم .

وقد قال عنه محمد بن عمران الجرجانى : كان والله إسحاق غرة فى زمانه وواحداً فى عصره ، علماً ، وفهماً وأدباً،ووقارا ، وجودةرأى ، وصحة مودة ، وكان والله يخرس الناطق إذا نطق ، ويحير السامع إذا تحدث، لايمل جليسه مجالسه ، ولا تمج الآذان حديثه ، ولا تنبو النفس عن مطاولته، إن حدثك ألهاك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غنّاك أطربك ، وما كانت خصلة من الأدب ، ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق ، فيقدم أحد على مساجلته ، أو مناوأته فيه .

وكان إسحاق جيد الشعر . قال أبو الفرج : إنه كان يصنعه وينسبه إلى العرب ، وله شعر ينسبه إلى نفسه . قال الأصمعى : دخلت أنا وإسحاق الموصلى يومًا على الرشيد فرأيناه لقس النفس ، فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبُخْلِ قُلْتُ لها اُقْصِرِى ... فذلكَ شَىْءٌ ما إليـــهِ سَبِيلُ

أَرَى الناسَ خُلاَّنَ الكِرام ولاأَرَى ... بَخيلاً له حَتَّى المَمَاتِ خَلِيلُ

وَإِنِّى رَأَيْتُ البخلَ يُزْرِى بأَهْلِهِ ... فأَكرمْتُ نَفْسِى أَنْ يُقالَ بَخِيلُ

ومِنْ خَيْرِ حالاتِ الفَتَى لو عَلِمْتِهِ ... إذا نَالَ خَيْراً أَنْ يَكُونَ يُنِيلُ

فِعَالِى فِعَالُ المُكْثِرِينَ تَجَمُّلاً ... ومالى كما قد تَعْلَمِينَ قَلِيـــلُ

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأى أمير المؤمنين جميل

قال الرشيد : لاتخف إن شاء الله ، لله در أبيات تأتينا بها ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، فقال له إسحاق : وصفك لشعرى أحسن منه . فعلام آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد ، وقال : اجعلوها مائة ألف ، قال الأصمعى : فعلمت يومئذ أن إسحاق أصيد للدراهم منى .

نبوغه فى فنه

العجيب من أمره أنه لم يكن حسن الصوت ، فكان يجتمع مع المغنين ، وكلهم أحسن منه صوتاً ، ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه ، ولا يزال بلطفه ، وحذقه ، ومعرفته حتى يغلبهم جميعاً ، ويفضلهم ويتقدم عليهم .

وبلغ من حذقه أنه كان يميز الخطأ فى الضرب من جارية بين عشرين يضربن جميعاً فيعين موضع الخطأ ، بما لا يقدر أحد أن يهتدى إليه غيره .

حدث أن المأمون دعاه ، وعنده إبراهيم بن المهدى ، وفى مجلسه عشرون جارية يضربن فأنكر إسحاق خطأ من واحدة منهن ، وبان عليه الإنكار ، فقال له المأمون : أسمعت خطأ ، قال : نعم ، ثم قال لإبراهيم بن المهدى : هل تسمع خطأ ؟ فقال : لا ، وتجادل هو وإبراهيم فى هذا الشأن ، فقال إسحاق للمأمون : مر الجوارى اللاتى على اليمين أن يسكن ، فأمرهن بالإمساك ، ثم ضربت الجوارى التى على اليسار وحدهن ومازال يسكت بعضاً ويأمر بعضاً حتى انتهى إلى موضع الخطأ فأمر الجارية المخطئة أن تضرب وحدها فظهر الخطأ جليًّا لإبراهيم ، وكان يكابر فيه ، فقال له المأمون : لا تمار إسحاق بعدها ، فإن رجلا عرف الخطأ بين ثمانين وتراً وعشرين حلقاً لجدير ألا تماريه . قال : صدقت .

وقد ذكر صاحب الأغانى فى بيان فضله أنه هو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه وميّزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده ، ولم يكن قديما مميزاً على هذا الجنس ، إنما كان يقال : الثقيل ، وثقيل الثقيل ، والخفيف ، وخفيف الخفيف ، وقد جعل إسحاق الثقيل الأول أصنافاً فبدأ بإطلاق الوتر فى مجرى البنصر ثم تلاه بما كان منه بالبنصر فى مجراها ، ثم بما كان بالسبابة فى مجرى البنصر ، ثم فعل هذا بما كان بالوسطى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين ، ولم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلا من أن يصنفه فى كتاب ، وهذا كله فعله إسحاق واستخرجه بتمييزه حتى

أتى على كل ما رسمته الأوائل مثل أقليدس ، ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى وقد وافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتابا .

بعض نوادره وألحانه

حدّث حماد ابنه أنه حدثه قال : غدوت يوما ، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة والخدمة فيها ، فخرجت ، وركبت بكرة ، وعزمت على أن أطوف الصحراء وأتفرج ، فقلت لغلماني : إن جاء رسول الخليفة أو غيره ، فعرفوه أنى بكرت فى بعض مهماتى ، وأنكم لا تعرفون أين توجهت ، ومضيت فطفت ما بدا لى ، ثم عدت ، وقد حمى النهار فوقفت فى الشارع المعروف بالمحرم فى فناء ثخين الظل ، وجناح رحب لأستريح فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارها ، عليه جارية راكبة تحتها منديل دبيقى ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده ، ورأيت لها قواما حسناً ، وطرفا فاتراً ، وشمائل حسنة ، فخرصت عليها أنها مغنية ، فدخلت الدار التى كنت واقفاً عليها ، ثم لم ألبث أن جاء رجلان شابان جميلان فاستأذنا ، فأذن لهما ، فنزلا ونزلت معهما ، ودخلت فظنا أن صاحب الدار دعانى ، وظن صاحب الدار أنى معهما ، فجلسنا وأتى بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع ، وخرجت الجارية ، وفى يدها عود فغنت وشربنا ، وقمت قومة ، وسأل صاحب الدار الرجلين عنى ، فأخبراه أنهما لا يعرفانى ، فقال : هذا طفيلى ولكنه ظريف فأجملوا عشرته ، وجئت فجلست ، وغنت الجارية فى لحن لى :

ذكرتك أن مرت بنا أم شادن   أمام المطايا تشرئب وتسنح

من المؤلفات الرمل أدماء حرة   شعاع الضحى فى متنها يتوضح

فأدته أداء صالحاً وشربت ثم غنت أصواتاً شتى وغنت فى أضعافها من صنعتى :

الطُّلُولُ الدَّوَارِسُ   فارقَتْهَا الأَوَانِسُ

أَوْحَشَتْ بَعْدَ أَهْلِهَا   فَهْيَ قَفْرٌ بَسَابِسُ

فكان أمرها فيه أحسن من الأول ثم غنت أصواتاً من القديم والحديث وغنت فى أثنائها من صنعتى :

قُلْ لِمَنْ صَدَّ عَاتِبَاً   وَنَأَى عَنْكَ جَانِبَاً
قَدْ بَلَغْتَ الَّذِى أَرَدْ   تَ وإِنْ كُنْتَ لاَعِبَاً

فكان أصلح ما غنته فاستعدته منها لأصححه لها فأقبل علىّ رجل من الرجلين وقال : ما رأيت طفيليّا أصفق وجهاً منك ، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت وهذا غاية المثل : طفيلى مقترح . فأطرقت ولم أجبه وجعل صاحبه يكفه فلا يكف ، ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلاً فأخذت عود الجارية ثم شددت طبقته وأصلحته إصلاحا محكما وعدت إلى موضعى فصليت وعادوا ثم أخذ ذلك الرجل فى عربدته علىّ وأنا صامت . ثم أخذت الجارية العود فجسته وأنكرت حاله وقالت : من مسّ عودى ؟ قالوا ما مسه أحد قالت : بلى والله لقد مسه صادق متقدم وشد طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من صناعته فقلت : لها : أنا أصلحته ، قالت : فبالله خذه واضرب به ، فأخذته وضربت به مبدأ صحيحاً ظريفاً عجيباً صعبا فيه نقرات محركة ، فما بقى أحد إلا وثب وجلس بين يدىّ ، ثم قالوا : ياسيدنا ، أتغنى ؟ فقلت : نعم ؛ وأعرفكم نفسى أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلى ووالله إنى لأتيه على الخليفة إذا كلمنى ، وأنتم تسمعوننى ما أكره منذ اليوم لأنى تملحت معكم ، فوالله لا نطقت بحرف ، ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا المعربد المقيت الغث فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك . فأخذ يعتذر ؛ فقلت : والله لا نطقت بحرف ولاجلست معكم حتى يخرج ، فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا ، فبدأت وغنيت الأصوات التى غنتها الجارية من صنعتى ، فقال لى الرجل : هل لك فى خصلة ؟ قلت : وما هى ؟ قال : تقيم عندى شهراً والجارية والحمار لك مع ما عليها من حلىّ ؛ قلت : أفعل فأقمت عنده ثلاثين يوما لا يدرى أحد أين أنا والمأمون يطلبنى فى كل موضع فلا يعرف لى خبراً فلما كان بعد ثلاثين يوما أسلم إلىّ الجارية والحمار والخادم ، فجئت بذلك منزلى ،

وركبت إلى المأمون من وقتى ، فلما رآنى قال إسحاق : ويحك ! ! أين تكون ؟ ، فأخبرته بخبرى ، فقال : علىّ بالرجل الساعة . فدللتهم على بيته ، فأحضر فسأله المأمون عن القصة فأخبر ، فقال له : أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعان عليها ، وأمر له بمائة ألف درهم ، وقال : لا تعاشرن ذلك المعربد النذل ألبتة ، وأمر لى بخمسين ألف درهم ، وقال : أحضرنى الجارية فأحضرتها فغنته ، فقال لى : قد جعلت لك نوبة فى كل يوم ثلاثاء تغنين مع الجوارى من وراء الستار ، وأمر لها بخمسين ألف درهم .

وحدث حماد عن أبيه قال : خرجنا مع الرشيد يريد الرقة ، فلما صرنا بالموضع الذى يقال له القائم : نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد فى طلب الصيد ، ولاح لى دير فقصدته وقد تعبت ، فأشرف علىّ صاحبه ، فقال: هل لك فى النزول بنا اليوم ؟ فقلت : إى والله ، وإنى إلى ذلك لمحتاج ، فنزل ففتح لى وجلس يحدثنى ، وكان شيخاً كبيراً ، وقد أدرك دولة بنى أمية ، فجعل يحدثنى عمن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم ، وعرض علىّ الطعام فأجبته ، فقدم إلى طعاما من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت منه وأتانى بشراب وريحان طرىّ فشربت منه ، ووكل بى جارية تخدمنى راهبة لم أر أحسن منها وجهاً ولا أشكل ، فشربت حتى سكرت ونمت وانتبهت عشاء ، فقلت فى ذلك :

بدَيْرِ القائمِ الأَقْصَى غزَالٌ شَادِنٌ أَحْوَى
بَرَى حُبِّى لَهُ جَسَدِى ولاَ يَعْلَمُ مَا أَلْـقَى
وأَكْتُمُ حُبَّهُ جُهْدِى ولا والله مايَخْـفَى

وركبت فلحقت بالعسكر والرشيد قد جلس للشرب فطلبنى فلم أوجد وأخبرت بذلك فغنيت فى الأبيات ودخلت إليه فقال لى : أين كنت ويحك ؟ فأخبرته الخبر وغنيته الصوت فطرب وشرب عليه وأخر الرحيل فى غد ومضينا إلى الدير ونزل فرأى الشيخ واستنطقه ، ورأى الجارية التى كانت تخدمنى بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ،

ودعا بالشراب ، وأمر الجارية أن تتولى خدمته ففعلت ، وشرب حتى طابت نفسه ، ثم أمر للدير بألف دينار ، وأمر باحتمال خراجه له سبع سنين .

سأل المتوكل عن إسحاق الموصلي فعرف أنه قد كف ، وأنه بمنزله ببغداد فكتب بإحضاره ، فلما دخل إليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير وأعطاه مخدة ، وقال له : بلغني أن المعتصم دفع إليك مخدة في أول ما جلست بين يديه وهو خليفة ، وأنه قال : ما يستجلب ما عند حر بمثل الكرامة ، ثم سأله هل أكل ؟ فقال : نعم ، فأمر أن يسقى ، فلما شرب أقداحاً . قال : هاتوا لأبي محمد عودا فجيء به فاندفع يغني بصوت (الشعر فيه والغناء له) :

ماعِلَّةُ الشيخِ عَيْنَاهُ بأربعةٍ   تَغْرَوْرِقَانِ بِدَمْعٍ ثم يَنْسَكِبُ

فما بقي غلام من الغلمان الوقوف إلا رقص طربا وهو لا يعلم بما يفعل فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل إلى رقة بوصرا وكان يستطيبها لكثرة تغريد الأطيار بها فغنى إسحاق :

أَأَنْ هَتَفَتْ وَرْقاءُ في رَوْنَقِ الضُّحَى   عَلَى غُصُنٍ غَضِّ الشَّبَابِ من الرَّنْدِ
بَكَيْتَ كما يَبْكِي الحزينُ صَبَابَةً   وشَوْقاً وتَابَعْتُ الحَنِينَ إلى نَجْدِ

فضحك المتوكل ، وقال له يا إسحاق : هذه أخت فعلتك بالواثق لما غنيته بالصالحية :

طَرِبْتُ إلى أُصَيْبِيَةٍ صِغار   وَذَكَّرَنِي الهوى قرب المزَارِ

فكم أعطاك لما أذن لك في الانصراف ؟ قال : مائة ألف ، فأمر له بمائة ألف درهم وأذن له بالانصراف إلى بغداد فكان هذا آخر العهد به لأن إسحاق توفي بعد ذلك بشهرين .

وفاتـــه

توفى ببغداد فى خلافة المتوكل ، وكان يسأل الله ألا يبتليه بالقولنج لما رأى من صعوبته على أبيه ، فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له : قد أجيبت دعوتك ولست تموت بالقولنج ولكن بضده ، فأصابه ذرب فى شهر رمضان سنة ٢٣٥ ه ، فكان يتصدق فى كل يوم يمكنه أن يصومه بمائة درهم ثم ضعف عن الصوم فمات فى نفس الشهر .

لما نعى إلى المتوكل ، وكان ذلك فى وسط خلافته اغتمّ وحزن وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ، ثم نعى إليه بعده أحمد بن عيسى (وكان المتوكل يخشاه) فقال تكافأت الحالتان وقام الفتح بوفاة أحمد (وما كنت آمن وثبته على) مقام الفجيعة بإسحاق ، فالحمد لله على ذلك .

ولما مات إسحاق رثاه كثير من الشعراء . ومما قاله فيه محمد بن عمرو الجرجانى :

على الجَدَثِ الشَّرْقِىِّ عُوجا فَسَلِّمَا ... ببَغْدادَ لَمَّا ضَنَّ عَنْهُ عَوَائدُهْ

وقُولاَ له لو كانَ لِلْمَوْتِ فِدْيَةٌ ... فَدَاكَ مِنَ المَوْتِ ، الطَّرِيفُ وتَالِدُهْ

أإسحاقُ لاتَبْعَدْ وإنْ كان قَدْ رَمَى ... بك الموتُ وِرْداً ليس يَصْدُرُ وَارِدُهْ

إذا هَزَلَ اخضرَّتْ فُنُونُ حديثه ... ورَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَطَابَتْ مَشَاهِدُهْ

وإن جَدَّ كان القولُ جِدًّا وَأقْسَمَتْ ... مخارجـــه ألاَّ تَلِينَ مَعَاقِدُهْ

فَبَكِّ على ابن المَوْصِلِىِّ بِعَبْرَةٍ ... كما ارْفَضَّ من نَظْمِ الجُمَانِ فَرَائِدُهْ

انتهى والحمد لله ما أردنا به خدمة العلم ، ونفع الطلبة ، خالصاً لوجه الله . ورجاؤنا إليه تعالى أن يكون الجزاء على جهدنا فيه ، النفع به وحسن التقدير من كل من اطلع عليه .

وكان الفراغ من إعداده فى صبيحة يوم الخميس ٢٥ رمضان المبارك سنة ١٣٥٢ هـ الموافق ١١ يناير سنة ١٩٣٤ م ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأمجاد ؟ .

محمود مصطفى

تمّ الجزء الثانى

ويليـــــه : الجزء الثالث

وأوّله

حياة اللغة فى الأندلس

تنبيـــــه

كثير من الخطأ الذى نصححه هنا لا يحتاج إلى الدلالة عليه لوضوحه لـكل قارئ ، ولـكننا إمعانا فى الدقة نبهنا على كل ما وقع فى الـكتاب من مخالف للصواب ، ونـكاد نكون موقنين أن القارئ إذا بدأ بإثبات الصواب فى موضعه من الـكتاب لا يعثر بخطأ بعد ذلك .

الصفحة	السطر	الخطـــــأ	صـــــوابه
١٠	١٧	خَوَارَزْمِيَّة	خُوَارَزْمِيَّة
١٢	٨	ولم يقتصروا	ولم يقصروا
٢٤	٢٠	(وتكسر اللام الثانية)	(تفتح وتكسر . . .)
٢٥	٩	والخولنجانْ والآزريونَ	والخولنجانُ والآذريونُ
٢٩	٣	فعبّى	فعبّا
٤٤	٥	والـكَرَجْ	والـكَرَجِ
٤٦	١٧	أحرف	أحرفا
٦١	٢	بهظها	بهظنا
٦٧	٧	لتُسْأَلَنَّ	لتَسْأَلُنَّ
٧٢	٦	والاستعانة كما	والاستعانة به كما
٧٣	١٣	ومثلّت	ومَثلت
٧٦	٩	تلك البلد	تلك البلدة
٨١	٤	اشترطوا	فاشترطوا
٨٩	١٧	ولا حالوا	ولا حاولوا
٩٨	٥	فى ساق	فى سياق

الصفحة	السطر	الخطـــــــأ	صـــــــوابه
١٠٤	٥	يَشنُؤُك	يَشْنَؤُك
١٠٥	٩	وإنّ بَذَل	وإنّ بَذْل
١١٢	٤	واللَّحُمة	والُّحْمة
١١٧	١٠	لصدْمك	لصَدْمك
١١٩	٨	المُشَاقَّة	المَشاقَّة
١٣٠	٨	وتستكملُ	وتستكملَ
١٢٤	١٦	يَنتَجَّزَها	يَتَنَجَّزَها
١٣٩	٧	وقصر	وقسر
١٣٩	١٥	وضَوَءُهُ	وضَوْءُهُ
١٤٠	٢٠	والقوانينَ	والقوانينِ
١٤٦	٢١	(صد)	(ضد)
١٥٥	٧	نهدام	تهدام
١٧١	٤	واحضرّ	واخضرّ
١٧٢	١٣	أظَعْنَا	أَظْعَناً
١٨٧	١٨	الفضل من الرّبيع	الفضل بن الرّبيع
١٩٤	١٢	يلعون	يلعبون
١٩٥	٢١	وقعاً	وقعا
١٩٦	٢٠	مرّب	مرّت
٢٠٣	١٧	ككثير لبنى	ككثير عزة وقيس لبنى
٢١٦	٩	من مجلس	من مجالس
٢٢١	١٦	عقبه	عقبة

الصفحة	السطر	الخطـــــــأ	صــــــوابه
٢٧٢	٢٤	ويقرأ	ويقرا
٢٩٨	١٨	الغامرة	المغامرة
٣٠٤	١٣	أغنت	غنّت
٣٠٩	٧	المرأة	المرة
٣٢٢	٧	ومن	من
٣٢٥	٣	ثم ففرض	ثم فرض
٣٣٥	١٩	عيونٌ	عيونُ
٣٣٦	١٨	أذريونة	آذريونة
٣٣٧	٦	عَقودها	عُقودها
٣٤٤	٢	خُزّانهِ	خُزّانه
٣٤٤	١٩	تكْنْ	تكُنْ
٣٥٩	١٢	أسودَا	أسودًا
٣٦٧	٣	فى	بى
٣٦٧	٩	وبنّيهم	وبَنِيهم
٣٧٢	٦	لا جُرْء	لا جُزْء
٣٩٥	٢	بها	بهما
٣٩٨	٤	والطّخا	والطحا
٤٠٢	٢	النَّمَيْرى	النُّمَيْرى
٤٠٢	١٩	طبقة بن	طبقة ابن
٤٠٣	١٠	وصَّرَ دُرّ	وصَرَّ دُرّ
٤٠٨	٦	وكانا بشار	وكان بشار

الصفحة	السطر	الخطـــــــأ	صـــــــوابه
٤١٣	١٣	زنذيقا	زنديقا
٤١٣	١٥	كأن	كان
٤٢١	١١	الأولى	الألى
٤٣٣	٦	الأحداث	الأجداث
٤٤٥	١٥	نفوسُ	نفوسَ
٤٤٧	١٥	وراياتُ . . . وجنودُ	وراياتِ . . . وجنودِ
٤٦٣	١٤	التزام	الالتزام
٤٦٨	١٣	تحنت	تجنت

فهرس

[تمت]